



الشيخ
نجم الدين كبرى

فوائد الجمال وفوائد الجلال

دراسة وتحقيق
دكتور يوسف زيدان



فوائع الجمال
وفوائع الجلال

رقم الإيداع : ١٩٩٣/٧٦٧٠
I.S.B.N. 977—274—028—1

الطبعة الأولى ١٩٩٣
جميع الحقوق محفوظة ©
دار سعاد الصباح
ص.ب : ٢٧٢٨٠
الضفاة ١٣١٣٣ - الكويت
القاهرة - ص.ب : ١٣ المقطم
دق ٢٦٧
٣٤٩١٧٢٧
تليفون : ٣٤٩٧٧٧٩
٧٠٩٥٨٣
٧٠٩٥٦٣
فاكس : ٥٠٦١٠٣٠

الإشراف الفني : حلمى التونى



تراث

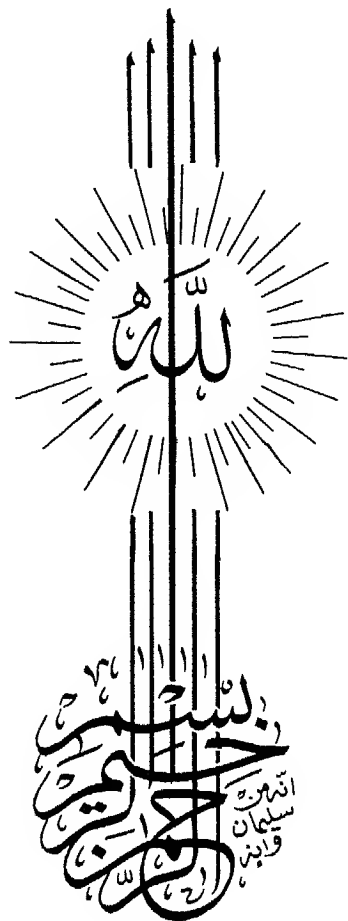
فوائع الجمال وفوائع الجلال

الشيخ
نجم الدين كُبرى

دراسة وتحقيق
دكتور يوسف زيدان



دار سعاد الصباح



الاهـداؤ..

إلى الصوفى الوزير الإنسان
حسن عباىؒ نكى

يوسف زيدان

تمهيد

للسوفية الفرس مكانتهم المتميزة في تاريخ التصوف عند المسلمين ، فقد شاركوا الصوفية العرب في كتابة التاريخ الصوفي ، بحيث يستحيل الفصل بين الفريقين ؛ خاصة أن كليهما شرب من نبع واحد هو الوحي المحمدي ، وانتسب لثقافة بعينها هي الثقافة العربية الإسلامية .

ومع ذلك ، فللسوفية من ذوى الأصول الفارسية مذاق خاص . فهم وإن وفدوا على الجانب العربى من العالم الإسلامى ، أو استوطنوه - والكلام هنا عن القرون السابقة ، قبل رسم تلك الحدود السياسية بين بلدان المسلمين - إلا أنهم اختصوا دوماً بروح مميّز عن روح الصوفية العرب .. ففى شعر الصوفية الفرس نرى تلك الروح المتأججة في مقابل الروح الرصينة لدى شعراء الصوفية العرب ؛ ولنقارن بين شعر جلال الدين الرومى أعظم شعراء الصوفية الفرس ، وشعر عمر ابن الفارض أشهر شعراء الصوفية العرب ، لنرى أشعار ابن الفارض الموشاة بفنون البلاغة ، المزينة بجرس الجناس التام والناقص ، الرافلة فى ألوان التشبيه والاستعارة .. بينما يتدفق شعر الرومى عارماً ، دافئاً ، متألماً ، ناحئاً لفظه وجماليات تعبيره من حرارة القلب والتهاب الروح . ولننظر فى شعر العطار مقارناً بأشعار ابن عربى ، لنرى خيال العطار المحلّق ، فى مقابل رسوخ ابن عربى وصرامته . وفى النثر الصوفى ، نقارن بين كتابات شهاب الدين السهروردى الإشرافى - الفارسى الأصل - بكتابات الصوفى العربى الكبير محمد عبد الحق بن سبعين ؛ فنرى السهروردى يكتب بيد ساحرة فيأتى فى قصصه الصوفى بصور خيالية هائلة ، ويرمز للمعنى البعيد باللفظ العجيب .. بينما يوجز ابن سبعين ويحدّ العبارة ويقفّ كلامه من الصخر المتين .

وفى طبيعة الحياة الروحية ، نرى الصوفية الفرس أكثر اشتعلاً من نظرائهم العرب ، وأشدّ احتراقاً .. حتى إننى بدأت فى عمل كتاب عن قتلى الصوفية

وشهداءهم ، أولئك الذين تدفقت رحلتهم الروحية حتى انتهت بواقعة موت عارم ، مروع ، أنحاذ ؛ فوجدتهم - كلهم - من ذوى الأصول الفارسية : الحسين ابن منصور الحلاج ، أبو الحسين النورى ، عماد الدين النسيى ، عين القضاة ، الهمذانى ، شهاب الدين السهروردى ، مجد الدين البغدادى الخوارزمى ، نجم الدين الكبرى .

* * *

بدأت معرفتى بنجم الدين الكبرى على مقاعد الدرس فى السنة الثانية من دراستى بقسم الفلسفة بآداب الإسكندرية .. كنا وقتها ندرس فخر الدين الرازى ، الفقيه المتكلم المفسر ، وبينما نحن فى خضم المباحث الكلامية والفقهية العويصة التى يثيرها الفخر الرازى بطريقته الجافة المعقدة ، أطلت علينا فى الكتاب المقرّر قصة لقائه بنجم الدين الكبرى ، وما دار بينهما من حوار كان كأنه النسمة الباردة فى صحراء درس الرازى .. وانطوت صفحات الأيام ، ولم أستزد من معرفتى بهذا الشيخ الذى فاض حواراه مع الرازى بدفء الصدق .

ومرت السنون ، حتى جلسْتُ يوماً مع الصديق الروائى / جمال الغيطانى ، فسألنى عن نجم الدين الكبرى ، فأجبتُه بأنه واحد من كبار صوفية الفرس ، ولم أزد .. فأخبرنى أنه يود معرفة المزيد عنه ، ولما سألتُه عن الباعث ، قال إنه كان يزور الاتحاد السوفيتى - وكان وقتها قائماً - فنظّموا له رحلةً فى الجمهوريات التى تُعرف اليوم بالإسلامية ، فسلكوا به فى صحراء مترامية ، حتى مضت الساعات على الطريق الذى يشق الرمال ، وعلى مرمى البصر رأى مسجداً .. عزل عنده ، فرآه وحيداً متفرداً ، وقرأ على بابه : « هذا مقام الشيخ نجم الدين الكبرى قدس الله روحه » وعلى الجدران مكتوب :

كَانَ لَمْ يَكُنْ يَنْ الْحَجُونَ إِلَى الصِّفَا أَيْسَ ، وَلَمْ يَسْمُرْ بِمَكَّةَ سَامِرُ

غاصت تلك الواقعة فى نفسى ، وتمثلت هذا الشيخ المتفرد بقبيره وسكونه وسط الصحراء .. وددتُ فى معرفته ، وقد تذكرتُ ما كان من لقائه بفخر الدين الرازى ، فَرَحْتُ أَقْلِبَ الْكُتُبَ . وكانت هَزَّتْى الشديدة ، لما وجدت المراجع تحكى

واقعة موته المجيدة ! شعرت بأننا أحوج ما نكون إلى نجم الدين الكُبرى ليعلمنا كيف نموت ، كما مات هو ، ميتةً مجيدة .. ما دمنا الميتين على كل حال ! واشتقتُ للكتابة عنه .

في كتابي الصغير (شعراء الصوفية المجهولون) أفردتُ بضع صفحات للشيخ نجم الدين وقدمت بعضاً من أشعاره ، فكان ذلك سبباً في معرفتي بالدكتور حسن عباس زكى ، الذى بادر - وهو الذى فى المقام الأعلى - بطلب لقائى للحديث حول ما كتبتُه عن نجم الدين الكبرى .. وأثناء اللقاء الأول ، جاءت فكرة نشر « فوائح الجمال » فى طبعة بتحقيقى ، وأمدنى الدكتور حسن عباس زكى بنسختين مخطوطتين من الكتاب ، كانتا ضمن مكتبته الزاخرة ؛ فشرعت فى التحقيق حتى تنبّهت إلى أن مستشرقاً ألمانياً نشر الكتاب ببلاده منذ ثلاثين سنة ، فتوقفت .. ولا منى على التوقف واحداً من أشقاء روحى ، وهو الدرويش السكندرى المثقف / عبد الرحمن المكباتى .. قلت له : الكتاب منشور من قبل ، ولدينا العديد من التراث الذى لم يسبق نشره ، فهو الأولى بالجهد .. فامتعض وقال : هى نشرة ألمانية تعد اليوم - لندرتها - كأنها لم تكن . وقال : سيكون لك فى الكتاب نظرات أخرى ، والناس أنفاس !

، تريت حتى حصلت على نشرة المستشرق الألمانى ، وجعلتها إحدى الأصول التى حققت عليها الكتاب .. ثم شعرتُ أن الأمر بحاجة إلى مزيد جهد ! فلا توجد فى المكتبة العربية أية كتابات حول الشيخ نجم الدين - اللهم إلا ترجماته فى كتب التاريخ القديمة - ولم تفرد له حتى اليوم دراسة واحدة تعرف به ، مع خطورة موقعه فى تاريخ التصوف .

من هنا ، كانت تلك الدراسة التى تحتل القسم الأول من هذا الكتاب ، والتى يعلم الله كم عانيت فى إتمامها .. ربما لقلة المعلومات الخاصة بالشيخ فى المصادر العربية ، وربما لكونها غير مسبوقة إلا بتلك الدراسة التى وضعها المستشرق الناشر للفوائح باللغة الألمانية - والتى آثرتُ ألا ألقى بنظرى إليها إلا بعد إتمام دراستى ،

لكيلا أتأثر بتناوله للموضوع - وربما لعدم إخلاصى مع الشيخ نجم الدين .. إذ صرث اليوم موزع الهوى بين التصوف والصوفية ، وبين العلوم العربية وابن النفيس ، وبين قضايا واقعنا المر . فله الأمر !

وبعد .. فتلك هى أول دراسة تُنشر بالعربية عن الشيخ نجم الدين الكبرى ، وها هو تحقيقٌ لكتابه « فوائح الجمال » .. أنجزتهما بقدر الطاقة وما سمح به الحال والزمان ، وكلٌ ميسرٌ لما خُلق له .

والله الموفق ،،،

يوسف زيدان

الإسكندرية فى أوائل رجب الخير ١٤١٣ هجرية
الموافق أواخر ديسمبر ١٩٩٢ ميلادية

نجم الدين الكُبْرى

الفصل الأول حياته وأخباره

اسمه وألقابه :

اتفق المؤرخون على أنه : أحمد بن عمر بن محمد^(١) .. الإمام الزاهد القدوة ، صانع الأولياء ، أبو الجناب نجم الدين كبرى ، الخوارزمي الخيوي المحدث الشهيد ولم يخرج عن إجماع المؤرخين حول اسم الشيخ ، إلا نور الدين الششتري صاحب « مجالس المؤمنين » الذى يذكر أن اسمه « محمد بن عمر^(٢) .. » مما جعله محلاً لنقد اللاحقين عليه ، فنجد ميزرا محمد على مدرس ينبّه على هذا الخطأ بقوله : وهو فى « مجالس المؤمنين » محمد ، وهذا من سهو قلم المؤلف أو الناسخ^(٣) . ونجد الخوانسارى يشدد فى النقد قائلاً : والعجب من صاحب « المجالس » حيث زعم أن اسم الرجل كان محمدًا ، وإن كان أمثال ذلك منه غير عزيز ، لكثرة مساحته فى الأمر^(٤) ! أى أن الششتري كان متساهلاً غير مدقق ولا محقق فيما يكتبه .

وأما ألقاب الشيخ ، فلكل منها حكاية أو تفصيل . ولعلنا بذكر تلك الحكايات والتفاصيل ، نتعرف إلى بعض الجوانب الخاصة بتلك الشخصية الفريدة :

(أ) الإمام الزاهد القدوة :

لم ينفرد الشيخ بإطلاق تلك الألقاب عليه ، فالكثير من رجال التصوف الكبار تسبق أسماءهم فى كتب التاريخ مثل هذه الألقاب ، ولكن ذلك يتضمن أن

(١) انظر القائمة المشتملة على مصادر تاريخ الشيخ ، التى سترد فى آخر هذا الفصل .

(٢) نور الدين الششتري : مجالس المؤمنين (طبعة طهران ١٢٦٩ هـ) ص ٢٧٣ بالفارسية .

(٣) ميزرا محمد على مدرس : ربحانة الأدب (تبريز - جنجانه سفق) جلد ششم - المجلد السابع - ص ١٤٣ بالفارسية .

(٤) الخوانسارى : روضات الجنات فى أخبار العلماء السادات ، تحقيق / أسد الله إسماعيليان (طبعة طهران ١٣٩٢ ش) المجلد الأول ص ٢٩٩ .

الواحد منهم كان « إماماً » أى جامعاً بين علوم الشريعة وأصول الطريق ، وأن ثمة رجالاً كانوا تابعين أو مريدين له ، فهو إمامٌ بالنسبة إليهم بطريق الإصالة ، وإمامٌ لغيرهم على سبيل المجاز .. وذلك ما ينطبق أيضاً على لفظ « القدوة » الذى يشير إلى صلاح حال الرجل فى الأمور الدينية والدنيوية ، مما يجعله أهلاً لاقتداء معاصريه ومحبيه من بعدهم ، أولئك الذين يقتدون بحاله وأفعاله وأحواله ، وما يجنون فى سيرته .

والزاهد قد يكون لقباً على سبيل التخصيص ، كما هو الحال فى شأن « أبو هاشم الزاهد » .. وقد يكون لعموم مشايخ التصوف الذين يتخذون من الزهد شرطاً من شروط الطريق الصوفى ؛ ومن هذا الوجه حمل الشيخ هذا اللقب ، كما حمّله غيره من مشايخ الطريق .

(ب) صانع الأولياء :

وهو لقب خاص من ألقاب الشيخ نجم الدين ، لا نعلم أنه أطلق على أحد غيره .. والأصل فى هذا اللقب ، الكلمة الفارسية « ولى تراش » التى تعنى بالعربية : ناحت الأولياء ، صانع الأولياء .

وهناك سببان لإطلاق هذا اللقب « ولى تراش » على الشيخ ، السبب الأول (معقول) وهو كثرة الذين تخرجوا على يديه من أهل الولاية ، كما سترى فى الفصل الثالث من هذه الدراسة .. والسبب الثانى (منقول) عن بعض المؤرخين من الصوفية ، حيث نقلوا - والعهد عليهم - أن الشيخ نجم الدين كان إذا نظر إلى شخص وهو فى حالة الوجد والانجذاب ، فإن هذا الشخص ينجذب ويصير من الأولياء^(١) . وهذا الأمر يذكرنا بالشيخ حماد الدبّاس (المتوفى ٥٢٥ هـ) الذى جذب بنظرته كل من : عبد القادر الجيلانى ، أبو النجيب السهروردى^(٢) .

(١) د. عبد المنعم الحفنى : الموسوعة الصوفية (دار الرشاد - القاهرة ١٤٢٢ هـ) ص ٣٣٧ وقد ورد هذا اللقب فى العديد من المصادر التى أرخت للشيخ نجم الدين .

(٢) يروى الدميرى فى (حياة الحيوان الكبرى ، طبعة بيروت ١٠٠/١) ما نصه : دخل الشيخ عبد القادر =

وأياً ما كان من سبب إطلاق هذا اللقب على الشيخ نجم الدين ، فالمهم هنا أن الشيخ حمل هذا اللقب ، واشتهر به ، في النصف الثاني من حياته حيث استوطن خوارزم ودعا للتصوف هناك .

(ج) أبو الجَنّاب :

يحكى لنا الشيخ نجم الدين في « فوائح الجمال » قصة هذه الكُنية ، فيقول : وأما كُنيتي ، فكنت بالإسكندرية أسمع الأحاديث .. فغبتُ ، فرأيتُ النبي ﷺ وهو قاعد معي ثلثي اثنين .. ثم أُلهمتُ حينئذ أن أسأله عن كُنيتي فقلت : « يا رسول الله ، كُنيتي أبو الجَنّاب أم أبو الجَنّاب ؟ » وكانت نفسى مائلة أن يقول « أبو الجَنّاب » بالتخفيف ، فقال : لا ، بل أبو الجَنّاب^(١) .

وقد اشتهرت هذه الكُنية النبوية للشيخ نجم الدين ، ووضع بعضهم في ذلك بيتاً شعرياً ، نراه في العديد من كتب الطبقات التي أرّخت للشيخ .. يقول البيت :

قد قال له رسولنا في الرؤيا إذ شاهده : أنت أبو الجَنّاب^(٢)

= على الشيخ حماد الدباس يزوره ، وكان الدباس قد رأى في منامه أنه اصطاد باريّاً ، فلما دخل الشيخ عبد القادر ، نظر إليه الدباس نظرة ثابتة ، فانخلع قلبه ، وخرج من عنده هائماً على وجهه ! ويروى الشطنوفى في (بهجة الأسرار ، دار الكتب العربية بالقاهرة ١٣٣٠ هـ ص ١٤٤) عن أبي النجيب السهروردي أنه قال : أتيتُ الشيخ الدباس أشتكى إليه كثرة المجاهدات وبطء الفتح ، فأمرني أن أحمل قِدرًا من اللبس وأمر به في الأسواق وأنا بملابس الدرس - قاصداً بذلك إدهاب إعجابه بنفسه - وصار الناس يقفون وينظرون إليّ ، وكثتُ كلما خطوْتُ خطوةً تذوب نفسي كما يذوب الرصاص على النار ، فلما قاربْتُ دكان دباسة الشيخ حماد ، رأيته واقفاً على بابه كالمنتظر لي ، فنظرتُ نظرةً ملأها ، وعاب عقلي ، وسقطتُ على وجهي ، وتبدّد اللبس على الأرض .. وأنا إلى الآن في بركة تلك النظرة .

راجع كتابنا : عبد القادر الجيلاني ، باز الله الأشهب (دار الجيل - بيروت ١٤١١ هـ) صفحات ٥٢ ، ٥٨ - وبخصوص ترجمة الشيخ حماد الدباس ، انظر : المنتظم ٢٢/١٠ - الكامل ٦٧١/١٠ - تاريخ الإسلام ٢٦٦/٤ - دول الإسلام ٤٧/٢ - سمر أعلام النبلاء ٥٩٤/١٩ - المعر ٦٤/٤ - تمة المختصر ٥٩/٢ - مرآة الزمان ٨٥/٨ - قلائد الجواهر ص ١٠٣ - النجوم الزاهرة ٢٤٦/٥ - شذرات الذهب ٧٣/٤ .

(١) انظر النص المحقق بهذا الكتاب ، ص ١٤٤ .

(٢) يبدو أن هذا البيت مترجم في المصادر العربية عن اللغة الفارسية ، فهو غير موزون على البحور الستة عشر للشعر العربي .

وتذكرنا هذه المسألة بما روى عن لقب « الشاذلى » فالشيخ أبو الحسن على الشاذلى لم ينتسب إلى بلدة « شاذلة » المغربية ، ومع ذلك ظل فى حياته ، وبعد وفاته - إلى اليوم - يُعرف بهذا اللقب .. وينقل عنه مؤرخو التصوف أنه قال : قلت يوماً ، يا رب لِمَ سَمَّيتنى شاذلى ولستُ شاذلياً ؟ فقيل لى : يا على ، ما سَمَّيتك بالشاذلى ، إنما أنت « الشَّاذُّ - لى » بتشديد الذال ، يعنى المفرط لخدمتى^(١) .

(د) الكُبْرَى :

هو أشهر ألقاب الشيخ ، فبعضهم يلقبه « نجم الكبراء » والبعض يقول « نجم الدين الكبرى » أو « كُبْرَى » ولهذا اللقب تعليلات متعددة .. يقول ابن العماد الحنبلى : وسبق الشيخُ أقرانه فى صغره إلى فهم المشكلات والغوامض ، فلُقِّبوه « الطامة الكبرى » ثم كثر استعماله فحذفوا « الطامة » وأبقوا الكبرى^(٢) . وقد أكَّد مؤرخون آخرون هذا التعليل لذلك اللقب ، مع اختلاف عباراتهم .. وعلى هذا يكون اللقب مستمداً من طبيعة الشيخ نجم الدين فى النصف الأول من حياته ، ومن كونه ماهراً فى الجدل والمناظرة ، فكان كأنه الطامة والمصيبة التى تحل بالمُناظر^(٣) . إلا أن الدكتور قاسم غنى يكشف لنا عن الدلالة الصوفية لهذه الكلمة ، حيث يورد هذين البيتين لحافظ الشيرازى :

قُمْ حتى نحمل خرقة الصوفى إلى الحانة

ونحمل الشطح والطَّامَات إلى سوق الخرابات

نحمل إلى العَيَّارِينَ القَلَنْدَرِيَّةَ

دلق البسطامى وسجادة الطامات

ففرى مترجم الكتاب يقول : طامات جمع طامة (بتشديد الميم) ما يرد على لسان السالك فى أول سلوكه وخرق العادة والكرامة ، انظر هذه المادة فى

(١) الكمشخانوى : جامع الأصول ص ٥٢ .

(٢) ابن العماد الحنبلى . شذرات الذهب فى أخبار من ذهب (دار الآفاق الجديدة - بيروت) ٧٩/٥ .

(٣) د. عبد المنعم الحففى : الموسوعة الصوفية ص ٣٣٧ .

(فرهنك مصطلحات عرفاء) تأليف سيد جعفر سجادی - طبع طهران سنة ١٣٣٩ هـ ش - ففيه تفاصيل أخرى في هذا الشأن^(١) .

وربما كان هذا المعنى الأخير لكلمة « طامة » هو الأنسب قبوله في تعليل وجه إطلاق هذا اللقب على الشيخ نجم الدين . لكن الذهبي يورد تعليلاً آخر ، فيقول : سمعتُ أبا العلاء الفرضي يقول « إنما هو نجم الكبراء ، ثم خُفِّفَ وَغُيِّرَ فُقِيلَ : نجم الدين الكبرى »^(٢) .. وعلى ذلك يعقب محقق (سير أعلام النبلاء) فيقول : وأبو العلاء الفرضي أدري بما يقول ، وبتلك النواحي^(٣) .

(هـ) الخوارزمي الخيوق :

الخوارزمي نسبة مشهورة بين العديد من أهل العلم والفضل في تراثنا ، ممن ينتسبون إلى « خوارزم » وهي ناحية كبيرة ببلاد فارس ، زارها ياقوت الحموي سنة ٦١٦ هجرية - قبل وفاة الشيخ نجم الدين بعامين - فقال في وصفها : خوارزم ليس اسماً للمدينة ، إنما هو اسم للناحية بجملتها ، أما القصبة العظمى فقد يقال لها اليوم « الجرجانية » وأهلها يسمونها « كُرْكانج » .. وأكثر ضياع خوارزم مدن ذات أسواق وخيرات ودكاكين ، وفي النادر أن يكون بها قرية لا سوق فيها ، مع أمن شامل وطمأنينة تامة . والشتاء عندهم شديد جداً ، بحيث إنني رأيت « جيحون » نهرهم ، وعرضه ميل ، وهو جامد ؛ والقوافل والعجل الموقرة ذاهبة وآتية عليه .. والغالب على خلق أهلها الطول والضخامة ، وكلامهم كأنه أصوات الزرازير ، وفي رُغوسهم عرضٌ ولهم جهات واسعة . والذي شاهدته من بردها أن طرقها تجمد في الوحول ثم يمشى عليها فيطير الغبار منها ، فإن تغيّمت الدنيا ودفت قليلاً عادت وحولاً تغوص فيها الدواب إلى ركبتها ، وكنتُ اجتهدت

(١) د. قاسم غني : تاريخ التصوف في الإسلام ، ترجمة صادق نشأت (مكتبة النهضة المصرية ١٩٧٢) ص ٦٢٠ .

(٢) الذهبي : تاريخ الإسلام (دار الكتب العربية - القاهرة ١٣٩٦ هـ) ص ١٥٥٠ .

(٣) الذهبي . سير أعلام النبلاء (مؤسسة الرسالة - بيروت ، الطبعة الأولى ١٤٠٥ هـ) المجلد ٢٢ تحقيق د. بشار عواد ، د. يحيى هلال ص ١١١ هامش (١) .

أن أكتب شيئاً بها ، فما كان يمكنني لجمود الدواة حتى أقرّبها من النار وأذيتها ، وكنت إذا وضعت الشربة على شفتي التصقت بها لجمودها على شفتي ، ولم تقاوم حرارة النَّفس ، ومع هذا فهي لعمرى بلاد طيبة وأهلها علماء فقهاء أذكّاء أغنياء ، والمعيشة بينهم موجودة وأسباب الرزق عندهم غير مفقودة ؛ وأما الآن فقد بلغني أن « التتر » وردوها سنة ٦١٨ وخرّبوها وقتلوا أهلها وتركوها تلوّاً ، وما أظن أنه كان في الدنيا لمدينة خوارزم - يقصد عمارها - نظير في كثرة الخير وكبر المدينة وسعة الأهل والقرب من الخير وملازمة أسباب الشرائع والدين ، فإننا لله وإنا إليه راجعون^(١) .

وقد دخلت خوارزم في هذا القرن ضمن نطاق الاتحاد السوفييتي ، فلما انهار الاتحاد مؤخراً انهياره المدوي ، صارت ضمن ما يعرف بالجمهوريات الإسلامية الجديدة .

.. أما لقب « الخيوق » فهو نسبة إلى بلدة « خَيُوق » التي ذكرها ياقوت فقال : بلدٌ من نواحي خوارزم ، وحصن ، وأهل خوارزم يقولون « خَيُوه » وينسبون إليها « الخَيُوق » وأهلها شافعية دون جميع بلاد خوارزم ، فإنهم حنفية^(٢) .. وهذه الملاحظة المذهبية ، سوف نعود إليها عند الكلام عن مذهب الشيخ نجم الدين .

* * *

أما لقباً « المحدث - الشهيد » فقد كان الأول لاشتغال الشيخ نجم الدين بعلم الحديث النبوي .. وكان الثاني لاستشهاده على هذا النحو الدرامي الذي ستره في أواخر هذا الفصل .

(١) ياقوت الحموي : معجم البلدان (دار صادر - بيروت) ٣٩٥/٢ وما بعدها .

(٢) المرجع السابق ص ٤١٥ .

مولده ونشأته :

في بلدة « خيوق » من بلاد خوارزم القارسة البرد ، ووسط جماعة من المسلمين السُّنة ، كان مولد نجم الدين كبرى سنة ٥٤٠ هجرية ، على ما ذكرت غالبية المراجع^(١) .

ولم يشر المؤرخون إلى الأسرة التي نشأ الشيخ بين أفرادها ، وإن كان الراجح أنها أسرة متواضعة الحال - كمعظم أهل خوارزم - وهذا يظهر من كلام الشيخ في « فوائح الجمال » حيث يذكر أنه بات وهو صبي في دار ، لحراسة أقمشة ، وكان وحيداً خائفاً .. حتى إنه تخيل دخول سارق ، فغشى عليه حتى نصف النهار التالي ؛ إلى آخر ما حكاه الشيخ^(٢) . وهذه الحكاية تدل على كون الشيخ نشأ فقيراً - وربما يتيمًا - إذ إن اشتغاله بحراسة الأقمشة ، وبياته وحيداً في تلك الدار ، وكون أحداً لم يسأل عن ذلك الصبي المغشى عليه حتى اليوم التالي .. كل هذا يؤكد النشأة الفقيرة ، المهملة ، التي عاناها الشيخ وهو صبي .

ثم اتجه نجم الدين لدراسة الحديث النبوي ، وكان الاشتغال بذلك - آنذاك - أمراً يضمن الرزق ! فطاف يسمع الأحاديث من المحدثين المعروفين ، وارتحل في سبيل ذلك إلى همدان^(٣) . وسمع الحديث ، ورواه ، ثم عرج إلى دراسة الفقه والتفسير ، فدرس على يد جماعة سنذكرهم عند الكلام عن شيوخه في الفصل الثاني .

وتاقت نفس نجم الدين للتصوف ، فارتحل إلى الأهواز^(٤) ليتعلم أصول الطريق

(١) بروكلمان (تاريخ الأدب العربي) ٧٨٦/١ - كحالة (معجم المؤلفين) ٣٤/٢ .

(٢) انظر النص المحقق ص ١٩٩ ، ٢٠٠ .

(٣) همدان : مدينة جبلية ببلاد فارس ، لها تاريخ قديم . يقول ياقوت : ولا شك عند كل من شاهد همدان بأنها من أحسن البلاد وأنزهها وأطيبها وأرفهها ، وما زالت محلاً للملوك ومعدناً لأهل الدين (معجم البلدان ٤١٠/٥) .

(٤) الأهواز : منطقة فارسية كانت تُعرف باسم « خوزستان » وإذا أريد بها بلدة معينة ، فهي سوق الأهواز وأكثر مناطقها عمراناً .. وهي مناطق شديدة الحر ، وعرة المسالك ، شاقة في أحوالها ؛ وقد ذكر ياقوت الحموي طرفاً من أخبارها ومشاهير رجالها ومن انتسب إليها من الرجال .. انظر : معجم البلدان ٢٨٤/١ وما بعدها .

من الشيخ إسماعيل القصرى ، وظل فى خدمته وصحبته زمناً ، حتى خطر يوماً بباله أنه يعلم من علوم الدين أكثر مما يعلمه الشيخ إسماعيل القصرى بكثير ، وأنه على معرفة لا بأس بها بعلوم التصوف ؛ فهو أرقى حالاً من الشيخ الذى أتى ليتعلم منه ! وشعر الشيخ القصرى بما يدور فى نفس نجم الدين ، فأمره أن يخرج من عنده إلى زيارة الشيخ عمّار بن ياسر البديسى ، ويظل فى خدمته .. فبدأت رحلات نجم الدين الروحية .

رحلاته وسياحته :

كان تطواف نجم الدين فى أول الأمر ، لطلب علوم الدين ؛ أما ارتجاله بعد ذلك ، فكان لطلب رب العالمين . لقد استكمل الشيخ معارفه الدينية ، وأراد أن يعرج إلى الرحلة الدينية ، ويقرن العلم بالعمل .. باختصار : أراد أن يتصوّف . وها هو يرحل من خيوق إلى الأهواز ، فيأمره الشيخ بالرحيل مرة أخرى إلى خدمة الشيخ عمّار . يقول الخوانسارى : فخرج إليه نجم الدين ، وكان فى صحبته برهة ، إلى أن خطر بباله ما خطر أولاً - من أن علومه أكثر من علوم الشيخ بكثير - فأحس الشيخ بما هجس فى ضميره كما أحس القصرى ، فأشار إليه لسفر مصر للورود على حضرة الشيخ روزبهان الفارسى ، وقال : لا يؤذّبك إلا لطمة منه على قفاك^(١) .

هكذا كان على نجم الدين أن يرتحل لمصر ، تأديباً له على وقوع خواطره فى علم المشايخ ، وسعيّاً لتلك اللطمة المنتظرة .. فارتحل لمصر ! ولترك عبد الرحمن جامى يروى تفاصيل تلك الرحلة :

ورد نجم الدين على الشيخ روزبهان بمصر ، فوجده خارج خانقاه^(٢) يتوضأ

(١) الخوانسارى : روضات الجنات ٢٩٦/١ .

(٢) الخانقاه ؛ مكان خاص يحتلّى فيه الصوفية للعبادة . يقول المقرئى : الخوانك (= الخوانق) جمع خانكاه ، وهى كلمة فارسية معناها « بيت » وقيل فى أصلها « خوانقاه » أى الموضع الذى يأكل فيه الملك . والخوانك حدثت فى الإسلام فى حدود الأربعمئة من سنى الهجرة ، وجعلت لتخلّى الصوفية فيها لعبادة الله تعالى (خطط مصر ، ٣/٣٩٩) .

بماء قليل . فألقى في زعمه أن الشيخ روزبهان لا يدرى بأى مقدار من الماء يكون الوضوء ! فعرف الشيخ ما يدور بباله ، فأنبى الوضوء ثم ألقى عليه ببقية من الماء .. يقول نجم الدين :

فغشى على من ذلك ، وأخذتنى رقدة في الخانقاه ، وكنت دخلتها مع الشيخ ، فرأيت كأن القيامة قد قامت ، ويسحب الناس إلى جهنم إلا من كان له تعلق بشيخ كان جالساً هناك على كتيب ، فادّعيْتُ أنا أيضاً التعلق به ، واستخلصت من أيدي الزبانية ، وصعدت إلى الكتيب ؛ فلما رآنى ذلك الشيخ ، لطم على قفائى حتى أكببت على وجهى ، وقال : لا تنكر على أهل الحق بعد هذا ! فانتبهت بذلك من رقدتى ، فإذا أنا بموضعى ، وقد فرغ الشيخ روزبهان من صلاته ؛ فلطم على كفاي كنتُ رأيته في المنام ، وقال لى مثل ذلك ؛ فخرج عنى من تلك الساعة ما كان من العُجب والدلال^(١) .

وأقام نجم الدين زمناً بمصر ، حيث ظل في صحبة الشيخ روزبهان ، فتعلّم منه « علم الطريقة » وتلقى على يديه قواعد الطريق الصوفى ، ثم طلب منه الشيخ روزبهان أن يعود لصحبة الشيخ عمار - وقد تّمّ المراد والتأديب - فارتحل نجم الدين إلى خوارزم مرة أخرى .. لكن الوقائع تدل على أنه لم يعد بسرعة ، وإنما أقام فترة بديار مصر ، إذ ارتحل من القاهرة إلى الإسكندرية ، فسمع الحديث النبوى من الشيخ أبى طاهر السلفى الأصفهاني ، وكانت هناك تلك الرؤية النبوية التى كُنّى فيها نجم الدين بأبى الجنّاب .

وفى الطريق من القاهرة إلى الإسكندرية لبث نجم الدين حيناً بإحدى القرى الواقعة على النيل .. وهناك وقع فى حب جارية ، واستبد عشقها بقلبه ، فظل أياماً لا يأكل ولا يشرب إلا النذر اليسير . ويحكى لنا نجم الدين عن أحواله فى عشق تلك الجارية فيقول : حتى كثرت نار العشق ، فكنتُ أنفَس نيراناً ؛ وكلما تنفستُ ناراً ، تنفَسوا من السماء بجذء نفسى ناراً ، فتلتقى النيران ما بينى

(١) عبد الرحمن جامى : نفحات الأنس (طبعة لكهنو - الهند ١٩١٥) ص ٣٧٥ .

وبين السماء ، فما كنت أدري من ثمة أين تلتحقان ، فعلمت أن ذلك شاهدى فى السماء^(١) .

ويبدو أن صورة هذا العشق التهبت فى قلب نجم الدين بعد ما تعلمه من الشيخ روزبهان ! لقد كان هذا الشيخ يرى - كما يقول فى كتابه : عبر العاشقين - أن العشق محمودٌ على أية حال ، سواء كان فى مقام العشق للطبيعيات أو للروحانيات ، لأن العشق الطبيعى هو منهاج العشق الربانى ، ولا يُستطاع حمل أثقال العشق الإلهى إلا على مثل هذا المركب ، كما لا يُستطاع احتساء روائى صفاء جمال القِدم الإلهى إلا فى أفداح الأفراح هذه - يقصد الصور الحسية - وهذه الجواهر الثلاث ، أى العشق الطبيعى والعشق الروحانى والعشق الربانى ، مستمرة فى الحركة^(٢) .

وتعد مسألة العشق الحسى والإلهى ، من النقاط الدقيقة فى تاريخ التصوف ؛ فقد رُويت أخبارٌ عن عشق كبار المتصوفة - كابن الفارض وابن عربى وعفيف الدين التلمسانى - لبعض الجميلات ، فأنارت تلك الأخبار جدلاً واسعاً بين الصوفية ومنتقديهم ، وبين الباحثين فى التصوف على اختلاف مداخلهم للتصوف وآرائهم فيه^(٣) .. ولقد اشتهر عن بعض رجال التصوف ، قولهم بأن مطالعة جمال الظاهر الحسى ، فى الجميلات أو المناظر الحسنة ، هو باب للدخول إلى مشاهدات الجمال المطلق لله تعالى ، بعد أن تقيّدت بعض تجلياته فى الصور

(١) فوائح الجمال (النص المحقق) .

(٢) د. قاسم غنى : تاريخ التصوف ، هامش ص ٥٧٩ .

وكتاب « عبر العاشقين » مخطوط فى مكتبة الدكتور غنى الخاصة ، والنص المذكور هنا فى آخر الفصل السادس من الكتاب .

(٣) بخصوص عشق ابن الفارض فى شبابه لامرأة ، وشعره الحسى ، يراجع : الديوان (تحقيق د. عبد الخالق محمود - دار المعارف ١٩٨٤) ص ٢١٥ - النابلسى : شرح ديوان ابن الفارض ١٩٠/٢ - د. محمد مصطفى حلمى : ابن الفارض والحب الإلهى (دار المعارف بمصر) ص ١٥٤ .. أما عشق ابن عربى وقصته المشهورة مع الفتاة الجميلة الذكية « النظام بنت رستم الكيلانى » فراجع بخصوصها : مقدمة ديوان « ذخائر الأعلاق » الذى هو شرح على ديوان « ترجمان الأشواق » وكلاهما لابن عربى .. وعن تجربة عفيف الدين التلمسانى الحسية ، وأشعاره فى ذلك فيمكن مراجعة مقدمة تحقيقنا لديوانه (طبعة أخبار اليوم ١٩٩٠) ص ٤٥ وما بعدها .

المحسوسة ؛ وهذا ما ذهب إليه أحمد الغزالي - أخو حجة الإسلام أبي حامد الغزالي - وأوحد الدين الكرمانى ، وفخر الدين العراقي^(١) . أما الغالبية من كبار رجال التصوف فقد منعوا الكلام فى هذا الباب ، وامتنعوا عن الخوض فيه .. ربما لارتقائهم عن درجة الحسن المحسوس إلى مرتبة الجمال المطلق ذاته ، وربما لخشيتهم على العامة من الناس أن يفتتنوا بهذه الأقوال ، وربما لخوفهم على المريدين المبتدئين من أن يخوضوا فى هذا المسلك بغير علم ولا هدى فيزداد تعلقهم بالمحسوس ، ويتعطل عندهم أدب إسلامي هو غرض البصر .

ونعود لنجسم الدين فى رحلاته وسياحاته ، فنراه وهو يقص فى « فوائح الجمال » بعضاً من مشاهداته .. فيقول إنه لقى فقيراً على طريق كربلاء ، وسمع منه صيحات وزعقات الحال ، فأنكر عليه حاله ؛ ثم بعد زمن ، فهم نجم الدين حقيقة الحال ، بل سار هو صاحب صيحات وزعقات . وإذا يتذكر نجم الدين هذه الواقعة ، نراه يقول عن تلك الصيحات : كنت أسمعها من فقير لقيته فى طريق كربلاء ، فأنكرت عليه ذلك وسألته عنها .. فلما كان بعد ذلك بزمان وصلت إلى هذا المقام ، وعجمت أعواد الصيحات .. فعضضت بنان الندمان ، وسبّحتُ شبيه المتعجب الحيران^(٢) .

وفى طريق العودة من مصر ، عرج نجم الدين إلى بغداد ، وأقام زمناً بين الصوفية فى مسجد « الشونيزية » وهو يحكى لنا عن بعض ما جرى هناك من وقائع وكرامات ، تخص « الاسم الأعظم » الذى يهبه الله لأوليائه ، فيتصرفون به فى الوجود ، وتدل حكاية نجم الدين على أن نزوله بغداد لا يمكن أن يكون فى بداية رحلته إلى مصر ، وقد تكون إقامته هذه ، فى رحلة أخرى بعد رحلته المصرية ؛ وهذا هو الأرجح ! ففى الرحلة المصرية ، كان نجم الدين لم يزل مريداً ، وقد أمره الشيخ روزبهان بالعودة لصحبة الشيخ عمار بن ياسر وخدمته ، فهو إذن ما يزال فى مرحلة الطلب والسير إلى الله . وامتلاكه للاسم الأعظم ، لا يكون إلا فى

(١) د. قاسم غنى : تاريخ التصوف ص ٥٧٩ .

(٢) فوائح الجمال (النص المحقق) ص ٢٣١ ، ٢٣٢ .

مراحل متقدمة في الطريق ، فلا يمكن لمريد معرفة هذا الاسم ، فإن عرفه ، لم يعد مريداً ولم تعد به حاجة إلى شيخ .. وإذا تأملنا قول نجم الدين : ثم إن خادم البقعة - يقصد مسجد الشونيزية - حكى لي بعد مدة « إني رأيتُ فيما يرى النائم أشخاصاً حسبتهُم ملائكة ، يقولون : إنا أعطينا فلاناً اسم الله الأعظم . وسموني .. إلخ^(١) . وقوله « بعد مُدة » يؤكد أنه عاد لبغداد في مرحلة متقدمة من سيره إلى الله ، غير أن تلك المرحلة التي كان يعترض فيها على المشايخ ويرحل ليتعلم منهم أصول الطريق .

وعلى ضوء المعلومات المتاحة لنا من خلال المصادر الخاصة بحياة نجم الدين كبرى ، يمكن أن نرسم خطأ لرحلاته وسياحاته الصوفية ، أو بالأحرى خطين .. ففي الخط الأول تظهر المحطات التي توقف فيها ارتحال نجم الدين لطلب الحديث النبوي واستماعه من كل المحدثين ؛ حيث خرج من (خيوق) بخوارزم ، فطاف بلاد فارس فسمع الحديث في (نيسابور) واستكمل الرحلة إلى (همدان) ثم (أصبهان) ثم نزل (مكة) للحج وسماع الحديث^(٢) .. وعاد إلى خوارزم ، فمرَّ في طريقه بكر بلاء .

أما الخط الثاني فهو يمثل رحلته لطلب التصوف وسياحته على طريقة الصوفية . فقد خرج من (خيوق) إلى (الأهواز) لصحبة الشيخ إسماعيل القصري ، ثم خرج بناءً على أمر الشيخ إسماعيل من الأهواز إلى أرمينية حيث الشيخ عمار بن ياسر المقيم بإحدى نواحيها (بدليس) ومنها إلى مصر التي قضى فيها زمناً متنقلاً من (القاهرة) إلى (قرى الدلتا) ثم إلى (الإسكندرية) التي سمع فيها - أيضاً - من الشيخ أبي طاهر السلفي ، وحمل لقب « أبو الجناح » في رؤية رآها بالإسكندرية^(٣) .. وهي رؤية يمكن اعتبارها من أولى ثمرات الطريق الصوفي الذي سار فيه نجم الدين .

(١) فوائح الجمال ص ٢٤١ .

(٢) انظر ما سيأتى عند الكلام عن شيوخ نجم الدين فيما بعد .

(٣) أخطأ الخوانساري حين ذكر أن هذه الرؤية كانت بعد عودة نجم الدين إلى موطنه الأصلي بخيوق (انظر ؛ روضات الحيات ٢٩٥/١) لأن ذلك يخالف ما رواه نجم الدين بنفسه في « فوائح الجمال » ، من أن هذه الرؤية كانت بالإسكندرية .

وكان نزول نجم الدين بالإسكندرية في حدود سنة ٥٧٥ هجرية ، لأن الشيخ أبا طاهر السلفي توفي سنة ٥٧٦ هجرية^(١) بعد أن بلغ من العمر ١٠٤ عامًا ، وقد ذكر نجم الدين في « فوائح الجمال » أنه : كنتُ بالإسكندرية أسمع الأحاديث على الحافظ السلفي الأصفهاني .. وهو شيخ مسن ، تُيَّف على المائة بسنين^(٢) .

ومن (الإسكندرية) اتجه نجم الدين إلى (دمشق) حيث صحب الشيخ الصوفي ابن ألى عصرون « ابن العصر » ثم اتجه إلى (بغداد) حيث أقام حينًا بمسجد الشونيزيه ، ومنها إلى (بدليس) التي ظل فيها زمناً بصحبة الشيخ عمار بن ياسر .. ولما آن وقت الرجوع إلى خوارزم ، مرَّ نجم الدين ببغداد ثانية ، ثم اتجه إلى (خيوق) حيث استقر بها حتى وفاته .

ويبقى في رحلات نجم الدين وسياحاته إشكال .. فهو يقول في « فوائح الجمال » ما نصه : « عشقتُ واحدًا ببلاد المغرب ، فسَلَطْتُ عليه الهمة فأخذته ، وربطته ، ومنعته عن سواى ... إلخ^(٣) » فهل زار نجم الدين حقًا بلاد المغرب ؟

لا تعطينا المراجع والمصادر الخاصة بحياة نجم الدين ما يفيد بأنه زار بلاد المغرب ، أو حتى شمال أفريقية ، فقد اتجه من مصر إلى بلاد الشرق ولم يكمل سيره غربًا . فما الذى يقصده ببلاد المغرب ؟ يبدو أن الجهات العراقية والشامية والمصرية ، كلها ، كانت تمثل بالنسبة للخوارزميين « بلاد المغرب » إذ تقع مهم ناحية الغرب ، فيكون المحتمل أن الشيخ قصد « المغرب » بهذا المعنى ، لا بالمعنى الذى نستخدمه قاصدين به « مراکش » وما حولها .. وهناك احتمال آخر ، وهو أن تكون « المغرب » هنا جهة رمزية لها دلالتها الصوفية ، لأن الحكاية الغريبة التى يحكيها نجم الدين تفيد بأنها كانت في زمن ولايته - حيث استقر بخوارزم - فمن الممكن أن يكون قد قصد بها معانى بعيدة ، في صورة رمزية تكون فيها « المغرب » دالة على عالم الأجسام أو دنيا الرغبة أو ما شابه ذلك .

(١) راجع (سير أعلام السلاء) ٣٨/٢١ .

(٢) فوائح الجمال ص ٢٤١ .

(٣) فوائح الجمال ص ٢٢٠ .

الولاية :

خرج نجم الدين من خوارزم يطلب علم الحديث ، فعاد إليها محدثاً^(١) .. ثم خرج مرة أخرى يطلب التصوف ، فعاد ولياً .

وقد بدأت علامات ولاية نجم الدين في الظهور ، إبان إقامته بمصر ، حيث يروى العديد من الوقائع الدالة على ذلك . وحين عاد الشيخ إلى الشيخ عمار ابن ياسر ، كان قد قطع شوطاً على طريق الولاية ، وهو ما يظهر من علاقتهما الروحية معاً ، إذ كان الواحد منهما يرى الرؤية ، فيرى الآخر ما يطابقها .. وسوف نرى أمثلة لذلك عند قراءة النص المحقق لفوائح الجمال .

واكتملت ولاية نجم الدين بعد عودته إلى خوارزم ، فهناك ظل إلى وفاته يرعى المريدين ، ويدعو إلى الحق تعالى^(٢) . وقد وصفه المؤرخون أثناء إقامته بخوارزم بأنه : « كان صاحب سُنَّةٍ وحديث ، ملجأ للغرباء ، عظيم الجاه ، لا يخاف في الله لومة لائم^(٣) » وكان « أكمل الأولياء المرشدين في زمانه ، وأعلم العلماء بين أقرانه وهو صاحب الأحوال الرفيعة ، والمقامات ، والمكاشفات ، والمتشاهدات ، وتجليات الذات والصفات ، والسير في الملكوت والطير في الجبروت ، والفناء في الله في عالم اللاهوت ، ومشرب التوحيد والحقائق ، والتصرف في الأطوار

(١) من مرويات نجم الدين في الحديث النبوي ، ما ذكره الذهبي حين قال : حدثنا أبو عاصم نافع الهندي ، أخبرنا مولاى سعيد بن المطهر ، أخبرنا أبو الحباب أحمد بن عمر سنة ٦١٥ ، قال : قرأت على أبي العلاء الحافظ ، أخبرنا علي بن أحمد ، أخبرنا محمد بن محمد .. عن أنس ، قال : سئل رسول الله ﷺ عن هذه الآية ﴿ للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ﴾ قال : للذين أحسنوا العمل في الدنيا ، الحسنى وهى الخنة ، والزيادة : النظر إلى وجه الله الكريم (سير أعلام النبلاء ١١٣/٢٢) .

(٢) يقول الخوانسارى : إن نجم الدين حين عاد من رحلته إلى الشيخ روزهان : فتوحه إلى خدمة عَمَّار ثانياً ، وكان عنده إلى أن بلغ الكمال ، ونال رتبة الإرشاد ، فأذن له - عَمَّار - فيه ، وفي الرجوع إلى وطنه الأصل الذى هو ديار خوارزم (روصات الجنات ٢٩٦/١) .

(٣) السبكي : طبقات الشافعية ١١/٥ - الصفدى : الوافى بالوفيات ٢٦٣/٧ .

القلبية ، وإيصال الأفاضل القلبية .. فشعّب من ذيل ولايته كثير من الأولياء^(١) .

وفي نصّ طريف ، يذكر الكُمشخانوى^(٢) ما اختصّت به ولاية نجم الدين ضمن خصائص ولاية غيره من رجال التصوف ، فيقول : « اعلم أن لكل من الأولياء خصوصية وهمّة في الحياة والممات ، كنقش الحقيقة والإلقاء في بحر الوحدة والفناء والاستغراق لشاه نقشبندى محمد بهاء الدين ، وقوة التصرف والإمداد لعبد القادر الجيلاني ، وقوة العلم والواردات لعلّي أبى الحسن الشاذلي ، والخارق للعادة والفتوة للسيد أحمد الرفاعي ، والترحم والتعطف للسيد أحمد البدوي ، والسخاء والكرامة لإبراهيم الدسوقي ، والعرفان والإكمال للشيخ الأكبر^(٣) ، والعشق لـ محمد جلال الدين الرومي ، والغيبة واخو للإمام السهروردي ، والأوّاه للشيخ حضر يحيى ، والوجد والجذبات لنجم الدين الكبرى .. وإن ثبتت هذه الخصلة نوعاً ، لكل الأولياء ؛ إلا أنها خصوص وغاية مقام هؤلاء العارفين ، وكل قوم بما لديهم فرحون^(٤) » .

(١) الخوانساري : روضات الجنات ٢٩٦/١ والص منقول عن كتاب « المشجر » للسيد محمد الموسوي النوربخشي .

(٢) هو ضياء الدين أحمد بن مصطفى بن عبد الرحمن الكُمشخانوى النقشبندى المحدثى الخالدى ، ولد سنة ١٢٢٧هـ ، وتوفي سنة ١٣١١هـ . أصله من « كُمشخانه » بتركيا ، ثم نزل مصر وأقام بها وافتتح مطبعة تنشر التراث الصوفي .

ترك عدة مؤلفات ، أهمها كتاب (جامع الأصول في الأولياء وأنواعهم وأوصافهم وأصول كل طريق ومهمات المريد وشروط الشيخ وكلمات الصوفية واصطلاحاتهم وأنواع التصوف وألف مقام) وهو عنوان طويل - كما نرى - للكتاب ! وله أيضاً : راموز الأحاديث على ترتيب حروف الهجاء - جامع المتون في ألفاظ الكفر وتصحيح الاعتقاد والأعمال - روح العارفين ورشاد الطالبين ونخلة الغافلين - لوامع العقول .. (انظر ترجمته في : معجم المؤلفين ١٧٨/٢ - الأعلام للزركلى - الموسوعة الصوفية للحفنى - هدية العارفين للبغدادي - معجم المطبوعات لسركيس - التحرير الوحي للكوثرى - اكتفاء القنوع لفنديك - الأعلام الشرقية لمجاهد - Brockelmann II, 745) .

(٣) يقصد : يحيى الدين بن عرى .

(٤) الكُمشخانوى : جامع الأصول ص ١٨ ، ١٩ .

واشتهر أمر نجم الدين بخوارزم وما حولها ، وقصده المريدون من شتى البقاع ، فكانت المرحلة الزاهرة من حياته ونشاطه الديني والصوفي .. وفي تلك المرحلة ، لن يكون نجم الدين ولياً فحسب ، بل هو أيضاً : صانع الأولياء (ولي تراش) .

مذهبه :

يحاول مؤرخو الشيعة وباحثهم المُحدثين ، إلصاق صفة التشيع بكل شخصية بارزة من الشخصيات الإسلامية التي عاشت في بلاد فارس - بل التي لم تعيش هناك أيضاً - وهي مسألة سخيفة من الوجهة البحثية ، إذ تستلزم بالضرورة قيام مؤرخي أهل السنة وباحثهم بالرد على تلك الدعاوى ودحضها بالوقائع التاريخية والفكرية .. وربما يطول الأخذ والرد في ذلك إلى ما لا نهاية .

وفيما يخص نجم الدين كُبرى من هذا الخلاف البارد ، نرى المؤرخ الشيعي الكبير محمد باقر الخوانساري (١٢٢٦ - ١٣١٥) وهو يوحى بأن نجم الدين كان من الشيعة الإمامية الاثني عشرية ، أولئك الذين يعتقدون بإمامة اثني عشر رجلاً من ذرية عليّ بن أبي طالب - كرم الله وجهه - فإذا به ينقل في كتابه المشهور « روضات الجنات في أخبار العلماء السادات » عن مؤرخ شيعي سابق ، ويقول :

« وعن السيد محمد الموسوي النوري بخشي العارف ، المعروف بغوث المتأخرين ، أنه ذكر في كتابه الموسوم بـ « المشجر » أن الشيخ نجم الدين كان أكمل الأولياء المرشدين في زمانه . وأعلم العلماء بين أقرانه .. وأن المرشدين له على حقيقة ، لما كانوا اثني عشر ، هم أئمة مذهب الحق الإمامي ، فلا جرم لم يصحب دليل حياته من المريدين والمسترشدين إلا هذه العُدّة^(١) » .

(١) الخوانساري : روضات الجنات ١/ ٩٧ .

ويقول الخوانسارى بعد ذلك - مؤكداً ما يوحى به من شيعة نجم الدين - ما نصّه : وفى « شرح ديوان الميبدى » حكاية عن النجم المذكور ، أنه قال : خفقتُ (كذا) فأبصرت النبى صلى الله عليه وآله وعلىّ معه ، فبادرت إلى علىّ فأخذت بيده ، وصافحته ، وألهمت كأنى سمعت فى الأخبار عن النبى المختار صلى الله عليه وآله ، أنه قال « مَنْ صافح عليّاً دخل الجنة » فجعلت أسأل عليّاً عن هذا الحديث ، أصحيح هو ؟ فكان يقول : نعم ، صدق رسول الله صلى الله عليه وآله ، مَنْ صافحنى دخل الجنة^(١) .

ثم يؤكد الخوانسارى ما يدّعيه بطريق آخر ، فيروى عند ترجمته لفريد الدين العطار أنه : ذهب فريد الدين مع والده أيام الطفولة إلى الشيخ نجم الدين الكبرى ، فلَقَّنه أولاً أسماء الأئمة ، ثم الذكر . وقال له « هذا التلقين عن شيخى ، عن شيخه ، إلى أمير المؤمنين عليه السلام ، عن رسول الله صلى الله عليه وآله ، عن جبريل ، عن الله تبارك وتعالى ؛ فلا تُظهر هذا السر إلا لمن جرّبته من المريدين !^(٢) » .

وسرعان ما يتلقّف هذا الخيط ، الدكتور كامل مصطفى الشيبى - وهو باحث معاصر ممتاز ، لولا تعسّفه الدائم فى ربط التصوف بالتشيع - فنراه يبدأ بالقول : بعد أن فرغنا من بحث المثل الشيعية المباشرة التى اتصلت بالولاية الصوفية ، نعود إلى تناول بعض المثل الصوفية لتبين مدى تأثرها بالتشيع ؛ ولهذا فسنعرض للخرقة ثم الصحبة الصوفية ثم السلاسل والطرق الصوفية^(٣) .

وإذ يعرض الشيبى للطرق الصوفية ، نراه ينقل عن معصوم على - صاحب كتاب : طرائق الحقائق - الذى نقل بدوره عن ميزرا محمد تقى الملقّب بمظهر على شاه فى كتابه « بحر أسرار » أنه قال : لقد جرت الطريقة الحققة بواسطة أربعة أولياء

(١) المصدر السابق ص ٢٩٨ .

(٢) الخوانسارى : روضات الجنات ٦٥/٨ .

(٣) كامل الشيبى : الصلة بين التصوف والتشيع (دار المعارف بمصر) ص ٤٢٦ .

من الشيعة المختصين بأهل البيت وانتشرت بين العباد والبلاد ؛ أولاً من مولانا أسد الله الغالب أمير المؤمنين عليه السلام بواسطة كميل بن زياد ... إلخ .

ثم يقول الشيبى : لقد تناول الحاج معصوم على ، هذا الموضوع فذكر أن السلسلة الكميلية « نسبة الخرقه فيها متصله بالنبي^(١) ألبسها علياً فألبسها الحسن البصرى وكميل بن زياد ، وألبسها كميل عبد الواحد بن زيد ، وهذا ألبسها أبا يعقوب النهرجورى فعمرو بن عثمان المكى ، فأبا يعقوب الطبرى ، فأبا القاسم ابن رمضان بن إدريس ، فداود الخادم ، فمحمد بن مالكيل ، فالشيخ إسماعيل القصرى ، فالشيخ نجم الدين الكبرى^(٢) » .. وينتهى الشيبى من ذلك كله إلى القول : ويتضح من هذه السلاسل التى أوردناها أن التصوف .. وذلك ينبىء باتصال التصوف بالتشيع ، ذلك الاتصال الظاهر الذى تكرر كثيراً^(٣) .

.. وفى مقابل تلك المحاولات المستميتة لإلصاق التشيع بنجم الدين كبرى ، نرى شهادات مؤرخى أهل السنة وهى تنأى به عن ذلك ، وتضعه فى مصاف رجال السنة :

يقول ابن نقطة عن نجم الدين « هو شافعى المذهب إمام فى السُّنَّة^(٤) » .. ويقول السبكي « كان إماماً زاهداً عالمًا طاف البلاد وسمع الحديث ، قال ابن نقطة : هو شافعى المذهب إمام فى السُّنَّة^(٥) » .. ونفس العبارة نجدها فى الوافى بالوفيات^(٦) . وفى « سير أعلام النبلاء » يقول الذهبى : نجم الدين الشيخ الإمام العلامة القدوة ؛ سمع من أبى طاهر السلفى وأبى العلاء الهمدانى العطار .. وحَدَّث

(١) صلى الله عليه وسلم ا

(٢) د. كامل الشيبى : الصلة بين التصوف والتشيع ص ٤٤٠ .

(٣) المرجع السابق ص ٤٤٢ .

(٤) ابن نقطة : التقييد (مخطوط) نقلاً عن الذهبى والسبكي والصفدى ، وغيرهم .

(٥) السبكي : طبقات الشافعية الكبرى (المطبعة الحسينية - القاهرة) ١١/٥ .

(٦) الصفدى : الوافى بالوفيات ، طبعة إحسان عباس (فرانز ستاير - فسادان ١٣٨٩ هـ ، ١٩٦٩ م)

عنه عبد العزيز بن هلاله ، وخطيب دارية شمش ، وناصر بن منصور العُرضي ، وسيف الدين الباخريزى تلميذه ، وآخرون . قال ابن نقطة : هو شافعى المذهب لإمام فى السنة . وقال عن عمر بن الحاجب : طاف البلاد وسمع واستوطن خوارزم وصار شيخ تلك الناحية ، وكان صاحب حديث وسنة^(١) .

وهكذا تتوالى الشهادات التاريخية مؤكدة سُنَّة نجم الدين كُبرى ، رادة على الزعم بشيعيته^(٢) .. وفى حقيقة الأمر ، فإن هناك من الدلائل القوية ما يؤكد سُنَّة نجم الدين ، وينفى عنه التشيع بالكلية ، حتى يمكن القول بأن التشيع لم يخطر بباله أصلاً ! فمن تلك الدلائل :

أولاً : إن خوارزم وبلاد فارس لم تكن فى عصر نجم الدين منطقة شيعية ، كما هو الحال فى القرون التالية وحتى اليوم . بل كانت مناطق سنية ، وكانت « خيوق » بالذات من الشافعية .. كما مرَّ علينا عند ذكر ياقوت الحموى لأحوال أهل تلك البلاد ، وهى الأحوال التى عاينها ياقوت بنفسه^(٣) .

ثانياً : إن القول برجوع السلاسل الصوفية إلى على بن أبى طالب - رضى الله عنه - لا يعنى شيعية أهل هذه السلسلة أو تلك . فإن شخصية الإمام على ، لها المكانة الكبيرة فى نفوس السُنَّة أيضاً ، ولكن بعيداً عن تهاويل الشيعة .. ومن المدهش والغريب ، أن يستدل باحث كالدكتور الشيبى بذلك ، على شيعية الصوفية أو صلة التصوف بالتشيع . بل إن البنيان الصوفى ذاته ، فى اعتياده على رابطة الشيخ والمريد ، يخالف القاعدة الصوفية الأولى التى تقول بطاعة الإمام المعصوم .. فالأئمة عند الشيعة لهم شروط معينة ، تختلف عن شروط الشيخ لدى الصوفية .

(١) الذهبى : سير أعلام النبلاء ١١٢/٢٢ .

(٢) انظر المزيد من ترجمات أهل السنة فى القائمة المذكورة تأخر هذا الفصل .

(٣) راجع ما سبق ، وانظر : معجم البلدان ٣٩٥/٢ ، ٤١٥ .. حيث يقول ياقوت : وأهل خيوق شافعية ، دون جميع بلاد خوارزم فإنهم حنفية .

ثالثاً : إن دعاوى الخوانسارى الموحية بشيعة نجم الدين متهافة ، إذ إن قوله بأن نجم الدين لم يصحب إلا اثني عشر مريدًا - على عدد أئمة الشيعة الاثني عشرية - هو قول لا دليل عليه ، فالمشهور أن نجم الدين صحبه ما لا حصر لهم من المريدين .. أما الحكاية الهزلية عن تلقينه الأسرار للعطار وأخذ العهد عليه بالألا يصرح بها إلا لمن حربه من المريدين ، فهي حكاية ظاهرة الضعف ؛ فإذا كان العطار آنذاك طفلاً ، فكيف للشيخ نجم الدين أن ييوح له بالأسرار ويأتمنه عليها ! ومن أين جاء لنجم الدين أن هذا الطفل سيكون شيخاً له يريدون مجربون أو غير مجربين !

رابعاً : لا يوجد في كتابات نجم الدين ، وفي تفسيره للقرآن ، ما يُشتَم منه أى فكر شيعى .. بل على العكس تماماً ، فالرجل قضى حياته يتعلم الحديث النبوى والفقه الشافعى ، وصار بعد ذلك معلماً لتلك العلوم التى يستمسك بها أهل السنة ؛ وما الحكاية التى نقلها الخوانسارى عن « شرح ديوان الميبدى » إلا دليل على انشغاله بعلوم الحديث ، ورغبته فى الثبوت من صحة الحديث : مَنْ صافح علياً دخل الجنة .. ولسوف نرى نجم الدين وهو يقص علينا هذه المعاينة فى « فوائح الجمال »^(١) مما يعنى أن الخوانسارى لم يقرأ الكتاب - فلو قرأه لما نقل الحكاية عن شرح الديوان المذكور - ولا ندرى كيف يؤكد الخوانسارى شيعة رجل دون أن يقرأ كتبه !

وبعد .. فهذا هو الخلاف حول مذهب نجم الدين يبدو خلافاً مصطنعاً وغيبياً ، كأغلب خلافات السنة والشيعة . ويعلم الله كيف تحزُّ خلافاتهم فى النفس ، بدايةً من اختلافهم حول مذاهب القدماء ، وانتهاءً بخلافاتهم حول جزر الخليج (العربى - الفارسى) ومروراً بالفظائع التى ارتكبتها الفريقان ضد بعضهما على مر التاريخ . ولو شاء الله لهدى الناس جميعاً ، ولو شاء لاجتمعت قوى المسلمين وكفوا عن التناحر والاقتتال لصالح أعدائهم ! وتلك قصة أخرى .. فلنعد إلى الشيخ نجم الدين :

(١) النص المحقق ص ١٣٨ .

كراماته :

لما ارتقى نجم الدين في سلم الولاية بمجاهداته ولطف الله به ، وصار بعد حين واحدًا من كبار الأولياء في تاريخ التصوف ؛ كان من الطبيعي أن تروى عنه بعض الكرامات ، كما رويت عن غيره .

ولن نخوض هنا في الكلام عن حقيقة الكرامات وأصولها الشرعية ، فقد سبق لنا الوقوف عند تلك النقطة في أعمال سابقة^(١) .. لذا نكتفي ببعض الإشارات الموجزة التي تلقى الضوء على جوانب هذا الموضوع . فمن ذلك : إن الكرامة هي خرق للقانون الطبيعي ، وإنها ليست دليلًا على علو مرتبة الولي وليست شرطًا لصحة الحال مع الله - فقد يؤتى الكرامة من لم تكمل فيه الاستقامة - وأنها من جنس معجزات الأنبياء ، إلا أنها لا تقتزن بالتحدي كما هو الحال في المعجزة النبوية ؛ وأن ثمة أصول ودلائل شرعية وعقلية على جواز وقوع الكرامات .. هذا على سبيل الإجمال ، فمن أراد التفصيل فليرجع إلى تلك الكتابات المستفيضة حول هذا الموضوع^(٢) .

والكرامات المرواة عن نجم الدين قليلة ، على غير العادة مع أمثاله من الكبار .. وهذا يظهر من اقتصار كراماته في (جامع كرامات الأولياء) على اثنين فقط ، نقلهما المؤلف عن الشعراني ؛ فقال :

نجم الدين الكبرى أحد أئمة الصوفية وأكابر الأولياء وسادات الأصفياء ،

(١) راجع كتابنا : « عبد القادر الحيلاني » ، ص ٧٧ وما بعدها .

(٢) بخصوص مسألة الكرامة وتفصيلاتها ، يمكن الرجوع إلى الفصول الواردة في :

رسالة في المعجزات والكرامات وخوارق العادات ، لاس تيمية (مكتبة الصحابة) - إحياء علوم الدين ٤/٤٣٦ - الفتوحات المكية ٣/٤٢٠ - الحكم العطائية ص ١٧٩ - تلخيص الحكم للريفي ص ٣٠١ - نشر المحاسن العالية لليافعي ص ٤٤ - جامع كرامات الأولياء ١/٧ - بهجة الأسرار للشطنوفى ص ٣ - تاريخ التصوف لقاسم غنى ص ٣٣٥ .

كما يمكن الرجوع للكرامات المسونة للصوفية في : حلية الأولياء - الرسالة القشيرية - نفحات الأنس - البور السافر - طبقات الخواص - قلائد الجواهر - مرآة الجنان لليافعي - الطلقات الكبرى للشعراني .. وغير ذلك من كتب الطلقات التي أُرُحِت للصوفية .

ومن كراماته رضى الله عنه أن ملك المغول لما جاء لخراب بغداد وقف خارج بغداد وقال إلى أشم في هذا البلد رائحة محمدى كبير فاستأذنه ، فقال الشيخ نجم الدين « ليدخل بضرب هذه الرقبة ، ثم يضرب رقبة فلان وفلان ثم ثلثى أهل البلد ، جف القلم بما هو كائن . » فكان كما قال ، ذكره الشعراى فى المنن .. وقال الشعراى أيضًا فى الأجوبة المرضية : جاء الشيخ فخر الدين الرازى يطلب الطريق على يد الشيخ نجم الدين الكبرى ، فى ألف دالب يمشون وراءه من بلاد الرى ، فبلغ ذلك الشيخ نجم الدين فقال « إنه لا يطيق الطريق » فلما وصل إلى رباط الشيخ بطلته ، ظن الناس أن الشيخ يقوم له ويمشى خطوات ، فلم يتحرك له ، فلما سلم عليه قال : « يا أخى ؛ ما أقدمك إلى بلادنا ؟ » فقال : « جئت أطلب الطريق إلى الله تعالى » فقال له الشيخ : « لا تطيق ذلك ! » فقال : « بلى أطيع إن شاء الله تعالى » فراجع مرات ، والشيخ فخر الدين يأبى إلا أن يتلمذ له ، فقال الشيخ نجم الدين للنقيب : « أدخله هذه الخلوة وقل له يدخل يشتغل بالله تعالى » فدخل ، فتوجه الشيخ نجم الدين إلى الله ، فسلبه جميع ما كان معه من العلوم ، فلما شعر بذلك ، صاح بأعلى صوته : « لا أطيع ، لا أطيع » فأخرجه الشيخ وقال له : « أعجبنى صدقك » وقال له : « يا فخر الدين كيف تطلب الطريق إلى الله مع حبك للرياسة على الأقران وتكبرك عليهم ، وما عليك أن تكون عند الله - عز وجل - لا تكون لك إلى غيرك ، ولا دعوى عندك لملك شئ فى الوجود .. فبكى الشيخ فخر الدين وقال : « قد خسرنا وفاز غيرنا » فقال له الشيخ : « قد صرت من معارفنا ، وكنا نود أن تكون من أصحابنا ، فلم يُقدّر ذلك ؛ اذهب إلى بلادك بسلام » انتهى ؛ قال الشعراى : فانظر يا أخى إلى الشيخ فخر الدين الذى أجمع الناس على جلالته وجمعه من العلوم ما لم يكن عند غيره ، كيف اعترف بأنه لا يصلح للطريق ، وأدعن للشيخ نجم الدين^(١) .

(١) النبهانى : جامع كرامات الأولياء (دار الكتب العربية - القاهرة ١٣٢٩ هـ) ٢/ ٢٧٥ وما نقله النبهانى عن الشعراى مذكور فى كتابه :

- لطائف المنن والأخلاق (دار الفكر ، القاهرة ١٩٧٦ الطبعة الثانية) .
- الأجوبة المرضية عن أئمة العلماء والصوفية (مخطوط) ورقة ٢٣٦ .

ولا يمكن بحال أن نقبل هاتين الحكايتين ، ففيهما من الخيال ما لا يتفق مع الوقائع .. فالحكاية الأولى غير مقبولة لأن الشيخ نجم الدين توفي سنة ٦١٨ هجرية قبل دخول المغول لبغداد سنة ٦٥٦ هجرية ! وهو لم يستوطن بغداد وإنما خوارزم ! ولا يعقل أن هولاءكو ملك المغول يصل به المقام - وهو الرعوى العنيف - إلى تلك الشفافية التي تجعله « يشم رائحة محمدى كبير » داخل أسوار بغداد ! كما لا يعقل أن يبعث إلى هذا المحمدى - الشيخ نجم الدين - يستأذنه في دخول بغداد .. !

والحكاية الأخرى غير مقبولة أيضاً ، فالرازى لم يؤثر عنه نزوعه إلى التصوف حتى يأتي طالباً الطريق من نجم الدين الكبرى ! ومن غير المعقول أن يأتي طالباً هذا الطريق ومعه ألف من تلاميذه ! كما لا يعقل أن تمحى كل علومه في لحظة ، ثم تعود إليه في لحظة تالية ؛ فإن الله - كما في الحديث النبوى - لا ينتزع العلم انتزاعاً ! ومع ذلك ، فثمة أساس لهاتين الحكايتين ، ثم تطويرة كى يصل إلى هذه الصورة . فالشيخ نجم الدين قُتِلَ بالفعل على يد المغول ، والتقى بالفعل بفخر الدين الرازى ؛ ولسوف نرى ذلك على وجهه الصحيح في الصفحات التالية . أما الآن ، فقد توقفنا عند هاتين الكرامتين ، وناقشناهما بهدف تحليل ما يرويه المتصوفة من كرامات للصوفية ، واكتشاف الآليات الخاصة بصناعة الأسطورة لدى المتأخرين . ففي الحكاية الأولى نلمح يد الخيال وهى تمتد إلى واقعة استشهاد نجم الدين ، لتدخل بها في سياق تاريخى مختلف يتم فيه تفريغ الأشخاص من محتوهم التاريخى وتصويرهم على هذا النحو المفارق الذى يجعل من « هولاءكو » ملك المغول ، صوفياً له كراماته أيضاً ! فى عملية تأليفية تدخل فيما نسميه اليوم بالأدب الفنتازى أو عالم الواقعية السحرية التى تتراجع فيه الحتميات التاريخية والواقعية لتفسح المجال أمام التخيل الجامع الفضفاض الذى ينظر للواقع والتاريخ بعين عجائبية ترى - فقط - ما يؤكد فضل الأولياء على غيرهم .. وهكذا تبدأ عملية « صناعة الكرامات » من واقعة فعلية ، لتحلّق بها فى عنان السماء . وفى لقاء الشيخين نجم الدين كبرى وفخر الدين الرازى - كما رواه الشعراى والنهبانى - محاولة للنسج

على منوال قصة موسى والعبد الصالح « الخضر » حيث يعبر الرازي عن علوم الظاهر كما عبّر موسى عليه السلام عن القوانين الظاهرية ، بينما يعبر نجم الدين عن علوم الباطن كما عبّر العبد الصالح عن الحقائق الربانية الباطنة ؛ لتأكيد أولوية الباطن على الظاهر والحقيقة على المظاهر .. والهدف من صنع الكرامة - كما قال بعض المتصوفة - هو تقوية قلوب المريدين وإلهاب الهمم للسعى في طريق التصوف ؛ وهو هدف غير كافٍ لنسج مثل هذه الحكايات ، إلا لمن كان على ضعف ! ولذا كان أوائل الصوفية ، والأكابر من بعدهم - حتى اليوم - لا يعولون كثيرًا على مسألة الكرامات هذه .. فيغلقون بذلك باب الفتنة وباب الهجوم على التصوف ! فالكرامة الحققة عندهم هي الاستقامة ، فإن جرى أمر عجيب على يدى الولي ، فهذا من باب الأسرار التى تكون بين الولي وربّه ، وما كانت الأسرار خليقةً بأن تنشر على العامة ؛ ومن هنا سكتوا عنها ، وولوا وجوههم شطر الله المتجلى بالأسرار والحقائق .. ولم يشغلهم غيره .

والكرامة الحققة لنجم الدين كبرى - من وجهة نظرى - تكمن فيما أكرمه الله من صبر على المجاهدات الروحية ، وجَلَدٍ فى تحصيل العلوم ، ونشر للهداية بين الأتباع ؛ كما تكمن فى تلك الحقائق الربانية التى تجلّت عليه ، وقصّ طرفاً منها فى « فوائح الجمال » وفى غيره من المؤلفات .. أما كرامته العظمى ، ففى واقعة موته .

استشهاده :

تلك هى اللوحة الأخيرة فى حياة نجم الدين كبرى^(١) ، وهى أكثر لوحات حياته تفجّرًا وامتلاءً بالطابع الدرامى العنيف .. فقد اصطدم الشيخ بأعظم موجّه فى العصور الوسطى الإسلامية « التتار » تلك الموجة التى انهارت معها الحصون والقلاع ، حتى انتهت بفاجعة لا مثيل لها فى تاريخنا القديم « سقوط بغداد سنة ٦٥٦هـ » حيث كان التتار نازلاً موقدة ، اندفعت من مشارق العالم الإسلامى لتأكل الأخضر والبasis .

(١) انظر كتابا : شعراء الصوفية المجهولون (أخبار اليوم - القاهرة ١٩٩١) ص ٤٩ وما بعدها .

بدأت محنة المغول (التتار) وفظائعهم ، بسبب حماقة سلطان خوارزم محمد خوارزمشاه الذى اتسعت أطماعه ورغبته فى المزيد من الحكم والسلطة ، فأرسل جيشاً لتخريب بغداد والسيطرة على مركز الخلافة ، إلا أن الجيش تعرّض لعاصفةٍ ثلجية فى كردستان فبددت العاصفة شمله ، ومن تبقى منه تحطّفه الأكراد ، فلم يرجع من الجيش الكبير إلى خوارزم إلا عددٌ قليل^(١) .

ثم اتجهت أطماع هذا السلطان إلى دولة المغول التى تقع من خوارزم ناحية الشرق ، فأرسل سفارة إلى جنكيز خان لتعزيز العلاقات التجارية معه ، فردّ جنكيز خان عليه بسفارة حملت الهدايا الثمينة من الذهب والأحجار الكريمة ، ومعها رسالة إلى خوارزمشاه يرحّب فيها بتبادل القوافل التجارية ؛ وجاء فى رسالة جنكيز خان ما يلى : « لا يخفى علىّ عظيم شأنك ، وما بلغت من سلطان . وقد علمتُ باتساع ملكك ، ونفاذ حكمك فى أغلب أقاليم الأرض . وإنى لأرى مسألتك من جملة الواجبات . وأنت عندى مثل أعز أولادى .. فإن رأيت أن تهبّى للتجار فى الجهتين سبيل التردّد ، عمّت المنافع وشملت الفوائد » .

وقام خوارزمشاه بعقد معاهدة مع جنكيز خان ، ثم هاجت حماقته لما أعاد النظر فى الرسالة ، فوجد جنكيز خان يعتبره من أبنائه ! فاعتبرها إهانة .. وأرسل جنكيز خان أولى القوافل ، وكانت تتألف من ٤٥٠ رجل كلهم مسلمون ومعهم ٥٠٠ جمل تحمل سلعة تجارية من الذهب والفضة والمنسوجات الحريرية ويقودها أربعة مبعوثون فقام حاكم « أوترار »^(٢) التابع لخوارزمشاه بالاستيلاء على القافلة ، وقتل كل رجالها - المسلمين - وأرسل السلع إلى السلطان خوارزمشاه الذى وزّع السلع على تجار بخارى وسمرقند ، وحاز أثمانها لنفسه^(٣) .

وغضب جنكيز خان ، فأرسل لخوارزمشاه سفارة من ثلاثة رجال ، كيما تحجّج على الغدر برجال القافلة ومبعوثيه ، وتطلب تسليم حاكم أوترار .. وكانت

(١) د. السيد الباز العربى : المغول (دار النهضة العربية - بيروت ١٩٨١) ص ١١٣ .

(٢) بلدة واقعة على حدود خوارزم من جهة الشرق .

(٣) العربى : المغول ، ص ١١٩ .

السفارة تتألف من رجل مسلم ورجلين من المغول ؛ فما كان من خوارزمشاه إلا أن أمر بقتل المسلم وحلق لحية الرجلين الآخرين ! وهكذا بدأت الحرب ، كما تبدأ أغلب الحروب ، بسبب حماقة أحد الحكام^(١) .

قاد جنكيز خان الجيش المغولي بنفسه ، فاستولى على بخارى واستباحها ، ثم اجتاحت سمرقند فنكّل بأهلها على أبشع صورة .. وتوالت هزائم خوارزمشاه وفظائع المغول ، حتى جاء دور خوارزم - حيث موطن نجم الدين - ولترك ابن العماد يروى :

استشهد الشيخ رضى الله عنه بخوارزم فى فتنة التتار ، وذلك أن سلطانها قال للشيخ وأصحابه ، وكانوا نحو ستين^(٢) : ارتحلوا إلى بلادكم فإنه قد خرجت نارٌ من المشرق تحرق إلى قرب المغرب ، وهى فتنةٌ عظيمة ما وقع فى هذه الأمة مثلها . فقال بعضهم للشيخ نجم الدين : لو دعوت برفعها ! فقال : هذا قضاءٌ محكمٌ لا ينفع فيه الدعاء . فقالوا له : أنخرج معنا ؟ قال : ارحلوا أنتم ، فإنى سأقتل هاهنا .

ولما دخل الكفار البلد ، نادى الشيخ وأصحابه الباقون (الصلاة جامعة) ثم قال : قوموا نتقاتل فى سبيل الله . ودخل بيته ، ولبس خرقة شيخه ، وحمل على العدو فرماهم بالحجارة^(٣) ورموه بالنبل ، وجعل يدور ويرقص حتى أصابه سهم فى صدره ، فنزعه ورمى به نحو السماء ، وفار الدم وهو يقول : إن أردت فاقتلنى بالوصال أو بالفراق !

ثم مات ودفن فى رباطه ، رحمه الله تعالى^(٤) .

(١) سوف نعود لحماقة هذا الحاكم عند الكلام عن تلميذ نجم الدين كبرى : مجد الدين البغدادى .

(٢) نلاحظ هنا أن عدد أصحاب نجم الدين لم يكن « اثني عشر » كما يقول بعض الشيعة !

(٣) فى روضات الجنات . « برمح وحجارة » وفى تاريخ الإسلام « حتى بالحجارة » .

(٤) ابن العماد الحنبلى : شذرات الذهب فى أخبار من ذهب (دار الآفاق الجديدة - بيروت) ٧٩/٥ والنص منقول عن تاريخ ابن الأهدل .

وفي ذكر ما جرى بخوارزم ، يروي ابن الأثير :
وأما الطائفة التي سَيرها جنكيز خان إلى خوارزم ،
فإنها كانت أكثر السرايا جميعها ، لعظم البلد ، فساروا
حتى وصلوا إلى خوارزم وفيها عسكر كبير ، وأهل البلد
معروفون بالشجاعة والكثرة ، فقاتلوهم أشد قتال سمع به
الناس ، ودام الحصر لهم خمسة أشهر ، فقتل من الفريقين
خلق كثير ، إلا أن القتل من التتر كانوا أكثر ، لأن المسلمين
كان يحميمهم السور .

فأرسل التتر إلى ملكهم جنكز خان يطلبون المدد ،
فأمدهم بخلق كثير ، فلما وصلوا إلى البلد زحفوا زحفاً
متتابعاً ، فملكوا طرفاً منه ، فاجتمع أهل البلد وقاتلوهم في
طرف الموضع الذي ملكوا ، فلم يقدرُوا على إخراجهم ،
ولم يزالوا يقاتلونهم ، والتتر يملكون منهم محلة بعد محلة ،
وكلما ملكوا محلة قاتلهم المسلمون في المحلة التي تليها ،
فكان الرجال والنساء والصبيان يقاتلون ، فلم يزالوا كذلك
حتى ملكوا البلد جميعه ، وقتلوا كل من فيه ، ونهبوا كل
ما فيه . ثم إنهم فتحوا السكر (السد) الذي يمنع ماء
جَيِّحُونَ عن البلد ، فدخله الماء ، فغرق البلد جميعه
وتهدمت الأبنية . ولم يسلم من أهله أحد ألبته ، فإن غيره
من البلاد قد كان يسلم بعض أهله ، منهم مَنْ يَخْتَفِي ،
ومنهم مَنْ يهرب ، ومنهم مَنْ يلقي نفسه بين القتلى فينجو .
وأما أهل خوارزم ، فمن اختفى من التتر غرقه الماء ، أو
قتله الهدم ، فأصبحت خراباً ياباً :

كَأَنَّ لَمْ يَكُنْ بَيْنَ الْحَبُونِ إِلَى الصَّفَا
أُنَيْسٌ وَلَمْ يَسْمُرْ بِمَكَّةَ سَامِرُ
وهذا لم يُسمع بمثله في قديم الزمان وحديثه^(١) .

تلك هي اللحظة التاريخية الدامية التي استشهد فيها نجم الدين ، وهذه هي واقعة استشهاد كمال رواها ابن العماد ، المؤرخ المعتمد . وقد زاد بعضهم في هذه الواقعة أشياء ، منها قولهم إنه حين مات نجم الدين ، كان قابضاً بيده على خصلة من شعر مقاتل مغولى ، ولم يتمكنوا من تخليص المغولى من يده إلا بقطع الخصلة ؛ وإلى ذلك يشير جلال الدين الرومى - الذى انتسب والده للطريقة الكبروية - بقوله : نحن قوم نشرب خمر الإمام الصافية بإحدى اليدين ، ونمسك بصفيرة الكافر بثانية الكفين^(١) .. كما جمع بعضهم ، بحساب الجُمَّل^(٢) ، مجموع كلمة « حقيقة » فكان ٦١٨ ، ومجموع كلمة « منصور كبرى » فكان أيضاً ٦١٨ وهى سنة وفاة الشيخ^(٣) .

فإذا عدنا لواقعة استشهاد نجم الدين كما رواه المؤرخون المعتمدون ، وبعيداً عن تلك الإضافات التى وضعها الصوفية المتأخرون ، لوجدنا مجموعة من التساؤلات التى تثيرها لحظة الاستشهاد العارمة هذه : هل أراد الشيخ بموته على هذا النحو ، أن يحقق قدراً مكتوباً ؟ أم تراه أراد أن يضرب للمسلمين مثلاً فى عدم الخوف من الموت وفى الاقتحام الذى آخره الشهادة ؟ .. ولماذا كان الشيخ يرقص وهو يموت ؟ هل هى نشوة الاقتراب من الله بمفارقة الدنيا ؟ أم هى الفرحة الروحية بالخروج من أسر الخوف ؟ أم هو ذلك المعنى الذى سيشير إليه جلال الدين الرومى من بعده ، حين قال : لا يفنى فى الله من لم يعرف قوة الرقص ! وأياً ما كان : فهذا هو نجم الدين يعلمنا كيف نموت ميتة مجيدة .

= وقد بدأ اس الأثير هذا الفصل « ذكر خروج التتر إلى بلاد الإسلام » بقوله : لقد بقيت عدة سبى معرضاً عن ذكر هذه الحادثة استعظاً لها ، كارهاً لذكرها ، فأنا أقدم رجلاً وأؤخر أخرى ، فمن يسهل عليه أن يكتب معنى الإسلام والمسلمين ، ومن يهون عليه ذكر ذلك ؟ فيأليت أسمى لم تلدى ، وياليتنى مُت قبل حلولها وكنت نسياً منسياً .. ثم رأيت أن ترك ذلك لا يجدى نفعاً (الكامل ٣٥٨/١٢) .

(١) الموسوعة الصوفية ص ٣٣٧ ، ولم يذكر المؤلف المصدر الذى اعتمد عليه فى ذكر هذا الخبر .

(٢) انظر المقصود بحساب الحمل فى هامش تعليقنا على النص المحقق ص ٢٢٥ .

(٣) ميرزا محمد على مدرس : ربحانة الأدب ١٤٣/٦ .

مصادر بحثة :

لما كانت هذه الدراسة - فيما نعلم - هى أول ما يكتب بالعربية عن نجم الدين الكبرى ، ولما كنا نرى أن الرجل وتصوفه لا يزالان بحاجة إلى المزيد من البحوث والدراسات وجهود المحققين ؛ فسوف نضع فيما يلى قائمة بالمصادر والمراجع التى تعرضت لسيرة نجم الدين وطريقته الصوفية ، لتكون تلك القائمة معيناً لمن أراد استكمال البحث فى هذا الموضوع من الدارسين الجدد .. والقائمة مستفادة مما ذكره بروكلمان وفريتز ماير فيما كتباه بالألمانية ، ومما جمعناه واعتمدنا عليه أثناء إعداد تلك الدراسة :

(أ) المصادر العربية المطبوعة :

- السبكي : طبقات الشافعية الكبرى (طبعة القاهرة ١٣٢٤هـ) المجلد الخامس .
- الذهبى : سير أعلام النبلاء (طبعة مؤسسة الرسالة - بيروت) المجلد ٢٢ .
- الذهبى : تاريخ الإسلام (طبعة دار الكتب بالقاهرة) .
- الذهبى : العبر فى خير من عبر (طبعة الكويت) المجلد الخامس .
- مقداد يالجن : فلسفة الحياة الروحية (دار الشروق - القاهرة ١٩٨٥) .
- الواسطى : ترياق المحبين (القاهرة ١٣٠٥هـ) .
- ابن العماد : شذرات الذهب (دار الكتب العربية - القاهرة ١٣٥١هـ) المجلد الخامس .
- حاجى خليفة : كشف الظنون (استانبول ١٩٤٨) عدة مواضع .
- إسماعيل حقى : روح البيان (استانبول ١٢٨٧هـ) عدة مواضع .
- الصفدى : الوافى بالوفيات (فسادن - ألمانيا ١٣٨٩هـ) المجلد السابع .

- اليافعى : مرآة الجنان (حيدر آباد ١٣٣٩هـ) المجلد الرابع .
- ياقوت الحموى : معجم البلدان ، مادة خوارزم / خيوق .
- القزوينى : آثار البلاد ، مادة خيوق .
- الشعرانى : لطائف المنن والأخلاق (دار الفكر ، القاهرة ١٩٧٦) .
- النهى : جامع كرامات الأولياء (دار الكتب العربية) الجزء الثانى .
- الخوانسارى : روضات الجنات (طهران ١٣٠٦ ش) المجلد الأول .
- البغدادى : هدية العارفين (استانبول ١٩٤٧) عدة مواضع .
- البغدادى : إيضاح المكنون (استانبول ١٩٤٧) عدة مواضع .
- الحفنى : الموسوعة الصوفية (دار الرشاد - القاهرة ١٩٩٠) .
- قاسم غنى : تاريخ التصوف (مكتبة النهضة المصرية ١٩٧٢) .
- الأسنوى : طبقات الشافعية (ديوان الأوقاف - بغداد ١٩٧١) المجلد الثانى .
- كحاله : معجم المؤلفين (دار إحياء التراث العربى - بيروت) الجزء الثانى .

(ب) المخطوطات العربية :

- ابن نقطة : التقييد .
- السنوسى : السلسيل المعين فى الطرائق الأربعين (مخطوطة بلدية الإسكندرية) .
- مجهول : تحفة الفقرا فى ترجمة نجم الدين كبرى^(١) .
- الكمشخانوى : جامع الأصول (مخطوطة مصورة - بدون بيانات) .
- الشعرانى : الأجوبة المرضية عن أئمة العلماء والصوفية (مخطوطة بدار الكتب المصرية) .

(١) ذكره حاحى خليفة فى كشف الطنون (طبعة استانبول ١٩٤٧م) ٢٦٤/١ .

(ج) المطبوعات الفارسية :

- معصوم على : طرائق الحقائق (طهران - إيران ١٣١٩ هـ) .
- عبدالرحمن جامي : نفحات الأنس (لكهنؤ - الهند ١٣٢٣ هـ) .
- التستري : مجالس المؤمنين (طهران ١٣٩٩ هـ) .
- رشيد الدين : جامع التواريخ (طهران ١٣٢٨ هـ) .
- النـووى : مجالس النفائس (طهران ١٣٢٣ هـ) .
- ميرخواند : روضة الشفاء (طهران ١٢٧٠ هـ) الجزء الخامس .
- خواند مير : حبيب السَّير (بومباى ١٨٥٧ م) المجلد الأول .
- غلام اللاهورى : خزانة الأصفياء (لاهور ١٣١٢ هـ) الجزء الثانى .
- رضا هدايت : مجموع الفصحاء (طهران ١٢٩٥ هـ) الجزء الأول
- رضا هدايت : رياض العرفان (طهران ١٣١٦ هـ) .
- ميزرا محمد على : ريحانة الأدب (تبريز - جنجانة سفق) المجلد السادس .
- محمد الموسوى : المشجر^(١) .
- العراقى (فخر الدين) : عشاق نامه^(٢) .
- علاء الدولة السمنانى : فضل الطريقة (استانبول ١٣٢٥ هـ) .
- العطار (فريد الدين) : تذكرة الأولياء (طهران ١٣٢١ هـ) .
- جعفر سجادى : فرهنك مصطلحات عرفاء (طهران ١٣٣٩ ش) .

(د) المخطوطات الفارسية :

- أحمد على خان : مخزن الغرائب (مخطوطة بودليان رقم ٣٩٥) .
- أبو طالب الأصفهانى : خلاصة الأفكار (مخطوطة بودليان رقم ٣٩١) .
- إبراهيم على خان : صحف إبراهيم (مخطوطة برلين رقم ٦٦٣) .
- وجيه الدين أشرف : بحر الزخار (مخطوطة المتحف البريطانى - لندن) .

(١) ذكره الحوانسارى فى روضات الحنات ٢٩٦/١ .

(٢) قام المستشرق حون آربرى بشر وترجمة هذا الكتاب بعنوان : أغنية العشاق (أكسفورد ١٩٣٩ م) .

- الداغستاني : رياض السراة (مخطوط بودليان - فارسي / ٥٨) .
- محمد علي خان : منتخب الآثار (مخطوط أكسفورد رقم ٧٣٩) .
- عبد الرحمن الجشتي : مرآة الأسرار (مخطوطة بنكيور رقم ٦٧٦) .
- دارا شيكوه : صفوة الأولياء (مخطوطة المكتب الهندي - لندن ، رقم ٦٤٧) .
- غياث الدين محمود : خير البيان (مخطوطة المتحف البريطاني رقم ١٠٨) .
- الخوارزمي : جواهر الأسرار (مخطوط كامبردج)^(١) .

(هـ) المراجع الأوربية :

- Brockelmann : Geschichte der Arabischen Litterature, Sup.
(Leiden) Vol. 1.
- Fritz Meier : Die Fawaih al Gamal (Wiesbaden).
- Encyclopedia of Islam, Art. : TARIKA.

(١) ربما كان هذا المخطوط - على الأرجح - عربيًا .

الفصل الثاني

شيوخه ومعاصروه

هناك ثلاثة أصناف من الرجال الذين استفاد منهم نجم الدين كُبرى ، الصنف الأول هم شيوخه في علوم الدين (الحديث - الفقه) والثاني هم شيوخه غير المباشرين في التصوف ، أولئك الذين تعلَّم نجم الدين من كتبهم وأخبارهم .. والصنف الثالث الأخير : شيوخه المباشرين في التصوف .

وقد أشار الذهبي إشارة إجمالية لشيوخ نجم الدين من الفقهاء والمحدثين فقال : سمع من أبي طاهر السَّلَفِي^(١) ، وأبي العلاء الهَمْدَانِي العطَّار ، ومحمد بن بُنِيْمَان ، وعبد المنعم بن الفَرَاوِي .. وطبقتهم^(٢) . وقد قرن السُّبْكِي أسماء هؤلاء الشيوخ ، بالبلاد التي تتلمذ عليهم فيها نجم الدين فقال : سمع بالإسكندرية أبا طاهر السَّلَفِي ، وبهمدان الحافظ أبا العلاء ، وبنيسابور أبا المعالي الفَرَاوِي^(٣) .

وفي دراسة فريتماير (نقلاً عن ؛ داماد إبراهيم باشا) ورد النص التالي : سمع الحديث بمكة من أبي محمد المبارك بن الطباخ وبالإسكندرية من الحافظ أبي طاهر السلفي وأبي الضياء بدر بن عبد الله الحدادي ، وبإصبهان من أبي المكارم أحمد ابن محمد اللبان وأبي سعيد خليل بن بدر الرازي وأبي عبد الله محمد بن أبي بكر الكيزاني وأبي جعفر بن محمد بن أحمد بن نصر الصيدلاني ومسعود بن مسعود الحمال ، وبهمدان من الحافظ أبي العلاء وبنيسابور من أبي المعالي الفَرَاوِي^(٤) .

(١) وصف الشيخ نجم الدين هذا الأستاذ المحدث بأنه : الحافظ السَّلَفِي الأصفهاني ، وهو شيخ مُسَسِّس ، شافعي المذهب ، سلفي الاعتقاد ، ينف على المائة سنين .. (انظر النص المحقق ، ص ٢٤١) وراجع ترجمته الكاملة في : سير أعلام النبلاء ٥/٢١ .

(٢) الذهبي : سير أعلام النبلاء ١١٢/٢٢ .

(٣) السبكي : طبقات الشافعية ١١/٥ والنص مذكور بتمامه في « الوافي بالوفيات ٢٦٣/٧ » .

(٤) Fritz Meier : Die Fawaiih, p. 12.

أما شيوخته غير المباشرين في التصوف ، فمن الممكن التعرف إليهم من ثنايا كلام نجم الدين في مؤلفاته ، حيث نراه يذكر : البسطامي ، سهل التستري ، الجنيد ، الواسطي ، سحنون المحب ، السهروردي (أبو النجيب) .. وغيرهم ؛ كما نراه يروي بعض الوقائع الروحية عن الحرقاني^(١) .

وقد استفاد نجم الدين من « الرسالة القشيرية » وهو ما يظهر من قول الخوانساري : ثم إن من جملة ما أظفرني الله تعالى به في هذه الأواخر ، هو نسخة من « رسالة القشيري » إلى الصوفية ، كُتبت في جرجانية خوارزم الخمية ، كان قد مرت عليها نظرات الشيخ نجم الدين المذكور ، من البداية إلى النهاية ، وكان تاريخ كتابتها سنة اثنتين وثمانين وخمسمائة ، وعلى ظهرها بخط النجم المذكور ما صورته « هكذا أخبرني به شفاهاً ، إجازةً ، الشيخ الإمام الأديب أبو الفضل محمد بن سليمان بن يوسف الهمداني ، بهمدان ، سنة ثمان وستين وخمسمائة ، قال : أخبرنا الشيخ أبو نصر عبد الرحيم بن عبد الكريم بن هوازن القشيري ، قال : أخبرنا والدي الأستاذ الإمام أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري ، قدس الله روحه . وكتب أبو عبيد الله أحمد بن عمر الصوفي بخطه . انتهى .. » وفوق هذه الأسطر .. خط الشيخ الشهيد قطب الخققين ، وقرة عين الواصلين ، صفوة الله في أرضه ، مرشد الخلائق إلى حقيقة الحقائق ؛ أحمد بن عمر الصوفي المعروف بنجم الدين الكُبرى الخيوي^(٢) ..

(١) يقول الذهبي : هو الراهد القدوة أبو الحسن علي بن أحمد الحرقاني البسطامي ، من قرية (حَرْقَان) .. له الكرامات والأحوال ، زاره محمود بن سُبُكْتِكِين ، فوعظه ، ولم يقبل منه شيئاً . توفى يوم عاشوراء سنة خمس وعشرين وأربعمائة ، عن ثلاث وسبعين سنة (سير أعلام النبلاء ١٧/٤٢١) .
(٢) انظر ترجماته في : نفحات الأنس ص ٢٢٨ - شذوذاً للإزار للجنيد الشيرازي ص ٢٤٣ - ديوان الحلاج (نشرة ماسينيون) ص ٣٨٠ - مجموعة نصوص غير منشورة لماسينيون ص ١١٣ - معجم المؤلفين لكحاله ١٧٥/٤ - ترجمة روزبهان البقلي (بشرة إيفانوف ، كلكتا ١٩٢٨ م) .

وعن شيوخه في التصوف ، أولئك الذين صحبهم وتلمذ على يديهم ، يقول نجم الدين : « أخذتُ علم الطريقة عن روزبهان ، والعشق عن ابن العصر ، وعلم الخلوة عن عَمَّار ، والخرقة عن إسماعيل القصرى » . وسوف نتوقف عند هؤلاء الشيوخ قليلاً ، لتتعرف إلى المنابع المباشرة التي استقى منها نجم الدين تصوفه .

روزبهان :

هو أبو محمد روزبهان بن أئى نصر البقلى ، الفسوى ، الشيرازى المصرى ؛ المتوفى ٦٠٦ هجرية . أصله من « شيراز » زار مصر فقضى في القاهرة والإسكندرية زمناً ، حتى عُرف باسم « روزبهان المصرى » ثم عاد إلى شيراز واستمر بالوعظ والتذكير خمسين سنة في الجامع العتيق بمدينة شيراز ، واشتهر في هذه السنوات الخمسين الأخيرة بلقب : شَطَّاح فارس .

ويعد روزبهان من أعظم صوفية الإسلام ، اعتبره الفرس من مفاخر إقليم فارس ومن مقدسات شيراز ! حتى إن الشاعر الفارسى العظيم « سعدى الشيرازى » يُقسم على الله به ، فيقول :

أقسم عليك بذكر الشيخ الكبير وفكره

وبحق روزبهان وبحق الصلوات الخمس

أن تحفظ هذه المدينة المختصة بالرجال الصالحين

من أيدي الكافرين والمتشائمين والظالمين والعَمَّازين^(١)

وقد ترك روزبهان العديد من المؤلفات ، منها : تفسير القرآن بعنوان « عرائس البيان في حقائق القرآن »^(٢) - منطق الأسرار في بيان الأنوار ، وهو

(١) د. قاسم غنى : تاريخ التصوف ص ٥٦٧ والأبيات من ديوان سعدى الشيرازى (بالفارسية) .
(٢) طُبع جزء منه في الهند على هامش كتاب: صفوة الصفاء لابن البزار. وذكر بروكلمان (Gesch. 1, 736) بعض مخطوطاته في : المكتب الهندى بلندن برقم ١٠٧ ، ١١٠٦٤ - مكتبة قاضى عسكر ١٢٤ - حكيم أوغلو ١٠٦ - جابر الله ٢٣١ - داماد زاده ١٢٥ - خالص أفندى ١٥٠ ، ١٦٦ - نفيس باشا ١١٧ - عاطف أفندى ٢٤٥ - الأصفية ٢٣٣ - لاله لى ١٨٠ - دار الكتب المصرية ١/١٥٥ - الموصل ٦٦/٢٥٦ - بيكنبور ١٤٥٤ - لكهنو ١٣١٠ (ط) .

(م ٤ - فوائج الجمال وفوائح الحلال

« شرح الشطحيات » بالعربية والفارسية^(١) - وشرح كتاب « الطواسين » للحلاج ، بالعربية والفارسية^(٢) - الأنوار في كشف الأسرار^(٣) - سير الأرواح « المصباح لمكاشفة الأرواح »^(٤) - كتاب القدسية^(٥) - مكنون الحديث - حقائق الأخبار - الموشح في المذاهب الأربعة وترجيح قول الشافعي بالدليل^(٦) .. وله أيضاً رباعيات من الشعر الفارسي منها ما ترجمته :

من أجل الحصول على كأس ، طفئت العالم
فما قعدت يوماً ولا نث ليلة
وعندما سمعت من الأستاذ وصف الكأس
قلت : أنا نفسى مرآة الكأس التى يرى فيها العالم

وقد وردت هذه الرباعية فى كتاب روزبهان « عهر العاشقين » التى يملك الدكتور / قاسم غنى مخطوطة نفيسة منه ، وقد نقل إلينا منه فصلاً ، يمكن من خلاله أن نتعرف بشكل مباشر على أفكار روزبهان .. يقول الشيخ فى الفصل الحادى والثلاثين (بعنوان : كمال المعشوق) ما نصّه :

إن الله سبحانه وتعالى ذاته القديمة موصوفة أزلاً وأبداً بصفاته القديمة ، ومن جملة صفات الحق : « الأول ، العشق » وقد عشق ذاته بذاته ، فهو العشق والعاشق والمعشوق ، فصار العشق ذات لونٍ واحدٍ ، لأنه من صفاته تعالى ، وهو منزلة عن تغير الحدثنان . فالعشق واحدٌ ، صفة له قائمة به لا تغير فيها ؛ بل هو عاشق بنفسه لا يجوز له التغير الحدثنانى . وأعرف محبة الحق فى أن يكون علمه

(١) مخطوطاته فى : مكتبة شهيد على رقم ١٣٤٢ - مشهد ١/٤٨ - قاضى عسكر ١٢٧١ .

(٢) نشره المستشرق الفرنسى ، لوى ماسينيون .

(٣) د. قاسم غنى : تاريخ الصوف ، ص ٧٥٧ - وتوجد له مخطوطة بعنوان : شرح الحجج والأسرار فى مقامات أهل الأنوار والأسرار ، بالمكتب الهندى رقم ١٢٥٢ (Gesch. 1, 763) .

(٤) مخطوطاته فى : مكتبة الفاتح برقم ٢٦٥٠ - الأصفية ٢١٦٠ - عاشر أندى ٢/٤٣٢ .

(٥) توجد له مخطوطة بالمكتبة الوليتية بباريس ، برقم ١٧٤ (Gesch. 1, 736) .

(٦) راجع المزيد من مؤلفاته فى : شد الإزار ص ٢٤٤ - معجم المؤلفين ١٧٥/٤ - كشف الظنون ، صفحات ١٩٦ ، ١٠١١ ، ١٠٧٩ ، ١١٣١ - إيضاح المكنون ص ٥٩٧ .

لم يزل محباً بنفسه لنفسه ؛ كمال الحبة ، فالحبة صفةُ الحق . فلا تخطئ في الاسم ، فإن العشق والمحبة أمر ! إنه لم يزل عالمًا بنفسه وناظرًا إلى نفسه بنفسه ، لا يوحد انقسام في أحديته . ولما أراد - تعالى - أن يفتح كنز الذات بمفتاح الصفات ، تجلّى على أرواح العارفين بجمال العشق ، وظهر لهم بصفات خاصة ، وأنهم حصلوا في كل صفةٍ لباسًا ؛ فمن العلم علمًا ، ومن القدرة قدرةً ، ومن السمع سمعًا ، ومن البصر بصيرًا ، ومن الكلام كلامًا ، ومن الإرادة إرادةً ، ومن الحياة حياةً ، ومن الجمال جمالًا ، ومن العظمة عظمةً ، ومن البقاء بقاءً ، ومن المحبة محبةً ، ومن العشق عشقًا ؛ كانت كل هذه « هو » فبرز « هو » فيهم ، وأثرت الصفات فيهم ، والصفة قائمة بالذات ، فأصبحت صفتهم قائمة من أثر ذلك ؛ لا يوجد من « الحلول » شيء في هذا العالم : العبد عبدٌ والرَّبُّ رَبٌّ^(١) .

فأصل العشق قديم ، وعشاق الحق قدماء ! عشقهم بالروح ، والعشق لبلاب الأرض القديمة الذى التف حول شجرة روح العاشق . والعشق سيف يقطع رأس الحدوث من العاشق^(٢) ، وهو ذروة قاعدة الصفات ، فما وصلت روح العاشق إلا واستسلمت للعشق . وكل من صار معشوقًا للحق ، وعاشقًا للحق ، لا يستطيع النزول من تلك الذروة ، ويصير في العشق متحدًا بالعشق ؛ ولما اتحد العاشق والمعشوق صار العاشق والمعشوق بلون واحد^(٣) ، وعندئذ يصبح العاشق حاكمًا في إقليم الحق . فعندما غلب عليه الحق ، أصبح قالب صورته جَنَانِيًا ، ونفسه روحانيةً ، وروحه ربانيةً .

العشق كمال من كمال الحق ؛ فإذا اتصل بالعاشق ، تحوّل من الحدوث المحض إلى الجلال الإلهي ، ويصبح باطنه ربانيًا ، ويطلب معدن الأصل ، ولا يتغير من حوادث الدهور وصروف الزمان وتأثير المكان ؛ فإذا بلغ عين الكمال ، تزول

(١) يقصد : رغم سطوع آثار الصفات وتجليها على العبد ، بحيث يصير ربانيًا ، إلا أن مراتب العبودية والربوبية لا تزال محفوظة ، وليس ثمة أى حلول .

(٢) الحدوث بمعنى « الخلقية » واليقدم بمعنى « الألوهية » .

(٣) سئل الحنيد عن المعرفة والعارف فقال : لون الماء ، لون إنائه !

ستائر الربوبية ! والعاشق الرباني يذهب بالمعدن الأصلي .. وليس في العشق مقصودٌ ، فالعشق مع المقصود ليس بوجود^(١) :

العشق والمقصودُ كفرٌ والعاشقُ يرى من روحه

وليس للصورة مكان في عالم العشق ، لأن العقل والنفس ليسا معاً في طريق العشق ، فالعشق هو الطائر الصاهر للروح^(٢) . والعشق والروح ، كالحمام والصقر :

العشق لا يقبل النفس الحية والصقر لا يصطاد الفأرة الميتة

الأمر والنهي منسوخان في طريق العشق !

والكفر والدين حُجبا عن سراى العشق !

والآفاق محترقة بإشراق العشق !

والكون مضمحلٌ تحت حافر فرس العشق !

عند مَنْ كان العشق مرشده يكون الكفر والدين ستار بابه

وجوهرة العشق عُجنت من الأزل ، ولم يكن في ذلك العالم للروح والعقل من طريق^(٣) ؛ كل مَنْ ظهر له طريق العشق ، يخطف جوهر أوصافه من هذه التربة :

إن كل ما في الكائنات من جزءٍ وكل
العشق أرق من العقل والروح
هي أطواقُ قناطر العشق
« لي مع الله » هو وقت الرجال^(٤)

(١) يقصد : العشق مره عن العرص ، فهو مطلوب لذاته وليس لههدف وراءه .

(٢) يعيد كلام الشيخ ها ، ما ذكرناه من قبل حول ارتقاء الأولياء من الصور الحسية إلى مطالعة الجمال الإلهي ، بحيث يكون الوقوف مع المخلوقات آنذاك نقص .

(٣) إشارة إلى عالم الأرواح قبل خلق الأحساد والنزول إلى هذا العالم ، وهو ما يُعرف بعالم « الدر » الذي ورد ذكره في القرآن الكريم .

(٤) الإشارة للنحديث السوي : لي وقت مع الله لا يسعى فيه مَلَكٌ مقرب ولا نبيُّ مرسل .

وليس في العشق مجوسية ولا كفر ، ولا شراسة ولا بلاهة ، وصفةُ العشاق كمالُ الحيرة .. والخضوعُ صفةُ المتَّمين :
 يجعلُ حِمْلُ العشق الطفلَ شيخاً ويجعلُ العشقُ الباشقُ^(١) صيادَ البعوضة
 والجنة مأوى الزاهدين ، والحضرة مثوى العاشقين ! ليس في العشق فجاجة ،
 وليس في طريقه عجز ولا ضعف .

وكل ما قلناه ، ليس من صفة العشق والعاشق^(٢) .. ونهايةُ العشق بدايةُ المعرفة .. والعشق في المعرفة مبنًى على الكمال ؛ وإذا اتحد العاشق بالمعشوق ، بلغ مقام التوحيد . وإذا تحيّر في المعرفة ، فقد أحرز مقام المعرفة .. ونهايةُ العشق إلى هذين المقامين ؛ فإذا صار عارفاً ، تبدو صفات الحق من صفاته . ذاك الذي تكلم بالشطحيات ، إنما أراد أن يقول الحديث السبحاني « ما في الجبة »^(٣) و«سر أنا الحق»^(٤) وإذا لم تعرف ذلك ، فاستمع إلى قول «أسد مرج التوحيد» و«فارس ميدان التجريد» : أرى بكر الشبلي رحمة الله عليه ، فإنه وجد رمز ذلك الحديث ذات يوم في مجلس الموحدين ، ولما غلبه سكر الوجد قال :

تباركت خطراتي في تعالائي فلا إله إذا فكُرت آلائي !

وحيث إنهم بلغوا ذلك العالم ؛ صار قلبهم ربانياً ، وقولهم أزلّياً وأبدئياً .. كما قال أبو سعيد الخزاز ، رحمة الله عليه : للعارفين خزائن أودعوها علوماً غريبة ، وأنباءً عجيبة ، يتكلمون فيها بلسان الأبدية ، ويخبرون عنها بعبارات الأزلية^(٥) .

* * *

(١) الباشق : نوع من الصقور .

(٢) يشير الشيخ هنا إلى أن حقائق العشق تعلو على اللغة ، ولا تستطيع الألفاظ أن تخبر عن حقيقتها .. فهي فقط تقرب الأمر للأذهان .

(٣) عبارة الحلاج : ما في الجبة إلا الله .

(٤) عبارة الحلاج : أنا الحق .

(٥) روزبهان البقلي : عبهر العاشقين (نقلاً عن تاريخ التصوف لقاسم غنى ص ٥٧٩ وما بعدها) وقد ضاع هذا الكتاب في طهران سنة ١٩٥٨ بناية هنري كوربان ومحمد معين .

وبعد .. فهذا هو الشيخ روزبهان الذى لطم نجم الدين لطمَةً جعلته وليًّا !
والذى أخذ منه نجم الدين علم الطريقة والسلوك الصوفى . فلتتوقف الآن عند
الشيخ التالى ، على نفس الترتيب الذى وضعه نجم الدين فى قوله : أخذت علم
الطريقة عن روزبهان ، والعشق عن ابن العصر وعلم الخلوة والعزلة عن عمّار
والخرقة عن إسماعيل القصرى .

ابن العصر :

يبدو أن ثمة تصحيحًا وقع عند نقل عبارة نجم الدين عن أساتذته ، أو أن
(ابن العصر) هو تسمية مختصرة للشيخ (ابن أى عصرون) فقد بحثنا فى المصادر
التاريخية ، فلم نجد ابن العصر .. ثم وجدنا إشارة محمد الموسوى النوربخشى الواردة
فى (روضات الجنات) تقول إن نجم الدين : « صحب عمار بن ياسر ،
وروزبهان الفارسى الكبير المتوطن بمصر ، وأحمد الموصلى ، والقاضى الإمام
ابن العصر الدمشقى^(١) » . فبحثنا فى القضاة الدمشقيين ، فلم نجد فى زمن زيارة
نجم الدين لها ، إلا ابن أى عصرون .

هو قاضى القضاة ، شيخ الشافعية^(٢) ، عالم أهل الشام : أبو سعد عبد الله
ابن محمد بن هبة الله بن المطهر بن على بن أى عصرون ، التيمى الحديثى الموصلى
الدمشقى^(٣) .

(١) الخواسارى : روضات الحيات ٢٩٦/١ .

(٢) الملاحظ ، أن أغلب شيوخ نجم الدين كانوا من الشافعية .. وهو مذهب أهل « حيق » ببلدته .

(٣) فى هامش « سير أعلام النبلاء » ورد ما يلى :

ترجم له العماد الأصهبانى فى القسم الشامى من الحريدة ٣٥١/٢ ، وابن الأثير فى الكامل ١٨/١٢ ،
وابن الديبى فى تاريخه : الورقة ١٠٢ (باريس ٥٩٢٢) وابن الصلاح فى طبقاته ورقة ٥٤ ، والنواوى
فى الطبقات الورقة ٥٩ ، وابن حلكاى فى الوفيات ٥٣/٣ ، والمذرى فى التكملة : ١/ الترجمة ٨٢ ،
والدهبى فى تاريخ الإسلام ، الورقة ٢٢ ، والعمر ٢٥٦/٤ ، ودول الإسلام ٧٢/٢ ، والمختصر المحتاج
إليه : ١٥٨/٢ ، والإعلام الورقة ٢١١ ، ومعرفة القراء الورقة ١٧٣ ، والديمياطى فى المستفاد
الورقة ٤٥ ، والصفى فى نكت الهميان ١٨٥ ، وابن كثير فى البداية ٣٣٤/١٢ ، والسبكى فى الطبقات
١٣٢/٧ ، وابن الملقى فى العقد الورقة ٧٠ ، والخزرى فى عاية النهاية ٤٥٥/١ ، والمقرئزى فى السلوك
١٠٣/١ ، وابن تغرى بردى فى النجوم ١١٠/٦ ، والنعمى فى القضاة الشافعية ٤٩ وابن هداية الله فى
الضقات ٨٠ ، وابن العماد فى الشذرات ٢٨٣/٤ وغيرها .

ولد ابن أوى عصرون سنة ٤٩٢ هجرية ، وتوفى سنة ٥٨٥ هجرية بدمشق^(١) ؛ مما يعنى أن نجم الدين التقى به فى حدود سنة ٥٧٥ هجرية ، وهو زمن مروره على دمشق عائداً من مصر .. وزمن تولى ابن أوى عصرون قضاء دمشق .

وكان ابن أوى عصرون فقيهاً ، محدثاً ، متصوفاً . تفقه على المرتضى الشهرزورى وابن خميس الموصلى ، وأبى على الفارقى ، ودرس القراءات على الحسين بن محمد البار وأبى العز القلانسى ، وتلقى الحديث من المسلم السروجى وأبى القاسم بن الحصين وأبى البركات البخارى .. وغيرهم .

وقد تولى التدريس بالمدرسة الغزالية بدمشق ، وأشرف على الأوقاف هناك ، وترك مجموعة من المؤلفات : صفوة المذهب فى نهاية المطلب (سبعة مجلدات) - الانتصار (أربعة مجلدات) - المرشد (مجلدين) - التيسير فى الخلاف (أربعة أجزاء) - الذريعة فى معرفة الشريعة - مآخذ النظر - كتاب الفرائض - كتاب الإرشاد - التنبيه فى معرفة الأحكام - فوائد المذهب^(٢) .

والعشق الذى تعلمه نجم الدين من شيخه ابن أوى عصرون ، يظهر فى بعض أبيات هذا الشيخ ، إذ يقول :

أَمْسَتْ حَبْرِي عَنْ حَيْنِي إِلَيْهِ وَعَنْ زَفَرَاتِي وَفَرَطِ اسْتِيَاقِي
لَكَ الْخَيْرُ إِنَّ بِقَلْبِي إِلَيْكَ ظَمًا لَا يُرَوِّيه إِلَّا التَّلَاقِي

ويقول :

يَا سَائِلِي كَيْفَ حَالِي بَعْدَ فُرْقَتِهِ حَاشَاكَ مِمَّا بِقَلْبِي مِنْ ثَنَائِيكَ
قَدْ أَقْسَمَ الدَّمْعُ لَا يَجْفُو الْجُفُونُ أَسَى وَالنُّومُ لَا زَارَهَا حَتَّى أَلَايِكَ

ولا شك فى أن هذه الأبيات تصوّر حال عاشق متيم ، يشكو ألم الفارقة

(١) الذهبى : سير أعلام النبلاء ١٢٥/٢١ .

(٢) المرجع السابق ص ١٢٧ .

والبعاد .. ولكن أليس من الأصوب ، أن يكون نجم الدين قد أخذ العشق عن روزبهان ؟ إن كلام روزبهان في العشق لا مثيل له ، وأحواله أيضًا . فالأنسب أن يكون روزبهان هو « مُعلّم العشق » بالنسبة لنجم الدين ، خاصة أن تلك الواقعة التي حكى فيها نجم الدين عن عشقه لتلك الجارية - حيث كان يتنفس نازًا - كانت قبل لقائه بابن أى عصرون ، وفور مفارقتة للشيخ روزبهان .

عمار :

هو أقرب شيوخ نجم الدين إلى نفسه ، وأكثرهم تأثيرًا فيه . فقد طالت الصحبة بينهما ، ولم يصحب نجم الدين بعده شيخًا آخر ؛ وهو كثيرًا ما يردّد : « قال شيخى عمار ... » وكثيرًا ما يحكى عما جرى بينهما من وقائع ومعانيات روحية ؛ وسوف نرى أمثلة لذلك عند قراءتنا نص فوائح الجمال .

والشيخ عمار هو : عَمَّار بن ياسر بن محمد بن عمار بن سحاب الشيباني البديلى^(١) ، نسبة إلى (بَدْلَيْس) وهى بلدة من نواحي أرمينية ذات بساتين كثيرة^(٢) ، كانت لزمن طويل من أهم المدن التجارية .. وهى اليوم مدينة كبيرة يسكنها الأكراد المسلمون والأرمن^(٣) .

عاش الشيخ عمار ببديلىس وتوفى ودفن بها بعد سنة ٥٩٠ هجرية^(٤) ، وكان قد تتلمذ فى التصوف على يد الشيخ أى النجيب السهروردى ، ولبس منه خرقة الصوفية كعلامة على انتظامه فى السلسلة الصوفية الممتدة من السهروردى إلى الجنيد .. وقد لبس نجم الدين الخرقة على يد شيخه عَمَّار للتبرك بها ، كما سيأتى ، فاننتظم هو الآخر فى تلك السلسلة .

(١) لم نجد ترجمة وافية مفردة للشيخ عَمَّار البديلىس ، وإنما هناك فقط بعض الإشارات إليه فى : فضل الطريقة لعلاء الدولة السمناني ، تذكرة المشايخ ، تحفة الربة لحد الدين البعدادى ، مرصاد العباد للحسينى ..

انظر Fritz Meler, p - 20

(٢) ياقوت الحموى : معجم البلدان ٣٥٨/١ .

(٣) سترك : مادة « بديلىس » بدائرة المعارف الإسلامية (الترجمة العربية) ٤٦٠/٣ .

(٤) جاء فى مخطوطة كتاب : « بهجة الطائفة » للبديلىس (برلين ٢٨٤٢) سماع على المؤلف وإجازة برواية الكتاب ، بتاريخ ٥٩٠ ، وكان السماع وإجازة بخانقاه « النهاية » فى مدينة خلاط ، وهى بلدة أرمينية قرب بديلىس .

وقد أُلّف عَمَّار البديلى كَتَابَيْنِ فى التَّصَوُّف ، الأول هو « صوم القلب »
وتوجد منه نسخة فى مكتبة برلين (برقم ٣١٣٣ A) وقد نقل منها فريتز ماير^(١)
الفقرة الآتية :

« .. لهذا قيل : الشيخ فى قومه كالنبي فى أمته^(٢) . فجعل لهم فى بواطنهم
وقلوبهم تبصرةً ونوراً ، وبالنور جعل لهم من الهمة جاسوساً يتجسس فى
القلوب^(٣) ، فهى (الهمة) للقلوب بمثابة المساعى للملوك ، تخبر القلوب^(٤)
بخطرات قلوب المريدين . ولها مقام الحراسة والحفظ ، فإلى مَنْ وجَّهوها ، وبمن
وكَّلوها ، وعلى أى أمر سلَّطوها ؛ أظهرت قوتها وأتمَّت فعلها وأتقنت حفظها
وحراستها ؛ لأنها الهمة الفعَّالة ، خَصَّها الله لقلوب الأنبياء والأولياء ، لأجل
الامتثال والخدمة والسمع والطاعة ؛ فهى فى تصرُّف القلب كالمملوك فى تصرُّف
المالك .. فإن قيل : ما الهمة ؟ قيل : سَيَّارُ القلب ، ومعنى من توابع القلب ،
فحيث وُجد القلبُ وحدث ، وبقدر علوِّ القلب تكون عالية ، وبقدر تصرُّف
القلب تكون متصرِّفة » .

وإذا قارنَّا هذه الفقرة بكلام نجم الدين عن « الهمة » فى فوائح الجمال ،
فسوف يرى أثر الشيخ عَمَّار واضحاً فى أفكار نجم الدين .. وفى أسلوبه أيضاً
واختياره لألفاظ معينة مثل لفظة « السيار » التى تتكرر كثيراً فى عبارات
نجم الدين .

أما الكتاب الآخر للشيخ عَمَّار البديلى ، فهو « بهجة الطائفة بالله العارفة »
وتوجد منه مخطوطة ببرلين (برقم ٢٨٤٢ A) وقد نقل منها فريتز ماير^(٥) النصوص
الآتية ، التى يمكن من خلالها فهم بعض الجوانب فى تصوف الشيخ عَمَّار :

(١) Fritz Meier : Die Fawāih - p 297

(٢) حديث شريف ، أخرجه السيوطى عن الخليلى فى مشيخته (الجامع الصغير ص ١٨٣) .

(٣) الإشارة للحديث : اتقوا فراسة المؤمن فإنه يرى نور الله .. ويقال : الصوفية هم جواسيس القلوب !

(٤) يقصد : قلوب الأولياء والمشايخ .

(٥) Fritz Meier : Die Fawāih. p 284 - 286 - 297 - 298 .

« القلب إذا طهره الذكر وأخرجه من سجن عبادات صفات النفس ، إلى صفاته الروحانية من صفات عالم الأمر .. صار القلب والملائكة في هذه القاعدة سواء . فانظر إلى صفة عبد قلبه بمثابة الملائكة ، كما كان في الأزل قبل مجاورة الأجسام^(١) ، ما شأنه عند الله ، وما شأن علو حاله في الأحوال .. قال قائل : ما علامة عبد اتصف قلبه بصفة الملائكة ؟ قال : إذا كان قلب العبد مالكا لتصرف مملكة ظاهره وباطنه ، فصورته صورة الآدميين ، وفعله وحركاته وسكناته من فعل الملائكة المقربين . قال قائل : كيف يكون مالكا بمصالح باطنه وظاهره ؟ قال : أن يكون عقله أمرا على شهوته ، وعلمه أمرا على جهله ، وشرعه أمرا على طبعه ، وقلبه أمرا على نفسه .. فإذا حصل للعبد هذا ، فهو آدمي الصورة ملكي الصفة رباني الاستغناء ؛ وبهذا صار الإنسان أعلى شأنًا من الملائكة^(٢) .

والذكر على الحقيقة ، ذكر القلب لا ذكر اللسان . وذكر القلب - عند النهاية - يقتضى رفع الحجاب . والذكر على الحقيقة ، مَنْ هو مذكور الحق ؛ كما قال الله تعالى : ﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ ﴾^(٣) .. أى اذكروني ذكرًا يستوجب مني الذكر لكم . ومعنى ذكر الحق للعبد ، نظره إليه وإقباله عليه وقرينه منه ؛ وهذا ذكره في نفسه ، كما قال : من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه^(٤) . ولهذا في الحقيقة شزح يطول .

وذكر القلب نوعان : نوع استئناس ونوع استغراق . فنوع الاستئناس في مقام اللطائف ، ونوع الاستغراق في مقام مشاهدة ذكر الحق إياه^(٥) .. وقد قال الله تعالى : أنا جليس من ذكرني .

(١) الإشارة إلى عالم الأرواح قبل خلق الأجساد (عالم الدر) .

(٢) الإشارة إلى أمر الله للملائكة بالسجود لآدم (أصل النوع الإنساني) .

(٣) سورة البقرة ، آية ١٥٢ .

(٤) حديث قدسي .

(٥) راجع فصل « في الاستغراقات » في فوائج الجمال .

.. فولئى له الولاية على نفسه لا على غيره ، وولئى له الولاية على نفسه وعلى أناس قليل ، وولئى له الولاية على نفسه وعلى غيره مطلقاً .. فالولئى المقيد هو الذى وُلئى ولم يعلم أنه وُلئى ، حسن الله أخلاقه وأحواله وأقواله ، فالخلق منه فى دعة وراحة ، وينتفعون منه بشيء من أحواله فى كل حال ، وبشيء من دعواته ؛ لأنه يُستجاب له فى نفسه فى كل حال ، ويُستجاب له فى غيره إلا فى حالٍ دون حال .. والولئى الذى وُلئى على نفسه وعلى أناس قليل ، فهو أيضاً مقيد التصرف على بعض دون بعض ، فالخلق ينتفعون به على قدر ولايته وتصرفه .. والولى الذى له التصرف على نفسه وعلى غيره ؛ هو الذى أطلق تصرفه .. والولى الذى له التصرف على نفسه وعلى غيره ؛ هو الذى أطلق تصرفه ، وهذا وُلئى مطلق ، وتصرفه مُطلق ، وكل مَنْ وصل إليه ظهرت بركة تصرفه عليه ؛ فهو غياث الخلق»^(١) .

ومن جملة هذه النصوص تتضح طبيعة تصوف الشيخ عَمَّار ، فهو تصوف يهتم بالجانب العملى المتمثل فى الذكر ومقاومة رغبات النفس ، ويعوّل على الشريعة ويحرص على إيراد أصول أفكاره من الآيات القرآنية والأحاديث القدسية والنبوية ، وهو أخيراً تصوف عميق النظرة للولاية والأولياء . وكلها خصائص تظهر أيضاً فى تصوف نجم الدين كبرى ، ولذا نقول إن أثر الشيخ عَمَّار كان الأقوى فى العالم الصوفى لنجم الدين .

والآن ، نتوقف عند الشيخ إسماعيل القصرى :

القصرى :

هو آخر شيوخ نجم الدين بحسب ترتيب العبارة « أخذت علم الطريقة عن روزبهان ، والعشق عن ابن العصر ، والخلو والعزلة عن عمار ، والخرقه عن إسماعيل القصرى » ومع ذلك ، فهو أول مشايخ نجم الدين فى الطريق ، وفى الترتيب الزمنى لصحبته المشايخ .. وهو أيضاً شيخه المباشر فى السلسلة .

(١) من هذا المقام قال عبد القادر الجيلانى : قدمى على عنق كل وُلئى لله . وقال : أنا المخطوط ، أنا الملحوظ ، أنا المتصرف فى غيرى .. (راجع كتابنا : عبد القادر الجيلانى ، باز الله الأشهب) .

والقصرى نسبةً إلى « قصر رُوناش » وهو كما يقول ياقوت : من. كور الأهواز ، وهو الموضع المعروف بِدِزْبَهْل ومعناه « قلعة القنطرة » يُنسب إليه جماعة وافرة ، منهم : أبو إبراهيم إسماعيل بن الحسن بن عبد الله القصرى ، أحد العُباد المجتهدين ، قُرئ عليه في سنة ٥٥٧^(١) .

وقد سلك القصرى طريق الصوفية على يد الشيخ محمد بن مالكي (مانكيل) ولبس منه الخرقة ، ثم استقر في خانقاه بناها في دِزْبَهْل (دزبولى) بالأهواز . وفي هذه الخانقاه ، كانت صحبة نجم الدين للشيخ القصرى ، وكان تلقيه خرقة الصوفية ؛ يقول السمنانى : وقد لبس الشيخ أبو الجناح نجم الدين الكبرى خرقة الأصل من شيخ الورى إسماعيل القصرى في خانقاهه بدزبولى خوزستان^(٢) .. ومعنى هذا أن نجم الدين قد لبس الخرقة مرتين ، وانضم بالتالى لاثنتين من السلاسل الصوفية على النحو التالى :

السلسلة الأولى : « نسبة الخرقة فيها متصلة بالنبي ﷺ ، ألبسها على بن أبى طالب ، فألبسها الحسن البصرى وكميل بن زياد ، وألبسها كميل عبد الواحد بن زيد ، وهذا ألبسها أباً يعقوب النهرجورى ، فعمرو بن عثمان المكى ، فأباً يعقوب الطبرى ، فأباً القاسم بن رمضان بن إدريس ، فداود الخادم ، فمحمد بن مالكي ، فالشيخ إسماعيل القصرى ، فالشيخ نجم الدين الكبرى » وقد ذكرها الحاج معصوم على ، على هذا النحو^(٣) .

(١) ياقوت : معجم البلدان ٣٥٧/٤ وبخصوص ترجمة القصرى ، راجع : فضل الطريقة للسمنانى ص ١٠٠ ، تذكرة المشايخ ص ٢٣٤ ، تذكرة الحفاظ للذهبي ٢٣٣ ، مرآة الجبان لليافعى ٤٠/٤ ، الرسالة الفتوية للحمداى (مخطوط آياصوفيا رقم ٢٨٧٣) طرائق الحقائق لمعصوم على ٥٠/٢ ، نفحات الأنس لعبد الرحمن حامى .. (Fritz Meier, p. 17) .

(٢) السمنانى : فضل الطريقة ص ١٠٠ .

(٣) معصوم على : طرائق الحقائق (بالفارسية) ٣٩/٢ - نقلاً عن التيبى : الصلة ص ٤٤٠ .

السلسلة الثانية : وتمتد على النحو التالى : « من أنى القاسم الجنيد ، إلى ممشاد الدينورى ، إلى أحمد بن سياه ، إلى فرج الزنجاني ، إلى محمد بن عمويه ، إلى عبد الله البكرى ، إلى أنى النجيب السهروردى ، إلى عمار بن ياسر ، إلى نجم الدين كبرى » وقد ذكرها السنوسى على هذا النحو^(١) .

وقد أشار ابن العماد للسلسلتين إجمالاً حين قال عن نجم الدين إنه : « رحل الأقطار راکباً وماشياً ، وأدرك عن المشايخ ما لا يحصى كثرة ، ولبس خرقة التصوف النهرجورية من الشيخ إسماعيل القصرى ، والسهروردية للتبرك من الشيخ أنى ناصر عمار بن ياسر^(٢) ..

وهكذا اتصلت السلسلتان عند نجم الدين كبرى ، الذى يعد من الوجهة الصوفية « ملتقى بحرين » ولسوف تُسند إليه بعد ذلك سلسلة خاصة به ، ستعرف باسم « السلسلة الذهبية الكبرى » .. وقد كان من الممكن أن يكتفى نجم الدين بلبس الخرقة على يد القصرى ، لكنه أراد - كما تقول مصادر حياته - أن يلبسها أيضاً من شيخه عمار ، للتبرك بها ؛ ولكن تظل الخرقة الأصلية هى خرقة إسماعيل القصرى ، وهى التى نعتقد أنه لبسها يوم استشهاده .

* * *

وقد عاش الشيخ نجم الدين فى مرحلة خصبة من تاريخ الإسلام (٥٤٠ : ٦١٨ هجرية) وطاف بديار المسلمين شرقاً وغرباً ، مما يعنى أنه عاصر من لا حصر لهم من أعلام الرجال فى كل الفنون والمعارف .. علوم الدين واللغة والتصوف والطب والفلك والمنطق والفلسفة ، وغيرها .

ولا شك فى أن الشيخ نجم الدين قد عرف فى تطوافه العديد من هؤلاء الأعلام ، فاستفاد منهم بشكل مباشر أو غير مباشر ؛ فلما ارتقى هو فى سلم الولاية

(١) محمد على السنوسى : السلسيل المعين فى الطرائق الأربعين (مخطوطة مكتبة بلدية الإسكندرية رقم

٣٨٠٣ / ح تصوف) ورقة ٣٥ ب .

(٢) ابن العماد : شذرات الذهب ٧٦/٥ .

واستكمل علومه الدينية ، صار مفيداً لأهل زمانه الذين قصدوه لينهلوا من علمه ويتبركوا بلفائه .. إذ كان : « شيخ تلك الناحية - خوارزم - وكان صاحب حديث وسنة ، ملجأ للغرباء ، عظيم الجاه »^(١) ..

وكانت لنجم الدين لقاءات ووقائع مع بعض معاصريه ، أمثال الحافظ عبد العزيز بن الحسين بن هلاله (توفي ٦١٧ هجرية)^(٢) وهو من كبار علماء الحديث في عصره ؛ يقول ابن هلاله : جلسْتُ عند الشيخ نجم الدين في الخلوة مراراً ، وشاهدتُ أموراً عجيبة ، وسمعتُ مَنْ يخاطبني بأشياء حسنة^(٣) ..

أما أشهر معاصري الشيخ نجم الدين ، وصاحب الواقعة المشهورة معه ؛ فهو الإمام فخر الدين الرازي .

الرازي :

هو الإمام فخر الدين أبو عبد الله محمد بن عمر الرازي ، الملقب بابن خطيب الري ، وُلد سنة ٥٤٢ هـ وتوفي سنة ٦٠٦ هجرية ؛ وقد ترك الرازي أكثر من مائة كتاب في شتى المعارف ، أشهرها تفسيره الكبير « مفاتيح الغيب » الذي فُسِّر فيه الفاتحة وحدها في مجلد ضخيم .. وقد بلغ الرازي درجة جعلت البعض يعتبره مجدد الإسلام في المائة السادسة^(٤) ، وكان يأمر الملوك فيأتمرون ويعتفهم فيقبلون منه ذلك ، ويطلب منهم المجيء إلى حلقة درسه فيمثلون^(٥) .

(١) سير أعلام النبلاء ١١٢/٢٢ - طبقات الشافعية الكبرى ١١/٥ - الوافي بالوفيات ٢٦٣/٧ - شذرات الذهب ٨٠/٥ .

(٢) أس العباد : شذرات الذهب ٧٨/٥

(٣) وردت هذه لغارة في معظم المصادر الخاصة بنجم الدين . ويعلق الذهبي عليها بقوله : لا وجود لمن حاضرت في خلوتك مع حوعلك المعرط ، بل هو سماع كلام في الدماغ الذي قد طاش وفاش ونقى قرعه كناية للمعصية والمعصية بالخمس والنجون ، فاحزم بهذا واعبد الله بالسنة الثالثة تفلح ! (سير أعلام النبلاء ١١٢/٢٢) وهذه التفسير العسلى للأحوال الصوفية سوف يكون من أشهر وجوه النقد للمتصوفة حتى يوم .

(٤) استناداً لحديث : بعث الله هذه الأمة في كل مائة سنة من يحد لها دينها .

(٥) طبر ترحمة الرازي في : روضات الحسان ١٩٠/٤ - الوافي بالوفيات ٢٤٨/٤ - نزهة =

وفي أواخر القرن السادس الهجري ، كان الشيخ نجم الدين قد عاد إلى بلاده ، واستوطن خوارزم ملقياً عصا الترحال زهّداً في الدنيا مريباً للمريدين . وفي تلك الفترة ، زار فخر الدين الرازي خوارزم وهو في أبهة لا مثيل لها ؛ يقول الخوانساري : « ومن جملة ما يشهد بثروته العظيمة ، ما نقله المحدث النيسابوري عن بعض كتب المعتزلة ، أنه لما توجه فخر الدين الرازي من مملكة خوارزم إلى خطة خراسان ، كان له ألف بغل ؛ ولا حصر لما كان عنده من الذهب والفضة ، ولما وصلت مقدمة حاشيته إلى خراسان ، كانت ساقيتها في خوارزم »^(١) ..

وفي رحلة الرازي الخوارزمية هذه ، التقى فخر الدين الرازي بالشيخ نجم الدين الكبرى .. يقول طاشكبرى زاده :

« سمعت رجلاً ثقة عالماً عابداً زاهداً عارفاً صادقاً ، أنه حكى أن الإمام (الرازي) لما دخل هُراة^(٢) أتاه من بها من العلماء والصلحاء والسلطين والأمراء . وسأل يوماً : هل بقي أحد تخلف عن زيارتنا ؟ فقال أصحابه : نعم ، بقي رجل صالح منقطع في زاوية . قال الإمام : أنا رجل واجب التعظيم ، وأنا إمام المسلمين ، فلم لم يزرني ؟ فقالوا لذلك الرجل كلام الإمام ، فما تكلم بشيء أصلاً . ووقع الخلاف بينهما ؛ فصنع أهل البلدة طعاماً ،

= الأرواح للشهررورى ص ٣٩٢ - الكامل في التاريخ ١٢/١٢٠ - مرآة الزمان ٨/٥٤٢ - عقود الحمان لابن الشعار (مخطوط) ذيل الروضتين ص ٦٨ - عيون الأنبياء ص ٤٦٢ - وفيات الأعيان ٤/٢٤٨ - تاريخ الإسلام ١٨/١٣٣٢ - سير أعلام النبلاء ٢١/٥٠٠ - طبقات الشافعية الكبرى ٥/٣٣ - البداية والنهاية ١٣/٥٥ - لسان الميزان ٤/٤٢٦ - النجوم الزاهرة ٦/١٩٧ - شذرات الذهب ٥/٢١ .. وهناك العديد من الدراسات المعاصرة حول الرازي ، منها : الرازي مفسراً للدكتور محسن عبد الحميد - فلاسفة الإسلام (ابن سينا ، الغزالي ، الرازي) للدكتور فتح الله حليف .

(١) الخوانساري : روضات الجنات ٨/٤٢ .

(٢) هراة بلدة في خراسان .

فدعوهما ، فأجابا الدعوة . واجتمعا في حديقة ، فسأله الإمام عن سبب تخلفه عن إتيانه فقال : أنا رجل فقير لا شرف في زيارتي ، ولا نقص في تخلفي عنها . قال الإمام : هذا هو جواب أهل الأدب (يعني الصوفية) فقل لي حقيقة الحال . فقال ذلك الرجل : لأى شيء وجبت زيارتك ؟ قال : أنا إمام المسلمين ، وواجب التعظيم . قال : إن افتخارك هو بالعلم ، ورأس العلم معرفة الله تعالى ، فكيف عرفته تعالى ؟ قال : بمائة برهان . قال الرجل : البرهان لإزالة الشك ، والله تعالى جعل في قلبي نوراً لا يدخل معه الشك ، فضلاً عن الحاجة إلى البرهان .

فأثر هذا الكلام في قلب الإمام ، فتاب في ذلك المجلس على يديه ، ودخل الخلوة ، وفتح له ما فتح ، وبعدما خرج عنها صنف التفسير الكبير .. وقال الناقل لهذه الحكاية : وكان ذلك الشيخ ، أبو الجناح نجم الدين الكبرى ، قدس الله سره^(١) .

وقد روى الذهبى قصة هذا اللقاء ، فقال :

وقد ذهب إليه فخر الدين الرازى صاحب التصانيف ، وناظر بين يديه فقيهاً في معرفة الله تعالى وتوحيده ، فأطالا الجدل . ثم سألا الشيخ نجم الدين عن علم المعرفة ، فقال : واردات ترد على النفوس ، تعجز النفوس عن ردّها . فسأله الإمام الرازى : كيف الوصول إلى إدراك ذلك ؟ قال : بترك ما أنت فيه من الرياسة

(١) طاشكبرى رادة : متاع السعادة ومصباح السيادة (حيدر آباد ١٣٢٩ هـ) ٤٥٠/١ .

والحظوظ .. فقال الرازي : هذا ما أقدر عليه .
وانصرف . وأما رفيقه فإنه تزهد وتجرد وصحب
الشيخ^(١) .

وقصة اللقاء كما يرويها طاشكبرى زاده أكثر حرارة ومراعاةً لحسن الخاتمة ،
لكن رواية الذهبي أكثر معقولة وقبولاً . وربما كان الجزء الأخير فقط في رواية
طاشكبرى زاده هو المصنوع ، أما الحوار الوارد في الجزء الأول فهو يتلاءم ويتوافق
مع ما رواه الذهبي .. ومن وجوه الضعف في رواية طاشكبرى زاده ، قوله إن
اللقاء كان ببلدة (هُراة) والراجح - لأسباب عديدة - أنه كان بإحدى بلاد
خوارزم ، كما أن دخول الرازي للخلوة أمر مستبعد ، وتأليفه « مفاتيح الغيب »
بعد خروجه أمر أبعد ، لأن تفسير الرازي ملئ بروح التحدي^(٢) التي تجافى روح
المتصوفة ، وتفسيره أبعد ما يكون عن التفاسير الصوفية . ومع ذلك ، فرواية
طاشكبرى زاده أهون مما رواه الشعراني عن لقاء الرجلين !

لقد أجمع المؤرخون على أن الرازي التقى بالشيخ نجم الدين ، لكن اللقاء لم
يسفر عن توبة الرازي ودخوله طريق الصوفية . بل على العكس ، ثار خلاف
شديد ، انتهى بفاجعة ، بين الرازي وتلميذ نجم الدين : مجد الدين البغدادى .

(١) الذهبي : سير أعلام النبلاء ١١٢/٢٢ .. وأيضاً : طبقات الشافعية ١١/٥ ، الوافي ٢٦٣/٧ .

(٢) انظر ؛ فلاسفة الإسلام للدكتور فتح الله خليف (دار الجامعات المصرية ١٩٧٩) ص ٣٢٩ .

الفصل الثالث

تلاميذه وطريقته

صانع الأولياء :

مرّ علينا - في الفصل الأول - أن الشيخ نجم الدين عُرف بلقب : صانع الأولياء (ول تراش) لكثرة من تخرجوا على يديه من أهل الولاية . لكن بعض المؤرخين يتوسّع في هذا الباب ، فنجد إشارة جرافية مثل « وقد تخرج على يديه معظم الأولياء » وهي مسألة ينبغي أخذها بشيء من الحذر ! صحيح أن الشيخ نجم الدين كان أوحده وقته علماً وحالاً ، فلا نجد في زمنه من يدانيه في الجانب الشرق من العالم الإسلامي .. ومع ذلك ، فالجانب الغربى الممتد من بغداد حتى المغرب الأقصى ، كان يزخر بالولاية والأولياء آنذاك ؛ ولذا ينبغي وضع تلك الإشارة الجغرافية في سياقها التاريخي والجغرافي .

ومما يستوقف النظر ، أيضاً ، في هذا الباب . أن بعض المؤرخين يضع العديد من مشاهير رجال التصوف ضمن دائرة مريدى الشيخ ؛ فمن ذلك ما نراه عند الخوانسارى الذى يذكر ضمن مريدى نجم الدين : فريد الدين العطار ، جلال الدين الرومى ، شهاب الدين السهروردى^(١) .

وفيما يخص العطار ، اعتمد الخوانسارى - وغيره - على فقرة من كتاب « مظهر الصفات » وفيها يقول العطار : ذهبت مع والدى في أيام الطفولية إلى الشيخ نجم الدين الكبرى ، فلقننى أولاً أسماء الأئمة ، ثم الذكر .. إلخ^(٢) وهى عبارة سجّلنا عليها بعض الملاحظات عند الكلام عن مذهب الشيخ نجم الدين ، ونضيف إليها ما يلى :

(١) الخوانسارى : روضات الجنات ٢٩٧/١ .

(٢) المرجع السابق ٦٥/٨ .

أولاً : ولد فريد الدين العطار ما بين عامي ٥٤٥ ، ٥٥٠ هجرية . وقد رجع نجم الدين كبرى إلى خوارزم وتولى تسليك المريدين بعد سنة ٥٨٠ هجرية ، مما يعنى أن العطار كان قد شَبَّ عن أيام الطفولية المشار إليها .

ثانياً : إن كتاب « مظهر الصفات » ويسمى أيضاً « مظهر العجائب » هو كتابٌ مدسوسٌ على العطار ، وقد قطع الدارسون بعدم نسبته إليه^(١) .

وهكذا يتضح فساد الرأي القائل بتلمذة العطار للشيخ نجم الدين ، وإن كان ذلك لا يعنى أن العطار لم يسمع بنجم الدين ، فالثابت أنه عرفه وأشار إليه في بعض أبياته (توفي العطار سنة ٦٢٧ هجرية) وهى إشارة استخدم فيها العطار الفعل الماضى ، مما يفيد بأن الأبيات قيلت بعد وفات نجم الدين بعدة سنوات^(٢) .

وبخصوص مولانا جلال الدين الرومى (صاحب المثنوى) فقد ولد هذا الشاعر العظيم سنة ٦٠٤ هجرية ، وتوفى ٦٧٢ هجرية .. ولم يدخل الرومى طريق الصوفية إلا سنة ٦٤٢ هجرية - بعد وفاة نجم الدين بزمان طويل - وذلك بعد لقاء الرومى بالشيخ شمس الدين التبريزى الذى أخرجه من عالم الفقه إلى عالم التصوف^(٣) .

والخلط الذى وقع فيه الخوانسارى ، راجع إلى أن « بهاء الدين ولد » الذى هو « والد » جلال الدين الرومى ، كان من تلاميذ الشيخ نجم الدين .. ومن هنا انتسب جلال الدين للكبروية ، لكنه لم يكن من تلاميذ نجم الدين أو مريديه المباشرين كما ذكر الخوانسارى .

أما الخلط الأشد الذى وقع فيه الخوانسارى ، فهو قوله بأن شهاب الدين

(١) انظر الدراسة التى قام بها الدكتور بديع جمعة فى مقدمة ترجمته لمنطق الطير لفريد الدين العطار (دار الأندلس - بيروت ١٩٨٤) ص ٢٦ .

(٢) المرجع السابق ص ٤٢ .

(٣) راجع قصة هذا اللقاء العارم بين الرومى والتبريزى ، فى مقدمة الترجمة التى قام بها الدكتور محمد عبد السلام كفافى لديوان : المثنوى (المكتبة العصرية - بيروت) ٤/١ وما بعدها .

السهروردي (المقتول سنة ٥٨٧ هجرية) كان من مريدي نجم الدين ! وهو قول لا تؤيده أية شواهد في ترجمات السهروردي الكثيرة ، بما فيها أشهر ترجمة له ، أعنى تلك التي وضعها تلميذه شمس الدين الشهرزوري^(١) .. ولقد ترك السهروردي بلاد فارس وجاء إلى الشام - وقُتل بها - في الوقت الذي ارتحل فيه الشيخ نجم الدين إلى خوارزم - وأقام بها - فلم يلتقيا . بل وروى عن شهاب الدين السهروردي عبارة مشهورة قبل وفاته ببضعة أعوام ، يقول فيها « هو ذا سنى قد بلغ إلى قرب ثلاثين سنة ، وأكثر عمري في الأسفار والاستخبار والتفحص عن مشارك مطَّلَع على العلوم ، ولم أجد من عنده خبرٌ عن العلوم الشريفة ، ولا مَنْ يؤمن بها » وهى عبارة أوردها معظم الذين ترجموا للسهروردي ، وهى تفيد بأنه لم يلتق بشيخ أقنعه ! فكيف يتفق ذلك مع الزعم بأنه كان مريدًا لنجم الدين ؟

والآن .. لنترك تلك المناقشة ، ونحدث عن أولئك (الأولياء) الذين تتلمذوا بالفعل على الشيخ نجم الدين ، وسلكوا الطريق على يديه . ولنقتصر - لكثرتهم - على المشاهير منهم .

البَاخَرَزِي :

هو ، كما يقول الذهبي^(٢) : الإمام القدوة ، شيخ خراسان ، سيف الدين أبو المعالى سعيد بن المُطَهَّر بن سعيد بن على القائدى الباخري نزيل بُخارى ، كان إمامًا محدِّثًا ورعًا .. صحب الشيخ نجم الدين الكبرى ، وروى عنه الحديث ولبس منه الخرقة^(٣) .

والباخري نسبةً إلى « بَاخَرَز » وهى بلدة من نواحي نيسابور ، يقول ياقوت : أصلها « باه هرزه » لأنها مهب الريح ، باللغة البهلوية ، خرج منها جماعة

(١) الشهرزورى : تاريخ الحكماء = نزهة الأرواح وروضة الأفراح ، تحقيق د. عبد الكريم أبو شويرب (جمعية الدعوة الإسلامية العالمية - ليبيا ١٩٨٨) ص ٣٧٥ وما بعدها .

(٢) الذهبي : سير أعلام النبلاء ٣٦٣/٢٣ .

كثيرة من أهل الأدب والفكر والشعر^(١) .. وقد توفي الباخرزى سنة ٦٥٩ هجرية ، وفقاً لما ذكره الصفدى^(٢) والذهبي^(٣) وابن العماد^(٤) . أما بروكلمان ، فقد شَطَّ بعيداً حين ذكر أن وفاته كانت سنة ٦٩٤ هجرية^(٥) ، دون ذكر للمصدر الذى اعتمد عليه فى تحديد هذا التاريخ البعيد عن الصواب !

وقد أطلال الذهبي - على غير عادته - فى ترجمة سيف الدين الباخرزى ، فكان مما قاله : « وُلِدَ بياخرز ، وهى ولاية بين نيسابور وهُراة ، وصحب نجم الكبرى ، وبهاء الدين السلامي ، وتاج الدين محمود الأشنى ، وسعد الدين الصرام الهروى .. وحجَّ فى صباه ، ثم دخل بغداد وقرأ على السهروردي - يقصد أبا النجيب - ثم قدم خوارزم . ولما خَرَّبَ التتار بخارى ، أمر نجم الدين الكبرى أصحابه بالخروج من خوارزم . وقال للباخرزى : « اذهب إلى ما وراء النهر » وفى تلك الأيام هرب خوارزمشاه ، فقدم سيف الدين الباخرزى إلى بخارى وقد احترقت ، وما بها موضع ينزل به ، فتكلم بها ، وتجمع الناس إليه »^(٦) .

وهكذا كان الباخرزى لإحدى النوى التى بذرها الشيخ نجم الدين فى الأرض الخراب التى مَرَّ عليها التتار ، انتظاراً للزمن الذى تعود فيه الحياة لسابق عهدها .. وهو ما كان بالفعل .

ويحكى الذهبي : ولما جاء محمود يلواح إلى بخارى ، أخذ يعدُّ الناس ويأخذ من الرأس ديناراً ، والعشر من التجارة ؛ فدخل على سيف الدين فرأى وجهه يشرق كالقمر ، وكان الشيخ جميلاً بحيث إن نجم الدين الكبرى أمره لما أتاه أن

(١) ياقوت الحموى : معجم البلدان ٣١٦/١ .

(٢) الصفدى : الرواى بالوفيات ٢٦٢/١٥ .

(٣) الذهبي : سير أعلام النبلاء ٣٦٨/٢٣ .

(٤) ابن العماد : شذرات الذهب ٢٩٨/٥ .

(٥) Brockelmann : Cesch. I, p. 810.

(٦) سير أعلام النبلاء ٣٦٤/٢٣ - والنص نقله الذهبي عن ابن الفوطى الذى يقول « قرأت فى سيرة الباخرزى لشيخنا مناهج الدين النسفى .. » مما يعنى أن هناك ترجمات مفردة للباخرزى ، وذلك يشهد بمكانته المميزة .

يتنقّب لئلا يفتتن به الناس ! فأحبّ يلواج الشيخ ، ووضع بين يديه ألف دينار ، فما التفت إليها .. وكان بايقوا (قائد مغولي) ظالمًا غاشمًا سفاكًا ، قتل أهل ترمذ حتى الدواب والطيور والتحق به كل مفسد ، فشغبه على الباخريزي ، فطلبه إلى سمرقند مقيّدًا ؛ فقال الباخريزي « إني سأرى بعد هذا الدّلّ عزّا » فلما قرب من سمرقند مات بايقوا ، فأطلقوا الشيخ وأسلم على يديه جماعة (من التتار) وعُرف الشيخ بين التتار بألغ شيخ ، يعنى الشيخ الكبير ، وبذلك كان يعرفه هولاكو . وقد بعث بركة بن توشى بن جنكز خان إليه رسولاً ليأخذ له العهد بالإسلام (وسوف يساعد بركة هذا المسلمين ضد هولاكو ابن عمه) وكان لبركة أخ أصغر منه اسمه « باتوا » وكان مع كفره يحبّ الشيخ ، فلما عرف أن أخاه بركة قد صار مريدًا للشيخ ، فرح واستأذنه في زيارة الشيخ ، فأذن له ، فسار من بلغار إلى حَند ثم إلى أترار ، ثم أتى بُخارى ، فجاء بعد العشاء في الثلوج فما استأذن إلى بُكرة . يقول الذهبى : فحكى لى مَنْ لا يُشك في قوله أن بركة خان قام تلك الليلة على الباب حتى أصبح ، وكان يصلى في أثناء ذلك ، ثم دخل فقبّل رجل الشيخ ، وصلى تحية البقعة ؛ فأعجب الشيخ ذلك .. وأسلم جماعة من أمراء بركة خان (المغوليين) وأخذ الشيخ عليهم العهد ، وكتب له الأوراد والدعوات ، وأمره بالرجوع ، وكان عنده ستون زوجة فأمره باتخاذ أربع وفراق الباقيات ففعل ، ورجع وأظهر شعار ملة الإسلام ، وأسلم معه جماعة (من التتار) وأخذوا في تعلّم الفرض ، وارتحل إليه الأئمة .. ثم كانت بينه وبين ابن عمه هولاكو حروب ، ومات بركة خان في ربيع الآخر سنة خمس وستين - وستائة - وكانت خيراته متواصلة إلى أكثر العلماء^(١) .

وهكذا هدى الله ، بلطفه الخفى ، حكام المغول (التتار) إلى الإسلام ، على يد الباخريزي تلميذ نجم الدين الكبري ، الذى ضرب أستاذة أروع الأمثلة في التضحية بالنفس وهو يجاهد في سبيل الله بالرمح والحجر - وكان الجد الأول لأطفال الحجارة في الانتفاضة الفلسطينية المعاصرة - ولقد استفزّ إسلام بركة خان حفيظة

(١) الذهبى : سير أعلام النبلاء ٣٦٦/٢٣ .

هولاكو ، وحينما حاول هولاكو أن يفرض سلطانه على الجانب الشمالى لجبال القوقاز ، أنزل « نوغاى » حفيد أخى بركة ، الهزيمة الساحقة بجيوش هولاكو^(١) .. وقد حدث التقارب بين بيبرس - بطل عين جالوت - وبين بركة خان ؛ يقول المؤرخون المعاصرون : والمعروف أن بركة كان يميل إلى نصرة المسلمين ، بل إنه وجه اللوم إلى هولاكو لما أقدم عليه من نهب المدن الإسلامية وتخريبها ، ومن اغتيال الخليفة ببغداد ، ودعا الله أن يعينه على الانتقام لهذه الدماء البريئة^(٢) .

ونعود لسيرة الباخرزى ، حيث يقصُّ علينا الذهبى : وكان الخليفة المستعصم يهدى من بغداد إلى الباخرزى التحف ، من ذلك مُصحف بخط الإمام على رضى الله عنه . وكان مظفر الدين حاكم شيراز يهدى إلى الشيخ فى السنة ألف دينار ، وأهدت له « ملكة » بنت « أذربك » حاكم أذربيجان سِنَّ النبى ﷺ الذى كُسر يوم أحد ، وكان « منكوقان » الحاكم المغولى يبعث إليه بأموال كثيرة ، وكذلك وزيره محمود يلواج الذى كان إذا جاء إلى الباخرزى يقبل العتبة ويقف حتى يأذن الشيخ له بالدخول ، ويقول : إن أبى فعل ذلك ، وإن للشيخ الباخرزى هيبة فى قلوب ملوكنا (المغول) حتى لو أمرهم بقتلى لما توقفوا .. وكان الباخرزى يمنع التتار من قصد العراق ، ويفخم لهم أمر الخليفة . ومات الشيخ سيف الدين الباخرزى فى العشرين من ذى القعدة ، سنة ٦٥٩ هجرية ، فأعتق له أربعمائة مملوك ، وأوصى أن يكفن فى خرقة شيخه نجم الدين الكبرى^(٣) .

وأشهر مؤلفات الباخرزى الصوفية ، وربما مؤلفه الوحيد ، هو كتاب « وقائع الخلوة » الذى ذكر فيه ما كان يعاينه فى الخلوات التى أدخله إليها شيخه نجم الدين .. والكتاب مخطوط ، توجد منه نسخة خطية بمكتبة ليدن برقم ٢٢٥٢ ، ونسخة أخرى فى بانكيبور برقم ١/٥٦^(٤) .

(١) العرينى : المغول ص ٢٥٦ .

(٢) المرجع السابق ص ٢٧٧ .

(٣) الذهبى : سير أعلام النبلاء ٣٦٨/٢٣ .

(٤) Brockelmann : Gesch. I, p. 810 .

مجد الدين البغدادي :

هو الشيخ مجد الدين شرف بن مؤيد بن ألى الفتح البغدادي . يقول علاء الدولة السمناني : اتفقت ولادة الشيخ مجد الدين في الحادي والعشرين من جمادى الأولى سنة ٥٥٦ (هجريّة) واستشهد بخوارزم ليلة الاثنين التاسع والعشرين من جمادى الآخرة سنة ست عشرة وستائة ، رضى الله عنه^(١) .. ويقول عبد الرحمن جامي : كان تلميذاً للشيخ نجم الدين فضل يأخذ عنه إلى أن دخل في روعه أنه قد تفوّق على شيخه ، فقال « كنا بيضاً على ساحل البحر ، فضمّنا الشيخ نجم الدين تحت جناحيه ، وما زال يحمينا حتى أفرخنا ، فلما صرنا بطيطات قفزنا إلى البحر ، وبقي الشيخ على الشاطئ ! » فدعى عليه الشيخ نجم الدين أن يموت غرقاً في البحر الذي قفز إليه ، وقد كان ، فإن ملك خوارزم سَكَّر ، فأمر بإغراقه^(٢) .. فألقى به في نهر جيحون^(٣) .

ويلقى لنا الخوانساري بعض الضوء على واقعة موت مجد الدين البغدادي ، فيذكر أثناء ترجمته لفخر الدين الرازي ؛ ما نصه : « وكانت بين الرازي وبين الشيخ مجد الدين البغدادي الواعظ المشتهر في ذلك الزمان مشاحنات شديدة ومباعدات مديدة ، بحيث انجر الأمر بينهما إلى أن صدر أمر السلطان بإغراق ذلك الرجل في الماء ، بعد أن سعى بعض تلامذة الإمام فخر الدين الرازي عنده في ذلك^(٤) .. ويرى الدكتور/ فتح الله خليف في دراسته عن الرازي ، أن الإمام فخر الدين كان فيه من غلظ القلب ما جعله يطلب من خوارزمشاه أن يعتقل أخاه ركن الدين الرازي - وكان كثير الغيرة والحسد والتشنيع على فخر الدين - فاعتقله السلطان في إحدى القلاع إلى أن مات في معتقله ! ويعقب الدكتور خليف على ذلك بقوله : ولا شك أن سلوك فخر الدين الرازي تجاه أخيه يدل على غلظ في القلب

(١) السمناني : فضل الطريق ص ١٠١ (نقلاً عن Fritz Meier : Die Fawah. P 40)

(٢) د. الحفنى : الموسوعة الصوفية ص ٣٣٨ .

(٣) د. قاسم غنى : تاريخ التصوف ص ٧٥٧ - وقد نقل الحفنى وقاسم غنى عن (نفحات الأنس) لعبد الرحمن جامي .

(٤) الخوانساري : روضات الجنات ٥٧/٨

وجحد لروابط الدم والأسرة ، فإن كان الرازي قد لجأ إلى السلطان في تنحية شقيقه عن طريقه على هذا النحو ، فنحن لا نستبعد تأمر الرازي وسعيه لدى السلطان لقتل الشيخ مجد الدين البغدادي^(١) .

ونعتقد من جانبنا أن الخلاف بين الرازي ومجد الدين البغدادي لم يكن هو السبب المباشر والوحيد لتلك النهاية المحزنة التي لقيها مجد الدين ، فإن كنا لا ننكر الخلاف بين الرجلين ، ولا نستبعد تأمر الرازي عند السلطان لقتله .. إلا أن الرازي توفي سنة ٦٠٦ هجرية أي قبل مقتل نجم الدين بعشرة أعوام كاملة ، ولا نظن أن تأثير « تلامذة الرازي » كان من القوة بحيث ينصاع له السلطان . ومن هنا نرى أن السبب الأقرب هو أن مجد الدين البغدادي - وكان واعظًا - لم يكن على وفاق مع السلطان خوارزمشاه ، ذلك الحاكم الأحق الذي أرسل جيشًا للاستيلاء على بغداد ففشل ، وقتل القافلة التي أرسلها هولاء للتجارة^(٢) فنجح في إشعال فتنة التتار . فالراجع أن مجد الدين البغدادي كان معارضًا لتلك السياسة الهوجاء التي ينتهجها خوارزمشاه ، فلما جهر بمعارضته على منبر الوعظ ، أوغل صدر السلطان ضده فأمر بإغراقه في لحظة سُكر ، أو لحظة استماع لوشايات تلامذة الرازي .

ويرى المؤرخون أن مقتل مجد الدين البغدادي على هذا النحو كان من أسباب الهزائم المتلاحقة التي لقيها خوارزمشاه على يد التتار ، وفشله في مدّ سلطانه إلى عاصمة الخلافة وخلع الخليفة الناصر .. يقول الدكتور العريني : « على أن الانقسام في أسرة السلطان خوارزمشاه ، كان مصدره ما ساد من أحقاد وعداوات مريرة بين أفراد الأسرة ، وكان خوارزمشاه يحرص على أن يستجيب لرغبات أمه .. يضاف لذلك أن ما أقدم عليه السلطان خوارزمشاه من قتل مجد الدين البغدادي ، من كبار المتصوفة وقتذاك ، أغضب رجال الدين الذين كان في أشد الحاجة لمساندتهم^(٣) » .

(١) د. فتح الله خليف : فلاسفة الإسلام ص ٢٨٣ .

(٢) كان أفراد هذه القافلة ، وعددهم ٥٠٠ رجل وثلاثة مبعوثون ، كلهم من المسلمين ؛ وهذا يعني أن الذي بدأ يقتل المسلمين كان خوارزمشاه وليس هولاء !

(٣) د. السيد الباز العريني : المغول ص ١١٦ .

وقد تألم الشيخ نجم الدين الكبرى للمصير الذى لقيه تلميذه مجد الدين البغدادى ، فدعا على خوارزمشاه .. ولما حاول الأخير أن يسترضيه ، قال له « ذلك مكتوب ولا مهرب منه ، ستموت وأموت معك ، ومعنا خلق كثير » وقد مرَّ علينا ما ذكره ابن الأثير فى كتابه (الكامل) من أن التتار قتلوا كل من كان بخوارزم ، حتى الأطفال والطيور والبهائم .

ولمجد الدين البغدادى مجموعة من المؤلفات الصوفية ، منها « رسالة سفر » و « رسالة السلوك » وتوجد منها اليوم نسخة مخطوطة ضمن المجموعة الخطية رقم ٥٩٨ بمجلس شورى ملهى بطهران^(١) . وأشهر أعماله كتاب « تحفة البررة فى المسائل العشرة » وقد ذكر له بروكلمان نسخة وحيدة فى طهران^(٢) ، واعتمد فريتز ماير على نسخة أخرى ببرلين تحت رقم ٣٠٨٨ ، ونقل منها عدة فقرات تدور كلها حول التربية الصوفية وبعلاقة الشيخ بالمريد وما يراه الصوفى من معانيات ورؤى فى خلوته^(٣) .

نجم الدين داية :

هو الشيخ نجم الدين عبد الله بن محمد بن شاهاور بن أنو شروان^(٤) ابن أبى النجيب الرازى الأسدى^(٥) .. المعروف بنجم الدين الرازى ، ونجم الدين داية ، والحافظ ابن شاهاور .. وأشهر ألقابه « داية » كان محدثاً ، صوفياً ، شاعراً . ولد سنة ٥٦٤ بخوارزم ، وتلقى التصوف على يد الشيخ نجم الدين الكبرى ، ثم ارتقى فى الولاية ، وارتحل إلى بغداد فتوفى بها سنة ٦٥٤ هجرية^(٦) .

(١) د. قاسم غنى : تاريخ التصوف ص ٧٥٧ .

(٢) Brockelmann : Gesch. Sup. I p. 785

(٣) Fritz Meier : Die Fawail p. 40

(٤) ابن العماد : شذرات الذهب ٢٦٥/٥ .

(٥) Brockelmann, p. 803

(٦) راجع ترجمته الوافية فى (نفحات الأنس) لجامى ، طبعة لكهنو ص ٣٨٥ : ٣٨٧ .

وترجع شهرة نجم الدين داية ومكانته ، إلى هذا العدد الكبير من المؤلفات التي تركها ، ولا تزال موجودة إلى اليوم . فمن تلك المؤلفات ما يلي :

١ - بحر الحقائق والمعاني في تفسير السبع المثاني :

وهو تفسير صوفي للقرآن ، على طريقة « لطائف الإشارات » للقشيري والتأويلات النجمية ، وإن كان الدكتور سيد عبد التواب يعتبره « أكبر وأكمل تفسير صوفي »^(١) وقد سار فيه الشيخ نجم الدين داية على قاعدة التأويل الصوفي التي أبان عنها بقوله : « فاعلم أن مقتضى الدين ، ألا يؤول المسلم شيئاً من الأعيان مما نطق به القرآن والأحاديث ، بالمعاني . وعليه أن يصورها كما جاءت وفسرها النبي عليه الصلاة والسلام والصحابة وعلماء السلف ، اللهم إلا أن يكون محققاً ، خصّه الله بكشف الحقائق والمعاني والأسرار وإشارات التنزيل وإشارات التأويل »^(٢) . وقد وضعه باللغة العربية .

٢ - مرصاد العباد من المبدأ إلى المعاد :

يعرفنا الدكتور قاسم غنى بهذا الكتاب ، فيقول : « هو أحد كتب الصوفية المحببة باللغة الفارسية التي بالإضافة إلى إحاطة مؤلفها بمسائل الصوفية وتطبيق التصوف على الآيات والأحاديث والتأويلات العرفانية ، نراه قد استعمل حسن الذوق في كتابته الفارسية . وقد انتهى المؤلف على حد قوله ، من تأليف كتاب مرصاد العباد ، سنة ٦٢٠ في مدينة سيواس ، ويشتمل على خمسة أبواب وأربعين فصلاً . طُبع منه ملخص في طهران ، يسمى « منتخب مرصاد العباد » سنة ١٣٠١ هجرية ، والنسخة الكاملة منه طُبعت سنة ١٢٥٢ هجرية المطابقة لسنة ١٣١٢ شمسية^(٣) ، بسعى واهتمام المرحوم السيد حسين شمس العرفاء ، في طهران^(٤) » .

(١) د. سيد عبد التواب عبد الهادي : الرمزية الصوفية في القرآن الكريم (دار المعارف - سلسلة كتابك) ص ١٩ .

(٢) المرجع السابق ص ٧ - والكتاب في جملة ، بحث مختصر في حصائص تفسير نجم الدين الرازي ، مقارنة - في أحيان قليلة - بغيره من التفاسير الصوفية .

(٣) هو تقويم خاص : استحدثه الإيرانيون المعاصرون !

(٤) د. قاسم غنى : تاريخ التصوف ص ٧٦٠ .

٣ - منارات السائرين ومقامات الطائرين :

يقول حاجي خليفة: «هو للشيخ نجم الدين.. المعروف بداية - أوله الحمد لله المتوحد في ذاته... إلخ ، ذكر فيه أنه التمس منه بعض أصحابه تأليف كتاب في شرح مقامات العارفين شاملاً لكرامات السالكين جامعاً لمنازل السائرين . وإن كنت قد صنفْتُ قبل هذا هذا بنيف وثلاثين سنة كتاب مرصاد العباد ، ولكنه مؤلف بالعجمية ، وقد حرم من فوائده أهل العربية ، فأردتُ أن يكون هذا مؤلفاً بالعربية . وجعله على فاتحة وخاتمة ، ووضع للمقامات عشرة أبواب^(١) » .

وقد ذكر بروكلمان عدة مخطوطات لهذا الكتاب : مخطوطة مكتبة ليزرجم رقم ٢/١٩١ - مخطوطة ليدن رقم ٢٢٤٧ - مخطوطة الموصل رقم ٣٢/١٩٢^(٢) .. وقد عرفت مؤخراً ، أن الأستاذ/ سعيد عبد الفتاح أعد نشرة من الكتاب ودفع بها للمطبعة ، وأظنه اعتمد على مخطوطة منه بدار الكتب المصرية بالقاهرة .

٤ - رسالة العاشق والمعشوق :

وهي رسالة بالفارسية ، شرح فيها نجم الدين داية قول ألى الحسن الخرقانى « الصوفى غير مخلوق ! » وهى من عبارات الخرقانى المستشكلة التى تحتاج لتأويل^(٣) . ومن هذه الرسالة مخطوطة بالمكتبة الوطنية بباريس ، تحت رقم ٥/٧٦٠ بعنوان « رسالة العاشق والمعشوق » ومخطوطة أخرى بمكتبة جلال الله بتركيا ، تحت رقم ٢٠٦١ بعنوان « العاشق والمعشوق فى شرح قول الخرقانى : الصوفى غير مخلوق » على ما يذكر بروكلمان ، الذى انفرد بذكر هذه الرسالة^(٤) .

(١) حاجي خليفة : كشف الظنون ص ١٨٢٣ .

(٢) Brockelmann : Gesch. p. 804 = 2

(٣) راجع ما قلناه من الخرقانى عند الكلام من مشايخ نجم الدين كبرى .

(٤) Brock. p. 804 = 3

٥ - معيار الصدق في مصداق العشق :

وهي رسالة ، فيما يبدو ، مفقودة . فلا توجد لها نسخ خطية معروفة ، كان حاجي خليفة^(١) والبغدادى^(٢) قد أشارا إليها .. ومن المحتمل أن تلك الإشارات إلى رسالة « العاشق والمعشوق » ذاتها ، وجدها حاجي خليفة بهذا العنوان وتابعه البغدادى في ذلك .

٦ - رسالة العشق والعقل :

وهي رسالة مؤكدة النسبة للشيخ ، توجد منها نسخة خطية في طهران تحت رقم ٢/٥٩٨ - ذكرها بروكلمان^(٣) - وأشار إليها الدكتور قاسم غنى بقوله : في مجموعة خطية تشتمل على سبعة كتب ورسائل ، محفوظة تحت رقم ٥٩٨ في مكتبة مجلس الأمة (شوراي ملي) رسالة بالفارسية تنسب إلى نجم الدين الرازى (الداية) تسمى « رسالة في العشق والعقل » كتبها في جواب رجل طلب منه بيان كمال العشق وكمال العقل ، وتاريخ كتابة تلك الرسالة سنة ٧٠٤ (هجرية) واسم الكاتب « أبو الفتوح جلال الجمالى » أتم كتابتها في المدرسة العلائية ببلدة سبزوار^(٤) .

٧ - سراج القلوب :

انفرد بروكلمان بذكره ، اعتمادًا على مخطوطة وحيدة بمكتبة وين Wien برقم ٢٩/١٩٦٣^(٥) .

٨ - سلوك أرباب النعم :

ذكره كحالة^(٦) ، وأشار بروكلمان إلى نسخة خطية له في بانكيبور^(٧) .

(١) حاجي خليفة : كشف الظنون ص ١٧٤٤ .

(٢) البغدادى : هدية العارفين ص ٤٦١ .

(٣) Brock. p. 804 = 4

(٤) د. قاسم غنى : تاريخ التصوف ص ٧٦٠ هامش (١) .

(٥) Brock. p. 804 = 5

(٦) كحالة : معجم المؤلفين ١٢٢/٦ .

(٧) Brock. p. 804 = 6

٩ - كشف الحقائق وشرح الدقائق :

انفرد البغدادي بذكره^(١) . وقد ذكر حاجي خليفة كتاب يشابهه في العنوان هو « كشف الحقائق في حساب الدرج والدقائق » للشيخ شهاب الدين المجدى المتوفى ٨٥٠ هجرية ، وهى فى علم الفلك^(٢) ! وهناك كتاب بنفس العنوان لعزير النسفى .

١٠ - تحفة الحبيب :

ذكرها كحالة وبروكلمان^(٣) .

١١ - حسرة الملوك :

ذكره كحالة وبروكلمان :

١٢ - أشعار صوفية :

ألف الشيخ أكثر من مائة رباعية شعرية - بالفارسية - بعنوان « التمثل » وأوردها فى كتابه « مرصاد العباد » وقد ذكر الدكتور قاسم غنى منها :

الغاية من وجود الإنسان والجنان هى المرأة
وهدف القصص من العالمين هو المرأة
القلب مرآة جمال ملك الملوك
وهذان العالمان غلاف تلك المرأة !

(١) البغدادي : هدية العارفين ص ٤٦١ .

(٢) حاجي خليفة : كشف الظنون ص ١٤٨٦ .

(٣) معجم المؤلفين ١٢٢/٦ - ٨ = Brock. p. 804 : وقد ذكر حاجي خليفة عدة كتب بهذا العنوان ، وهى : تحفة الحبيب الملحوظ لعلمى الميزان والعروض لشيخ الدين بن الإمام ، تحفة الحبيب فيما يبهجه من رياض الشهود والتقريب لابن عطية ، تحفة الحبيب مجموعة من الأشعار الفارسية جمعها الفخرى الفارسي المتوفى ٩٣٥ هجرية من دواوين الأكابر (كشف الظنون ص ٣٦٥) .

ومنها :

كل من كان قلبه مملوءًا بالنار من العشق
تكون كل قصة يحكيها جذابة
إنك قليل ما تسمع قصة العاشقين
فاسمع واسمع فإن كل قصصهم لطيفة

ومنها :

إن العشق باقة شجيرة الشباب
والعشق رأس مال الحياة الخالدة
وإذا أردت ماء الحياة ، كالخضر
فإن ينبوع ماء الحياة هو العشق^(١)
والروح المتجلية في تلك الرباعيات ، تشهد بأن نجم الدين داية كان بالفعل
خليفة ومتابعًا لنجم الدين الكبرى ، الذي كان بدوره خليفة ومتابعًا لآثار العشاق
الملتهمين من أمثال روزبهان وابن أبي عصرون .

على لالا :

وهو واحد من تلامذة نجم الدين كبرى ومريديه المشار إليهم . لم يحظ بالكثير
من عناية المؤرخين ، اللهم إلا ما ذكره عبد الرحمن جامي في « نفحات الأنس »
وما ذكره علاء الدولة السمناني في « فضل الطريقة » حيث يقول :

« توفي رضى الدين على بن سعيد (ابن عبد الجليل الغزنوى) اللالا ، في
ثالث ربيع الأول سنة اثنتين وأربعين وستائة ، ودُفن بأسفرايين الكورفان وهى قرية
من قرى أسفرايين .. ولالا ، اسم سمّاه به الشيخ يوسف الهمداني ، إذ جعله
رقيب أصحابه . وأهل مرو يقولون للرقيب (لالا) وكان أبوه (سعيد) غزنويًا ،

(١) د. قاسم غنى : تاريخ التصوف ص ٨٤٧ .

خرج في طلب العلم ، ودُفن بجوين وله من العمر مائة وثلاثة وخمسون ! وتأهل (تزوج) بعد المائة ، وله أولاد كثيرة ، أصغرهم شيخ طريقتنا : على لالا ^(١) .

وللشيخ لالا ترجمة فارسية في تذكرة المشايخ ، للسمناني ، مما يعنى أنه كان همزة الوصل بين السمناني والشيخ نجم الدين الكبرى ، ولذا اعتبرت السمنانية أحد الطرق المتفرعة عن الطريقة الكبرى .. كما سرى بعد قليل .

سعد الدين الحموى :

هو تلميذ نجم الدين كبرى وخليفته في الطريقة من بعده : سعد الدين محمد ابن المؤيد بن عبد الله بن علي ، الحموى ، الصوفي ، الجويني ؛ يُعرف بسعد الدين الحموى ، وبابن حمويه .

ومع كثرة المصادر التي أرخت للشيخ سعد الدين ^(٢) ، إلا أن هناك اختلافًا بين المؤرخين في سنة مولده ووفاته . فيجعل بروكلمان مولده ما بين سنة ٥٨٧ هجرية ، وسنة ٥٩٥ ^(٣) .. والتاريخ الأول أكثر قبولاً لدينا ، والمستبعد هو التاريخ الآخر ؛ وإلا فكيف يكون مولده سنة ٥٩٥ متفقاً مع تلمذته لنجم الدين وخلافته للكبروية من بعده في سنّ الثالثة والعشرين ، إذ توفي شيخه - كما أسلفنا - سنة ٦١٨ هجرية .

والاختلاف الأشد بين المؤرخين ، حول تاريخ وفاة الشيخ سعد الدين .. فقد سجّله فصيح الخواقي في كتابه (مجمل فصيحى) سنة ٦٤٩ هجرية ^(٤) ، وجعله

(١) د. قاسم غنى : فضل الطريقة ص ١٠١ ، ١٠٢ (عن : Fritz Meier : Die Fawalh. 42) .

(٢) ترجم له الذهبي في العبر ، والياقنى في مرآة الجنان ، وجامى في نفحات الأنس ، وحمد الله المستوفى في تاريخه ، وابن العماد في شذرات الذهب ؛ وغير ذلك .

(٣) Brockmann : Gesh. p. 803.

(٤) أورد الدكتور قاسم غنى هذا الخبر ، اعتماداً على نسخة خطية من كتاب فصيح الخواقي ، ضمن مكتبة الحاج محمد آقا النخجوانى (انظر : تاريخ التصوف ص ٧٠٥ هامش (٣)) .

(م ٦ - فوائح الحمال وفواتح الجلال)

الذهبي وابن العماد سنة ٦٥٠ هجرية^(١) ، وهو في تاريخ حمد الله المستوفى سنة ٦٥٨^(٢) ، وعند بروكلمان : ما بين ٦٥٠ و ٦٥٨ هجرية^(٣) !

وكانت وفاة الشيخ في خراسان ؛ فهو بعد أن تلقى التصوف والخرقة من يد الشيخ نجم الدين بخوارزم ، ارتحل إلى الشرق وسكن سفح جبل قاسيون بدمشق ، ثم رجع إلى خراسان - موطنه - وظل فيها حتى وفاته .

وللشيخ سعد الدين مجموعة من المؤلفات الصوفية ، طُبِعَ منها بالقاهرة - سنة ١٣٢٨ هجرية - مجموعة رسائل^(٤) بعناية محمد كُرد علي ، وله أيضًا :

١ - محبوب القلب :

مخطوطة ببرلين تحت رقم ٤٠٨٤ ، وآيا صوفيا برقم ٨/٢٠٥٧ ، وجار الله برقم ١٠٧٨ ورقم ١٠٩٦ ، وبروسه تحت رقم ٧٧ .. ولم يطبع .

٢ - سَجَنَجَلُ الأرواح :

مخطوطة الفاتح رقم ٢٦٤٥ ، وجار الله ١٥٤١ ، ومشهد ١٠٧/٢٩ .. وهو - كما يبدو من عنوانه - باللغة الفارسية .

٣ - لطائف التوحيد في غرائب التفريد :

توجد منها مخطوطة وحيدة بمكتبة عاطف أفندي باستانبول ، برقم ٢٢٤١ .

٤ - رسالة المصباح :

مخطوطة بآيا صوفيا ، تحت رقم ٣٨٣٢^(٥) .

(١) ابن العماد : شذرات الذهب ٢٥٢/٥ .

(٢) انظر تاريخ التصوف لقاسم غني ص ٧٠٥ .

(٣) Brock. p. 803.

(٤) فيها رسالته الشهيرة : علوم الحقائق وحكم الدقائق .

(٥) Brock. p. 803.

وللشيخ سعد الدين الحموى مكانته الخاصة بين تلامذة نجم الدين كبرى ، باعتباره خليفته في مشيخة الطريقة التى ستعرف في عهده باسم الطريقة الكبرى الذهبية^(١) .. ويطلق على إسناد مشايخها اسم : سلسلة الذهب ! تمييزاً للفرع الذى كان سعد الدين الحموى شيخه ، عن بقية الطرق التى تفرعت فيها الطريقة الكبرى .

فروع الكبرى :

كان تلامذة الشيخ نجم الدين ، ممن ذكرناهم هنا - ومن لم نتوقف عندهم لكثرتهم^(٢) - هم الجيل الأول من طريقة الشيخ التى عُرفت بالكبروية . ثم تفرعت الكبرى مع الأيام إلى فروع عديدة ، صار لكل فرع منها شيخ ومريدون ، انتسبوا لنجم الدين كبرى بطرق متعددة . وأغلب هذه الطرق ، عاشت في القرون التالية ببلاد فارس ؛ وقد ذكرت المراجع من هذه الفروع :

* الكبرى الهمدانية : أسَّسها السيد على الهمداني المتوفى سنة ٧٨١ هجرية ، وهى خلاصة الكبرى في كشمير .

* الكبرى النورية : أسَّسها الشيخ نور الدين الإسفرايينى .

* الكبرى الركنية : نسبةً إلى ركن الدين علاء الدولة السمناني المتوفى ٧٤٥ هجرية .

(١) في مستدرك الدكتور كمال الشيبى ، يقول : ذكر الدكتور أحمد ناجى القيسى في كتابه « عطار نامه » بعدد ١٩٦٩ ص ٢٨١ ، أنه لم تكن الكبرى تسمى بالذهبية ؛ وقد وهم كامل مصمى الشيبى في ذلك ، والنورمحشية أيضاً لا تسمى بالذهبية حالاً لما أورده ا ويرد الدكتور الشيبى على ذلك بقوله : هذا الحكم احتجادهى محض لا يقوم على دليل متصل بعمق تاريخية ، والظاهر أن الخطأ المطبعى الذى وقع في تعابيد الموضع الذى استقيما منه هذا الخبر من « طرائق الحقائق » هو الذى شجَّع أستاذنا المذكور على رمينا بالوهم ، وإلا ما فعل ذلك ، لعلمه يقيناً بأن « طرائق الحقائق » من أوثق المراجع فيما يتصل بالطرق الصوفية الفارسية ، لقد كان هذا مه وهم الوهم (الصلة بين التصوف والتشيع ص ٥٥٨) والحقيقة أن تسميه الكبرى بالذهبية وارد في معظم المصادر التى أرحت للطرق الصوفية ، وليس « طرائق الحقائق » وحدها التى انفردت بذلك .

(٢) منهم : بابا كمال الدين الحنجندى ، جمال الدين كيل (الحيل) ، مهاد الدين ولد الرومى (والد مولانا جلال الدين صاحب المثنوى) .. وغيرهم .

★ الكبروية الجردوسية : وهى آخر الفروع الأربعة الأصلية التى تفرعت إليها الكبروية فى القرن الثامن الهجرى .

★ الذهبية الاغتشاشية : فرع كبروى من الكبروية ، أسَّسه الشيخ إسحق ختَلانى فى القرن التاسع الهجرى ، وهو يتصل بالسيد عبد الله المشهدى .

★ النوربخشسية : فرعٌ خراسانى أسَّسه الشيخ محمد نور بخش ، المتوفى ٨٦٩ هجرية .

★ العيدروسية : فرعٌ يمنى من الكبروية .

★ الفردوسية : فرع هندى من الكبروية^(١) .

وقد تميزت هذه الفروع بنفس الخصائص التى ظهرت فى تصوف شيخها الأول « نجم الدين الكبرى » فكلها - رغم اختلاف مشايخها المؤسسين - تهتم بإبراز الطابع الشرعى للتصوف ، وتؤكد الأصول الشرعية للحقائق الصوفية^(٢) .. وكلها تعنى بالرؤى والمنامات^(٣) .. وكلها تعوّل كثيراً على أهمية الخلوات والأذكار^(٤) .

(١) بخصوص فروع الكبروية ، يمكن الرجوع إلى : جامع الأصول ، السلسيل المعين (باللغة العربية) طرائق الحقائق ، ترياق المحين (بالفارسية) كما يمكن مراجعة المادة التى حررها « ماسينيون » بدائرة المعارف الإسلامية تحت عنوان : طريقة .

(٢) يظهر ذلك من مراجعة الصوص الصوفية التى كتبها تلاميذ نجم الدين كبرى .

(٣) فى إشارة دقيقة لمحمد بن على السنوسى ، يقول فى معرض حديثه عن الطريقة الخلوتية ، ما نصه : ولهذا الطائفة وللسادة الكبروية ، اعتناء بتفسير الرؤيا (السلسيل المعين ، ورقة ٢٠ ب) . وذلك ما تؤكده الإشارات الكثيرة للرؤى فى كتابات الشيخ نجم الدين ، ومن بينها فوائح الجمال .

الأذكار الكبرى :

في « فوائح الجمال » سوف نرى الاهتمام الكبير الذي يوليه نجم الدين الكبرى للذكر والأذكار^(١) ، وقد ورثت طريقته - بفروعها العديدة - هذا الاهتمام . وفي مخطوطته « السلسيل المعين في الطرائق الأربعين » يفرد السيد محمد ابن علي السنوسي ، فصلاً للكبروية ؛ يقول فيه :

وأما طريق السادة الكبرى ، فهم المنتسبون إلى الأستاذ نجم الدين كبرى رضى الله عنه ، وقد اشتهر جماعة من أهل سلسلته بالخرقة ، وهم الهمدانية والنورية والركنية والجردوسية . وطريقتهم في الذكر ، أن يجلس المريد متربّعاً ، متوجّهاً للقبلة ، واضعاً يده على ركبته ، مغمضاً عينيه ، ضامّاً شفتيه ، مطرقاً رأسه إلى السُرة .

ويبدأ المريد بلفظة (لا) ويمدها إلى فوق رأسه بالمد التام ، ويقيم رأسه قائلاً (إله) ويشير إلى جانب الثدي الأيمن . ثم يقيم رأسه بلفظ (إلا) ويمد (الله) مدّاً طويلاً ويشير برأسه إلى الجانب الأيسر مع حبس النفس وملاحظة المعنى .. هذا في الخلوة .

وأما في وقت الصحبة ، فيحتارون الجهر بالذكر . خصوصاً المبتدئ . واختار الهمدانيون الإسرار بالذكر مطلقاً ، إلا بعد فريضة الصبح . وأنهم يقرأون « الأوراد الفتحية » في الحلقة بالجهر ، وبعد العصر « الأوراد العصرية » وهما لشيخ هذه العصابة ، السيد علي الهمداني . وقد ذكر الإمام الجامي ، وغيره ، أن سيدنا علي الهمداني صحب ألفاً وأربعمائة ولى ، وأنه أخذ من كل واحد ذكراً وجد ذلك الشيخ ثمرة ، فجمعها ، ثم لما زار النبي ﷺ رآه ، وقد أعطاه شيئاً وقال له : تحذ هذه الأوراد الفتحية .

(١) سنرى في مؤلفات الشيخ ، رسالة بعنوان « فصل في فضل الذكر » .

وشيوخ الطائفة الركنية ، مولانا ركن الدين علاء الدولة السمناني . له في كيفية الذكر بالكلمة الطيبة (لا إله إلا الله) جلسة معينة وزيادة في الضروب ، وهو أن يجلس الذاكر متربعا .. وهذه الكيفية أخذها الشيخ يحيى السجستاني من حضرة المكاشفة من رسول الله ﷺ .

ولشيخ الخرقه النورية ، سيدنا نور الدين الاسفرائيني ، كيفية أخرى في الذكر . وهو أن يجلس .. ومن شأنهم أن لا يلقنوا المريد هذا الذكر إلا بعد صيام أربعة أيام ، ويغتسل في اليوم الرابع ، ثم يتلقنه . ومن شأنهم سكن الخناقات (الخناقوات = جمع : خانقاة) وهي شبيهة بالرحبة التي بناها عمر رضى الله عنه في ناحية المسجد ، وقال مَنْ كان يريد أن ينشد أو يلفظ شعراً أو يرجع صوته ، فليخرج إلى هذه الرحبة . رواه مالك في الموطأ^(١) .

* * *

ولا تزال الطريقة الكبروية ، بفروعها ، حية إلى اليوم ببلدان إيران ، خاصة أصفهان ومشهد . وقد أشار فريتز ماير إلى أن الطريقة اليوم خامدة ، لا يوجد بها ما يثير^(٢) .. بينما أخبرني الدكتور إبراهيم الدسوقي شتا - شفاهة - أن الكبروية اليوم تعد من أوسع الطرق انتشاراً في إيران ، وهي طريقة نشطة ! وأظن أن الكبروية المعاصرة تحتاج اليوم إلى دراسة متعمقة ، تكشف ما انتهى إليه الحال . ولا شك أن هذه الدراسة لا يستطيع القيام بها إلا باحث إيراني ، أما أمثالنا ، فالأمر مستحيل بالنسبة لهم .. بعد أن فرقت الحدود بين بلاد الإسلام ، وتقطعت السبل بين المسلمين بعد اختلاف حكاهم في هذا الزمان الرديء !

(١) محمد بن علي السنوسي : السلسيل المعين في الطرائق الأربعين (مخطوطة بلدية الاسكندرية رقم

٣٨٠٣ / ج تصوف) ورقة ٣٣ ب وما بعدها .

(٢) Fritz Meier : Die Fawaih. p. 252.

الفصل الرابع أسلوبه ومؤلفاته

أسلوب الشيخ :

يتميز أسلوب الشيخ نجم الدين بتلك التلقائية وهذا التدفق الذي نلمحه عند غيره من الصوفية ذوى الأصول الفارسية ، سواء لدى الشعراء من أمثال الخلاج والعطار وجلال الدين الرومى ، أو لدى النثرين من أمثال عبد القادر الجيلانى وروزبهان البقلى - الذى مرَّ علينا كلامه العارم فى العشق - وغيرهما .

وأول ما يبدو من تلقائية الأسلوب عند الشيخ نجم الدين ، هو عدم حرصه على استخدام الغريب من الألفاظ ، بل تنساب كلماته سهلة ، دافئة ، لا يراعى فيها صناعة لفظية ولا تكلف بلاغى . وهو يكتب فى أمر ، ثم يعرج إلى آخر ، وربما عاد للأول ؛ وكأنه يملئ خواطر سنحت بها المنح والأوقات ، فراه يعرض لفضل الذكر - مثلاً - ثم يقص مجموعة من الرؤى والوقائع ، ويعود فى فصل آخر للكلام عن الذكر ونتائج الأذكار والخلوات .. كل ذلك بأسلوب سهل ممتع يميل القلب إلى نبرته الصادقة .

وكلام الشيخ مفعم بالتضمينات القرآنية وضرب الأمثال ، فحين يتناول مراتب العرفان يضرب لذلك مثلاً بالينبوع والبحر والسواقى ، وحين يتناول الشهوات النفسية يضرب لها مثلاً بالحية .. وهكذا ، وضرب الأمثال - كما قال الغزالي^(١) - يقصد به تقريب المعنى للأذهان ؛ ولذا نراه فى كتابات الصوفية الذين قاموا بتربية المريدين ، لحرصهم على إيصال المعنى على أفضل صورة .. وقد كان الشيخ نجم الدين - كما رأينا فى الفصل السابق - واحداً من الشيوخ المربين .

(١) الغزالي : إحياء علوم الدين ٢٣/٤ .

كما يتميز أسلوب الشيخ بقدر من الرمزية ، فهو يجرى على طريقة الصوفية في الإشارة . لكن الملاحظ أنه لا يتقيد بقاموس المصطلح الصوفي تمام التقيد ، بل يستخدم اصطلاحات جديدة كأن يشير للسالك العارج إلى المقامات بلفظ « السيار » وهو لفظ لم يستخدمه من قبله إلا شيخه عمّار البديسي ، وإن كان قد استخدم بعد نجم الدين بزمان طويل ، إذ نراه في كتابات الكشخاني^(١) . وهناك اصطلاحات خاصة بالشيخ نجم الدين لا نراها عند السابقين عليه أو اللاحقين ، كلفظي « الجمود والخمود » فالجمود عنده يقترب من مفهوم « التخلية » عند الصوفية - لكنه لا يتطابق معه في الدلالة - والخمود حال يتعاقب مع الجمود^(٢) .

كما يلجأ الشيخ أحياناً إلى استغلال التشابه اللفظي بين كلمتين ، لكي يستخرج من ذلك معاني جديدة ؛ كاستغلاله للتشابه بين « قلب - قليب » وغير ذلك من المتشابهات .. وهي طريقة كان ابن عري من بعده ، أبرع من طبّقها واستفاد منها^(٣) .

ومن الظواهر الأسلوبية عند الشيخ نجم الدين ، ما نراه من لجوء إلى تحقيق المزيد من المعنى عن طريق الإضافة . فهو إذا استخدم كلمة « الوجود » راح يضيف إليها من الإضافات ما يوسّع في معناها ويأخذ بها في مسارات جديدة؛ فنرى عنده: وجود منسى، وجود حسي، وجود نفسي، وجود العالم.. ولا يُشترط هنا أن يكون الوجود بمعنى (الانطولوجيا) لأنه يستخدمه أيضاً بالمعنى الشعوري والمعرفي والافتراضي. ومسألة «الإضافة» هذه، نراها أيضاً عند ابن عري المتأخر قليلاً عن الشيخ نجم الدين (توفي ابن عري بدمشق سنة ٦٣٨ هجرية) فقد كان

(١) الكشخاني : جامع الأصول ، ص ١٧ (الحاشية) .

(٢) انظر الفصل الخاص بذلك في فوائح الجمال ، عنوان : الجمود والخمود في طريق القوم .. (والقوم لفظ صوفية يراد بها أهل الطريق) .

(٣) كنا نعتقد أن ابن عري هو أول من استخدم هذه الطريقة (انظر ؛ شرح مشكلات الفتوحات المكية ، بتحقيقنا ، دار سعاد الصباح - القاهرة ١٩٩٢ ، ص ٢٠) .

هو الآخر مولعا بالإضافات^(١) ، لكن الصلة بين الرجلين مفقودة ، ومن المستبعد أن يكون ابن عربى قد تأثر بنجم الدين فى هذا الشأن .

ومما يلفت النظر فى أسلوب الشيخ نجم الدين ، تلك الصور الخيالية الرائعة ، التى نراها عند متصوفة الفرس على وجه العموم .. وهى صور تأتى فى السياق كما لو كانت عن غير عمد ، ومع ذلك فهى مميزة وباهرة ؛ كتلك الصورة التى تقابلنا فى « الفوائج » عن : البحار الغارقة فيها الشمس !

ويستخدم الشيخ فى خطابه للمريد لفظ « يا حبيبى » وهو نداء خاص به ، كما اختص نداء « يا غلام » بالإمام عبد القادر الجيلانى ، ونداء « أى سادة » بالشيخ أحمد الرفاعى^(٢) .

* * *

وقد ترك الشيخ نجم الدين مجموعة من المؤلفات ، لم يخرج واحد منها عن نطاق التصوف - بما فى ذلك تفسيره للقرآن - ومع أن عادة الرجال فى زمنه أن يشاركوا بوضع المؤلفات فى فنون أخرى ، إلا أنه آثر أن يقصر جهده التأليفى على ميدان التصوف ، ولم يؤلف فى غيره رغم اشتغاله بعلم الحديث النبوى والفقه على المذهب الشافعى .. وأهم مؤلفات الشيخ :

الأصول العشرة :

وهى رسالة صوفية صغيرة الحجم ، تُعرف أيضاً باسم « بيان أقرب الطرق » وتوجد منها عدة نسخ مخطوطة : المكتبة الظاهرية بدمشق رقم ٧٩٦٦ ، دار الكتب المصرية ٩/٢٥٣ مجاميع (بعنوان : أقرب الطرق إلى الله) المكتب الهندى

(١) تقول الباحثة الممتازة ، النّيمة نان عربى ، الدكتور سعاد الحكيم : ...بالإضافة هى الصّيغة اللغوية الهامة التى أدعها ابن عربى ، والتى فتحت آفاق اشتقاقى لا محدودة أمام الإنسان الصوفى للتعبير عن تجربته ومشاهداته (ابن عربى ومولد لعة جديدة ، الطبعة الأولى ، ص ٨٤) .

(٢) انظر : الفتح الربانى للشيخ عبد القادر الجيلانى (طبعة البابى الحلبي) البرهان المؤيد من كلام الشيخ أحمد الرفاعى (طبعة دار الشعب) .

بلندن رقم ١٢٥٦ ، دار الكتب بالقاهرة رقم ١/٢٦٨ ، ليدن رقم ٢٢٣٠ ،
مانشستر ١٠٧ / E ، بانكيبور ١٣/٩٥٩ (بعنوان : بيان أقرب الطرق) رامبو
١/٣٤٢ (بعنوان : رسالة في السلوك) رامبو ١/٣٢٩ ، راغب باشا بتركيا
١٤٥٣ (بعنوان : الأصول العشرة) بلدية الإسكندرية رقم ٣٧٥٨/ج (بعنوان :
رسالة في الطريق) .

وفي مكتبة جامعة القاهرة نسخة نفيسة من الرسالة ، ضمن مجموعة من
الرسائل الصوفية الموشاة بحليات ذهبية ورسومات ملونة (تحت رقم ٦٩١١/
تركي) بعنوان : رسالة نجم الدين الكبرى . ونص الرسالة :

« قال الشيخ الإمام الأجل الزاهد العابد البارع الورع الفاضل الكامل
سلطان الطريقة والحقيقة سيد الشهداء، نجم الدين الكبرى، قدس الله روحه:
الطرق إلى الله تعالى بعدد أنفاس الخلائق، فطريقنا الذي نشرع في شرحه، أقرب
الطرق^(١) إلى الله، وأوضحها وأرشدنا. وذلك لأن الطرق مع كثرة عددها،
محصورة في ثلاثة أنواع؛ أحدها: طريق أرباب المعاملات، بكثرة الصوم والصلاة
والزكاة^(٢) والحج والجهاد وتلاوة القرآن، وغيرها من الأعمال الظاهرة؛ وهو
طريق الأخيار، فالواصلون بهذا الطريق في الزمان الطويل أقل من القليل.

وثانيها: طريق أصحاب المجاهدات والرياضات في تبديل الأخلاق^(٣) وتزكية
النفس وتصفية القلب وتحلية الروح والسعي فيما يتعلق بعمارة الباطن؛ وهو طريق
الأبرار، فالواصلون بهذا الطريق أكثر من ذلك الفريق^(٤)، ولكن الوصول من
ذلك، من النوادر. كما سئل ابن منصور^(٥) - عن إبراهيم الخواص^(٦) - في أي

(١) ساقطة من الأصل المخطوط ، وأصلحها ما اعتاداً على ما ورد في نسخة راغب باشا ، التي نقل منها فريتز
ماير (ص ٢٨٥) الفقرة الأولى .

(٢) في الأصل المخطوط : الصلوة والركوة .

(٣) يقصد ؛ تبديل الصفات المحمودة بالصفات المدمومة ، وهو ما يعرف بالتخلية والتحلية .

(٤) في الأصل : الطريق ، والتصويب من نسخة راغب باشا .

(٥) الخلاص (الحسين بن منصور) .

(٦) يقصد ؛ رواية عن الخواص ... والخلاص هنا هو السائل .

في أى شيء تروض نفسك ؟ قال : أروض نفسي في مقام التوكل منذ ثلاثين^(١) سنة ! فقال : أفيت عمرك في عمارة الباطن ، فأين أنت من الفناء في الله .

وثالثها : طريق السائرين إلى الله والطاهرين بالله ، وهو طريق الشُّطَّار من أهل المحبة ، السالكون بالجدبة ؛ فالواصلون منهم في البدايات أكثر من غيرهم في النهايات . فهذا الطريق المختار مبنئ على الموت بالإرادات - كما قال النبي عليه السلام : « موتوا قبل أن تموتوا »^(٢) - وهي محصورة في عشرة أصول :

أولها (التوبة) : وهي الرجوع إلى الله بالإرادة ، كما أن الموت رجوعٌ بغير الإرادة ، لقوله تعالى : ﴿ ارجعى إلى ربك .. ﴾^(٣) وهي الخروج من الذنوب كلها ؛ والذنب : ما يحجبك عن الله ، من مراتب الدنيا والآخرة . فالواجب على الطالب ، الخروج^(٤) من كل مطلوب سوى الله ؛ كما قيل : وجودك ذنبٌ لا يقاس به ذنب^(٥) .

وثانيها (الزهد في الدنيا) : وهو الخروج من متاعها وشهواتها ، قليلها وكثيرها ، مالها وجاهها ؛ كما أن الموت يُخرج منها . وحقيقة الزهد : أن يزهد في الدنيا والآخرة ؛ قال النبي عليه السلام : الدنيا حرامٌ على أهل الآخرة ، والآخرة حرامٌ على أهل الدنيا .. وهما حرامان على أهل الله .

وثالثها (التوكل على الله) : وهو الخروج من الأسباب والتسبب^(٦) بالكلية ، ثقةً بالله ، كما هو بالموت . قال الله تعالى : ﴿ ومن يتوكل على الله فهو حسبه ﴾^(٧) .

ورابعها (القناعة) : وهي الخروج من الشهوات النفسانية والتمتعات

(١) في الأصل : ثلاثين .

(٢) حديث مشهور يعتمد عليه الصوفية كثيراً في قولهم بإماتة شهوات النفس ورغباتها .

(٣) سورة الفجر ، آية ٢٨ .

(٤) في هامش المخطوطة : فالواجب على الكاتب يخرج !

(٥) هو شطر بيت شعري (من بحر الطويل) .

(٦) أى الاكتساب .

(٧) سورة الطلاق ، آية ٣ .

الحيوانية ، كما هو بالموت ؛ إلا ما اضطرَّ من الحاجة الإنسانية ، فلا يسرف في المأكول والملبوس والمسكن ، ويقتصر على ما لا بد منه لقوته .

وخامسها (العزلة) : وهى الرجوع عن مخالط الخلق ، بالانزواء والانقطاع ، كما هو بالموت ؛ إلا عن خدمة شيخ واصلٍ مربٍّ له ، وهو كالغسل للميت ، فينبغى أن يكون بين يديه كالميت بين يدى الغسل ، يتصرَّف فيه كما شاء^(١) ؛ ليغسله بماء الولاية عن جنابة الأجنبية ولو ثلث الحدث . وأصل العزلة عزل الحواس بالخلوة عن التصرُّف فى المحسوسات ، فإن كل آفة وفننة وبلاء ابتلاء الروح بها ؛ وكانت تقوية النفس وترية صفاتها فيها^(٢) ، دخلت من رُوْزْنة^(٣) الحواس .. وبها استبعت النفسُ الروحَ إلى أسفل السافلين ، وقيدته^(٤) بها ، واستولت عليه . فبالخلوة وعزل الحواس ، منقطع مدد النفس عن الدنيا والشيطان ، وإعانة^(٥) الهوى والشهوة ؛ كما أن الطبيب - فى معالجة المريض - يستعمل أولاً : الاحتماء لما يضرُّه ويزيد فى علل مرضه ؛ فينقطع بذلك عنه ، مددُ المواد^(٦) الفاسدة التى ينبعث بها المرض^(٧) .. وقد قيل : الحمية رأس كل دواء^(٨) . ثم يعالجه بمسهل يزيل عنه المواد الفاسدة ، وتقوى به القوى الطبيعية والحرارة الغريزية ، ليزول عنه المرض بدفع الطبيعة وتجدد^(٩) الصحة . فالمسهل ههنا ، بعد الاحتماء . وتنقية المواد ، الذكر الدائم .

(١) فى الحديث الشريف : المؤمن بين يدي ربه ، كالميت بين يدي الغاسل .

(٢) يقصد ؛ أن الحواس تقوى النفس وترى صفاتها المذمومة .

(٣) الروزنة : كلمة فارسية معربة تعنى (الكوة) .

(٤) يقصد ؛ قيدت الروح .

(٥) فى الأصل : نامانة .

(٦) فى الأصل : مواد .

(٧) فى الأصل : به المرض ويبقى به المواد .

(٨) المعدة بيت الداء ، والحمية رأس الدواء .. عبارة شهيرة من أقوال الطبيب الجاهلى « الحارث بن كلدة » اعترضها البعض من الأحاديث النبوية .

(٩) غير واضحة فى الأصل .

وسادسها (ملازمة الذكر) : وهى الرجوع عن ذكر ما سوى الله بالنسيان . قال تعالى : ﴿ واذكر ربك إذا نسيت ﴾^(١) .. فأما النسبة المسهلية بالذكر - وهو كلمة « لا إله إلا الله » - فبأنه معجون مركب من النفى والإثبات ، فبالنفى يزيل المواد الفاسدة التى تولد منها مرض القلب وقيود الروح وتقوية النفس وتربية صفاتها - وهى الأخلاق الذميمة النفسانية والأوصاف الشهوانية وتعلقات الكونين - وبالإثبات « إلا الله » ونوره ، تحصل^(٢) صحة القلب وسلامته عن البرذائل من الأخلاق ، بانحراف مزاجه الأصل . ويستوى^(٣) مزاجه - بنوره وحيوته - بنور الله تعالى ، فيتجلى الروح بشواهد الحق ، وتتجلى ذاته وصفاته : وأشرقت أرض النفس بنور ربها^(٤) ، وزالت عنها ظلمات صفاتها^(٥) ؛ ﴿ يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات وبرزوا لله الواحد القهار ﴾^(٦) .. فعلى قضية ﴿ فاذكرونى أذكركم ﴾^(٧) تبدل الذاكرة بالذكورية ، والمذكورية بالذاكرة ؛ فيفنى الذاكر بالذكر ، ويبقى المذكور خليفة للذاكر ، فإذا طلبت الذاكر وجدت المذكور ، وإذا طلبت المذكور وجدت الذاكر :

فإذا أبصرتنى أبصرتـــه وإذا أبصرتـــه أبصرتنا^(٨)

(١) سورة الكهف ، آية ٢٢ .

(٢) فى الأصل : يحصل .

(٣) فى الأصل : استوى .

(٤) الآية : وأشرقت الأرض بنور ربها .

(٥) صفات النفس هند الصوفية : الجهل - الحرص - الجشع ... إلخ .

(٦) سورة إبراهيم ، آية ٤٨ .

(٧) سورة البقرة ، آية ١٥٢ .

(٨) شعر الخلاص :

نحن روحان حللنا بدننا

وإذا أبصرتـــه أبصرتنا

أنا من أهوى ومن أهوى أنا

فإذا أبصرتنى أبصرتـــه

سابعها (التوجه إلى الله) وهو الخروج عن كل داعية يدعو إلى غير الحق - كما هو بالموت - فلا يبقى له مطلوب ولا محبوب ولا مقصود ولا مقصد ، إلا الله . ولو عرضت^(١) عليه مقامات جميع الأنبياء والمرسلين ، لا يلتفت إليها بالإعراض من الله لحظة . قال الجنيد رحمة الله عليه : لو أقبل صدّيق على الله ألف ألف سنة ، ثم أعرض عنه لحظة ، فما فاته أكثر مما ناله .

ثامنها (الصبر) وهو الخروج عن حظوظ النفس بالجاهدة والمكابدة - كما هو بالموت - والثبات على فطامها عن مألوفاتها ومحبوباتها ، لتزكيتها وخمود شهواتها ، والاستقامة على الطريق المثلى بتصفية القلب وتجليّة الروح . قال تعالى : ﴿ وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون ﴾^(٢) .

وتاسعها (المراقبة) : وهى الخروج عن حوله وقوته - كما هو بالموت - مراقباً لمواهب الحق ، متعرضاً لنفحات الطافه ، معرضاً عما سواه ، مستغرقاً في بحر هواه ، مشتاقاً إلى لقائه .. إليه قلبه ، لديه روحه ، يئنُّ^(٣) به عليه ! ويستعين منه ، يستغيث إليه . حتى يفتح الله باب الرحمة - لا يمسك لها - يغلق عليه باب عذابه ، لا يفتح له . وتنور بنور ساطع من رحمة الله ، وعن النفس تزول ظلمة أماريّة النفس^(٤) في لحظة ما لا تزول بثلاثين سنة بالجاهدة والرياضات^(٥) . وهم الأخیار ، بل تبدّل سيئات النفس بحسنات الروح ، لقوله تعالى : ﴿ يبدّل الله سيئاتهم حسنات ﴾^(٦) . وهم الأبرار ، بل تكون حسنات الأبرار سيئات المقربين - بحسنات الطافه - لقوله تعالى : ﴿ للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ﴾^(٧) . فهذه الزيادة حسنات الطاف الحق : وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء من عباده^(٨) .

(١) في الأصل : عرض .

(٢) سورة السجدة ، آية ٢٤ .

(٣) في الأصل : يأن .

(٤) الإشارة إلى « النفس الأمارة » .

(٥) في «امش المخطوطة : قال الله تعالى . « إلا من رحم ربى » .

(٦) سورة الفرقان ، آية ٧٠ .

(٧) سورة يونس ، آية ٢٦ .

(٨) الآية : ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .. سورة المائدة / ٥٤ .

وعاشرها (الرضا) وهو الخروج عن رضاء النفس بالدخول في رضاء الله ، بتسليم الأحكام الأزلية والتفويض إلى تدبيره^(١) الأبدية بلا إعراض ولا اعتراض - كما هو بالموت - كما قال بعضهم :

وكلت إلى المحبوب أمرى كله وإن شاء أحياني وإن شاء أتلها^(٢)

فمن يموت بإرادته عن هذه الأوصاف الظلمانية ، يحيه^(٣) الله بنور عنايته ؛ كما قال الله تعالى : ﴿ أومن كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشى به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها ﴾^(٤) .. أى : من كان ميتاً في أوصاف الظلمانية في شجرة الإنسانية ، جعلناه^(٥) بأوصاف الربانية وجعلنا له نوراً من أنوار جمالنا يمشى به ، أى بذلك النور ؛ كقوله تعالى ﴿ يمشى به في الناس ﴾ أى في سائر الناس بالفراصة ، ويشاهد أحوالهم ؛ ﴿ كمن مثله في الظلمات ﴾ أى كمن بقى في ظلمات شجرة الإنسانية ﴿ ليس بخارج منها ﴾ لا بزهرية المؤمنية ، ولا بثنائية النبوية .

* * *

ذلك هو النص الكامل لرسالة « الأصول العشرة » أو « أقرب الطرق إلى الله » أو « رسالة السلوك » وكلها عناوين مستمدة من كلام الشيخ وعباراته ، وقد أوردنا نص الرسالة بتمامه استكمالاً للفائدة ، ورغبة في تقديم المزيد من أعمال الشيخ للقارئ المعاصر .

(١) في الأصل : تدبيره .

(٢) في الهامش : وإن شاء أبقاني وإن شاء اتلفني ، وفوقها حرف ن (مما يعنى أن الناسخ رجع إلى نسخة أخرى) والبيت من بحر الطويل ، والشطر المذكور في الهامش غير مستقيم الوزن ولا القافية .

(٣) في الأصل : فيحييه !

(٤) سورة الأنعام ، آية ١٢٢ .

(٥) في الأصل : جعلنا .

رسالة السفينة :

وهي رسالة أقصر من السابقة ، وأشد تركيزاً . توجد منها نسخة مخطوطة بمكتبة آيا صوفيا (برقم ١٦٩٧) ونسخة مع مخطوطة جامعة القاهرة المشتملة على رسالة « الأصول العشرة » .. ونص رسالة السفينة هو :

« قال الشيخ نجم الدين الكبرى ، قدس الله روحه : الشريعة كالسفينة ، والطريقة كالبحر ، والحقيقة كالدرّ .. فمن ترك هذا الترتيب لم يصل إلى الدرّ . فأول شيء وجب على الطالب ، الشريعة . والمراد بالشريعة ، ما أمر الله تعالى ورسوله من الوضوء والصلاة والصوم وأداء الزكاة والحج وترك الحرام ، وغير ذلك من الأوامر والنواهي .

والطريقة ، الأخذ بالتقوى^(١) وما يقربك إلى المولى من قطع المنازل والمقامات .. وأما الحقيقة فهي الوصول إلى المقصد ، ومشاهدة نور التجلي . كما قيل في الصلاة : إن الصلاة خدمة وقربة ووصلة ؛ فالخدمة هي الشريعة ، والقربة هي الطريقة ، والوصلة هي الحقيقة . كما قيل : الشريعة أن تعبد ، والطريقة أن تحضره ، والحقيقة أن تشهده .

قيل : ما الخلوة؟^(٢) قال : الخلوة انقطاع من الخلق إلى الخالق . لأنه سفر النفس إلى القلب ، ومن القلب إلى الروح ، ومن الروح إلى السر ، ومن السر إلى الخالق الكلي .. ومسافة هذا السفر بعيدة جداً بالنسبة إلى النفس ، قريبة جداً بالنسبة إلى الله .

طهارة الشريعة بالماء ، وطهارة الطريقة بالتخلية عن الهوى وطهارة^(٣) الحقيقة خلوة القلب عما سوى الله تعالى .. صلاة الشريعة بالأذكار والأركان ، وصلاة

(١) في الأصل : بتقوى .

(٢) في الأصل : الخلوة .

(٣) الفقرة التالية ساقطة من المخطوطة ، وأوردناها اعتماداً على ما نقله فريزماير من نسخة آيا صوفيا رقم

الطريقة بالانحلاخ عن الأكوان والتوجُّه بالكلية إلى الرحمن واستفراغه بذات المناجاة في كل مكان وزمان وصوم الشريعة بالإمساك عن الطعام والشراب ، وصوم الطريقة الإمساك عن الأوهام شغلاً لحبة رَبِّ الأنام . زكاة الشريعة من كل عشرين مثقالاً نصف مثقال ، وزكاة الطريقة التصدُّق بكل المال^(١) .

ولو^(٢) رأيت شخصاً يطير في الهواء أو يمشى على البحر ، أو يأكل النار ، وغير ذلك مما يشبه الكرامات ؛ وهو يترك فرضاً من فرائض الله تعالى ، أو سُنَّة من سُنن النبي عليه الصلاة والسلام ؛ فاعلم أنه كَذَّاب في دعواه ، وليس فعله كرامات ، بل هو سحر . والله أعلم .

رسالة الهائم :

قيل عن هذه الرسالة إنها « لم يؤلف مثلها في الطريقة »^(٣) وعنوانها الكامل هو « رسالة الخائف الهائم من لومة اللائم » وتوجد منها عدة أصول مخطوط ، منها مخطوطة بالمكتب الهندي بلندن (رقم ١٢٥٥) ومخطوطة بآيا صوفيا رقم ١٦/٢٠٥٢ ، ومخطوطة بدار الكتب المصرية رقم ٥٥٦ ، ومخطوطة بطهران رقم ٥٩٨^(٤) .

ورسالة الهائم شديدة الشبه بفوائح الجمال ، ففيهما استعراض مطوّل للطريق إلى الله ، وعلاماته ومقاماته .. وفيهما أيضاً ذِكرٌ للوقائع والمعانيات الروحية التي عاينها الشيخ نجم الدين . وبمقارنة ما ورد في تلك الرسالة بما ورد في فوائح الجمال ، نرى العديد من الموضوعات التي يتكرر ذكرها في المؤلفين ، ولكن بصيغة مختلفة .. فمن ذلك ما يحكيه الشيخ نجم الدين من وسوسة الشيطان له - وهو في الخلوة - قائلاً :

(١) قال أحد الفقهاء لأبي بكر الشبلي : كم يكون في خمس من الإبل ؟ قال : شاة في واجب الأمر ، وفيما يلزنا كلها !

(٢) هنا ينتهي الجزء الساقط من مخطوطة جامعة القاهرة .

(٣) ربحانة الأدب ١٤٣/٦ - روضات الجنات ٢٩٧/١ .

(٤) Brockmann : Gesch. Ip. 787 .

« إني ^(١) كنت أجاهد في الله فجاء الشيطان ليشوّش على الخلوة والجهادة ، فقال : إنك رجل عالم متبع آثار رسول الله ، فلو اشتغلت الآن بطلب الآثار - عن المشايخ الحُفَاط - وأحاديث الرسول ، كان خيرًا لك من هذا ، ولو بقيت في الجاهدة يفوت عليك المشايخ الكبار وإسنادهم العالى .. فكرت أن أزيغ بوسوسته ؛ فهتف هاتف : مَنْ يسمع الأخبار من غير واسطة ، حرامّ عليه سماعها بوسائط ! وتذكرت قول الشيخ محمد بن الحسين السلمى في آخر عمره : أستغفر الله ، علو الإسناد من زخارف الدنيا .

فعلمتُ أن هذا الخاطر من وساوسه ، فنفيته وانتفيت . فانتقل إلى وسوسة أخرى ، فقال : ما أحسن ما تعرف حيلي ووساوسى ، فلو جمعتها ، وجعلتها كتابًا سميت « كتاب حيل المريد على المريد » كان ذلك ذخراً لك في الدنيا والآخرة ، يستمسك به الطالبون لله تعالى ، وينجون به من مكائد الشيطان وحيله .. ففهمتُ بذلك ، وبجمعتها ، فنبهنى الشيخ رحمه الله : إن هذا أيضاً من مكائد الشيطان وحيله ، ليقطع عليك الوقت والأنس والذكر وجمعية القلب .. فانتفيت وانتفيت .

وهذه الواقعة المذكورة في « رسالة الهائم » نراها بصيغة أخرى في « فوائح الجمال » مع بعض الزيادات هنا أو هناك ^(٢) . وفي الكتاين - أيضاً - نرى التناول التفصيلي لفضل الذكر والأذكار ، وأهمية « دوام الذكر » باللسان مع حضور القلب ، وأثر الذكر في نفس الذاكر ... إلخ ^(٣) .

ولولا طول الرسالة ، لأوردنا نصّها الكامل ، اعتماداً على مخطوطة دار الكتب المصرية بالقاهرة . ولذا سنكتفى بهذه الإشارات ، أملاً في أن تخرج هذه المخطوطة إلى النور ، محققة ، في مقبل الأيام .

(١) Fritz Meier : Dia Fawaih, p. 280.

(٢) رسالة الهائم ، ورقة ٦٨ ب (ذكرها ماير ص ٢٨٠) - فوائح الجمال (النص المحقق) ص ١٤٤ .

(٣) رسالة الهائم ، ورقة ٦٤ أ - فوائح الجمال ص ٢١٤ .

تفسير القرآن (التأويلات النجمية) :

للمصوفية نظرتهم الخاصة لآيات القرآن ، ولهم في معاني التنزيل رؤى ومعان عميقة الغور ، وذلك وفقاً لمنهجهم الذوقي في تناولهم للقرآن ، وقد وضع العديد من الصوفية تفسيرات ذوقية للقرآن - كالقشيري والسلمي والقاشاني^(١) ونجم الدين داية - عبّروا فيها عن حقائق القرآن الكريم كما تجلّت لهم .

ويذكر المؤرخون أن الشيخ نجم الدين « فُسّر القرآن العظيم في اثني عشر مجلداً »^(٢) وهو التفسير المعروف باسم : التأويلات النجمية . وقد ذكره بروكلمان بعنوان « عين الحياة في التفسير »^(٣) مشيراً إلى نسختين مخطوطتين له في استانبول والموصل^(٤) . كما أخبرني الدكتور حسن عباس زكى بأن هناك مخطوطة منه في دار الكتب المصرية ، لكنني لم أظفر بها .

وقد اعتمد على تفسير نجم الدين اثنان من المفسرين ، الأول تلميذه نجم الدين داية (المتوفى ٦٥٤ هجرية) في تفسيره : بحر الحقائق والمعاني في تفسير السبع المثاني^(٥) . والآخر هو إسماعيل حقي البروسوى (المتوفى ١١٢٧ هجرية) في تفسيره : روح البيان في تفسير القرآن .

وتفسير البروسوى عبارة عن مجموع عدة تفسيرات سابقة ، ذكرها المؤلف في المقدمة ، ومنها « تفسير نجم الدين الكبرى » الذي يشير إليه البروسوى بتفسير النجم أو بالتأويلات النجمية . وقد نقل البروسوى نصوص الشيخ في تفسيره ، بحيث يمكن استخراج نص « تفسير نجم الدين » من مجلدات « تفسير

(١) ينسب تفسير القاشاني إلى « ابن عربى » وقد طبع عدة طبعات منسوبة إلى الشيخ الأكبر !

(٢) سر أعلام النبلاء ١١٢/٢٢ - طبقات الشافعية ١١/٥ - الوافي بالوفيات ٢٦٣/٧ .

(٣) ذكره حاجي خليفة بنفس العنوان (كشف الظنون ١١٨١) والبغدادى بعنوان : عين الحياة في تفسير القرآن (هدية العارفين ٩٠) .

(٤) Brocklmann : Gesch. I, p. 787. ونسخة استانبول توجد بمكتبة كوبرلى ، برقم ٤٩/تفسير .

(٥) بخصوص تفسير نجم الدين داية ، يمكن الرجوع إلى كتب الدكتور سيد عبد التواب : الرمزية الصوفية في القرآن الكريم (دار المعارف - مجموعة كتابك رقم ١٢٢) حيث اعتمد عليه المؤلف كثيراً .

البروسوى : روح البيان « وهو ينقل النص بكامله مسبقاً بعبارة : « وفي تفسير نجم الدين » : و « في التأويلات النجمية » .. أو يضع النص عقب الآية القرآنية ، ويختتمه بقوله : « كذا في التأويلات النجمية » ..

ومن خلال (روح البيان) استخرجنا تفسير الشيخ نجم الدين وتأويلاته للفتحة :

﴿ الحمد لله رب العالمين * الرحمن الرحيم ﴾ الحمد شامل الثناء والشكر والمدح ، ولذلك صَدَّر كتابه بأن حمد نفسه ، بالثناء في ﴿ لله ﴾ والشكر في ﴿ رب العالمين ﴾ والمدح في ﴿ الرحمن الرحيم * مالك يوم الدين ﴾ ثم ليس للعبد أن يحمد بهذه الوجوه الثلاثة حقيقةً ، بل تقليدًا ومجازًا . أما الأول ، فلأن الثناء والمدح بوجهٍ يليق بذاته أو بصفاته ، فرغُ معرفة كنههما ؛ وقد قال الله تعالى ﴿ ولا يحيطون به علماً ﴾ ﴿ وما قدرُوا الله حق قدره ﴾ . وأما الثاني ، فكما أن النبي عليه السلام ، لما خوطب ليلة المعراج بأن « أئن على » قال « لا أحصى ثناء عليك » وعلم أن لا بد من امتثال الأمر وإظهار العبودية ، فقال « أنت كما أثنت على نفسك » فهو ثناءٌ بالتقليد ، وقد أمرنا أيضًا أن نحمده بالتقليد بقوله : ﴿ قل الحمد لله ﴾ كما قال ﴿ فاتقوا الله ما استطعتم ﴾ : كذا في التأويلات النجمية^(١) .

﴿ مالك يوم الدين ﴾ .. وفي التأويلات النجمية : الإشارة في ﴿ مالك يوم الدين ﴾ أن الدين في الحقيقة الإسلام . يدل عليه قوله تعالى ﴿ إن الدين عند الله الإسلام ﴾ والإسلام على نوعين ، إسلامٌ بالظاهر ، وإسلامٌ بالباطن ! فإسلام الظاهر بإقرار اللسان وعمل الأركان ، فهذا إسلامٌ جسدي ، والجسداني ظلماني ، ويُعبّر عن الليل بالظلمة . وأما إسلام الباطن ، فبانسراح القلب والصدر بنور الله تعالى ، فهذا الإسلام الرواحاني نوارني ، ويُعبّر عن اليوم بالنور . فالإسلام الجسداني يقتضي إسلام الجسد لأوامر الله ونواهيه ، والإسلام الرواحاني يقتضي

(١) إسماعيل حقي البروسوى : روح البيان في تفسير القرآن (طبعة ١٢٨٧ هجرية) المجلد الأول

استسلام القلوب والروح لأحكام الأزل وقضائه وقدره . فمن كان موقوفاً عند الإسلام الجسداني ، ولم يبلغ مرتبة الإسلام الروحاني ، فهو بعد في سير ليلة الدين متردّد ومتميّز ، فيرى ملوكاً وأملاكاً كثيرة ، كما كان حال الخليل عليه السلام ﴿ فلما جنّ عليه الليل رأى كوكباً قال هذا ربي ﴾ ومن تنفّس صبحُ سعادته ، وطلعت شمس الإسلام الروحاني من وراء جبل نفسه من مشرق القلب ، فهو على نور من ربه ، فيضحى في كشف ﴿ يوم الدين ﴾ فيكون ورّد وقته « أصبحنا وأصبح الملك لله » فيشاهد بعين اليقين ، بل يكشف - حقّ اليقين - أن الملك لله ، ولا مالك إلا ﴿ مالك يوم الدين ﴾ . فإذا تجلّى له النهار ، وكُشِفَ بالملك جهازاً ؛ يخاطبه وجهاً ، ويناجيه شفاهاً ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾ .

ومن لطائف ﴿ مالك يوم الدين ﴾ أن مخالفة الملك توئل إلى خراب العالم وفناء الخلق ، فكيف مخالفة مالك الملوك ؛ كما قال الله تعالى في سورة مريم ﴿ تكاد السموات يتفطرن منه ﴾ والطاعة سبب المصالح ، كما قال تعالى ﴿ نحن نرزقك والعاقبة للتقوى ﴾ فعلى الرعية مطاوعة الملوك ، وعلى الملوك مطاوعة ملك الملوك لتنظم مصالح العالم .

ومن لطائفه أيضاً ، أن « ملك يوم الدين » يبيّن أن كمال ملكه يعد له ، حيث قال ﴿ ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً ﴾ فالمَلِكُ المجازي إن كان عادلاً حقاً ، دَرَّتْ الضرور ونمت الزروع ؛ وإن كان جائراً ، كان باطلاً فارتفع الخير .. يحكى أن « أنوشروان » انقطع في الصيد من القوم ، فانتهى إلى بستان ، فقال لصبيّ فيه « اعطني رُمّانة » فأعطاه ، فاستخرج من حبّها ماءً كثيراً سكّن به عطشه ، فأعجبه ، وأضمر أخذ البستان من مالكة ! فسأله أخرى ، فكانت عفصة قليلة الماء ، فسأل الصبي عنه . فقال : لعل الملك عزم على الظلم ! فتأب بقلبه ، وسأله أخرى ، فوجدها أطيب من الأولى .. فقال الصبي لعل الملك تأب ! فتنّبهُ أنوشروان ، وتأب بالكلية عن الظلم ، فبقى اسمه مخلّداً بالعدل ، حتى روى عن رسول الله ﷺ أنه تفاخر فقال : وُلدت في زمن الملك العادل (١) .

﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾ قال في التأويلات النجمية : في قوله ﴿إياك نعبد﴾ رجع إلى الخطاب من الغيب ، لأنه ليس بين المملوك ومالكة إلا حجاب مُلك نفس المملوك . فإذا عبر عن حجاب ملك النفس ، وصل إلى مشاهدة مالك النفس . كما قال أبو يزيد (البسطامي) في بعض مكاشفاته : إلهي ، كيف السبيل إليك ؟ قال له ربه : دع نفسك ، وتعال ! فللنفس أربع صفات : أُمارةٌ ، ولَوامةٌ ، ومُلهمةٌ ، ومُطمئنةٌ ؛ فأمر العبد المملوك بأن يذكر مالكة بأربع صفات : بالصفة الإلهية ، والربوبية ، والرحمانية ، والرحيمية . فيعبر بعد مدح الإلهية ، وشكر الربوبية ، وثناء الرحمانية ، وتمجيد الرحيمية - بقوة جذبات هذه الصفات الأربع - من حجاب ممالك الصفات الأربع للنفس ، فيتخلص من ظلمات ليلة رين نفسه ، بطلوع صبح صادق ﴿مالك يوم الدين﴾ فيبقى العبد عبداً مملوكاً لا يقدر على شيء ، فيرحمه مالكة ، ويذكره بلسان كرمه على قضية وعد ﴿فاذكروني أذكركم﴾ ويناديه ويخاطب نفسه ﴿يا أيها النفس المطمئنة﴾ ثم يجذبه من غيبة نفسه إلى شهود مالكية رَبِّه ، بجذبه ﴿ارجعي إلى ربك﴾ فيشاهد جمال مالكة ويناديه نداءً عبدٍ خاشعٍ ذليل عاجز^(١) .

﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾ .. وفي التأويلات النجمية : إن أقسام الهداية ثلاثة : الأولى هداية العامة ، أي عامة الحيوانات ، إلى جلب منافعها وسلب مضارها .. وإليه أشار بقوله تعالى ﴿أعطي كل شيء خلقه ثم هدى﴾ وقوله ﴿وهديناه النجدين﴾ .

والثانية هداية الخاصة ، أي المؤمنين ، إلى الجنة .. وإليه الإشارة بقوله تعالى ﴿يهدى ربهم بإيمانهم﴾ .. الآية .

والثالثة هداية الأخص ، وهي هداية الحقيقة إلى الله ، بالله .. وإليه الإشارة بقوله تعالى ﴿قل إن هدى الله هو الهدى﴾ وقوله ﴿إني ذاهبٌ إلى ربي سيهدين﴾ وقوله ﴿الله يجتبي إليه من يشاء ويهدي إليه من ينيب﴾ وقوله

(١) روح البيان ١٨/١ .

﴿ ووجدك ضالاً فهدى ﴾ أى كنت ضالاً فى تيه وجودك ، فطلبتك بجودى ، ووجدتك بفضلى ولطفى ، وهديتك بجذبات عنايتى ونور هدايتى إلى ، وجعلتك نوراً فأهدى بك إلى من أشاء من عبادى ، فمن اتبعك وطلب رضاك ، فخرجهم من ظلمات الوجود البشرى إلى نور الوجود الروحانى ، ونهدهم إلى صراط مستقيم . كما قال تعالى ﴿ قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين ﴾ يهدى به الله ﴿ والصراط المستقيم هو الدين القويم ، وهو ما يدل عليه القرآن العظيم ، وهو خلق سيد المرسلين ﷺ ، فيما قال تعالى ﴿ وإنا لك لعلى خلق عظيم ﴾ .

﴿ غير المغضوب عليهم ولا الضالين ﴾ هم الذين أخطأهم ذلك النور فضلّوا فى تيه هوى النفس ، وتاهوا فى ظلمات الطبع والتقليد ، فغضب الله عليهم ، مثل اليهود^(١) ..

* * *

وهكذا يغوص نجم الدين الكبري فى بواطن آيات الفاتحة ، ويستجلى بواطن المعنى اعتماداً على ذوق الصوفى وتعلقه بالبعدين من الحقائق ، ولذا فإن ما يقدمه الشيخ نجم الدين هو « تأويلات » وليس « تفسير » إذ إن التفسير هو شرح المعنى على ما يقتضيه ظاهر الأمر ، أما التأويل فهو القراءة العميقة لباطن النص . ولا يشغل الشيخ نفسه فى تأويلاته بالقضايا السطحية التى انشغل بها علماء الظاهر ، فهو إن توقف عند الآية ﴿ ثم استوى على العرش ﴾ لا يدخل فى تلك المناقشات النظرية حول طبيعة الاستواء ، بل يوجه الأمر كله ناحية المعنى الصوفى فيقول : أى استتمّ وتمكّن تجليه على عرش استعدادات المظاهر السماوية الروحانية والمظاهر الأرضية الجسمانية ، ما تجلّى لعرش استعداد شئ ، إلا بحسب قابليته وقبوله ، لا زائد ولا ناقص^(٢) . وهكذا تكون قضية الاستواء فى التأويلات النجمية مرادفة لقضية التجليات فى المفهوم الصوفى ، بل إن قضية الوجود بأسره ، هى عند الشيخ قضية تجليات .. فهو يتأول قوله تعالى ﴿ هو الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ﴾ فيقول : هو الذى تجلّى للأشياء كلها بذاته الموصوفة

(١) روح البيان ٢٤/١ .

(٢) روح البيان ١٣٢/٦ .

بالصفات الست « الحياة ، العلم ، والقدرة ، الإرادة ، السمع ، البصر » إذ تجلّى الوجود لا يكون إلا مع لوازمه ولواحقه ، كما قال تعالى ﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يَسْبَحُ بِحَمْدِهِ ﴾ والتسبيح يستلزم الحياة ، وما يترتب عليها من العلم بالتسبيح وبالمسيح ، ومن القدرة على التسبيح ، والإرادة بتخصيص المسيح ، ومن السمع إذ كل مسبح لا بد له من استماع تسبيحه ، ومن البصر إذ لا بد لكل مسبح أن يشاهد المسبح في بعض مراتب الشهود^(١) .. وفي قوله تعالى ﴿ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ﴾ يقول الشيخ : خلق كل شيء بحسب الوجود فيه ، فسوى تسوية يصل بها الفيض الإلهي المعد له بحسب استعدادة الفطري^(٢) .

ولا يزال تفسير الشيخ - أو تأويلاته - ينتظر عناية الباحثين والدارسين ، إذ إن الدراسة والبحث في هذا العالم الرحب ، من شأنهما الكشف عن الكثير من آفاق المعرفة الصوفية .

الرباعيات :

ترك الشيخ نجم الدين مجموعة من الأشعار على شكل « رباعيات » وهو شكل مشهور من أشكال الشعر الفارسي . ولم تمتد يد الدارسين بعد إلى تلك الرباعيات المتناثرة التي لا يضمها ديوان واحد ، وهي لم تنزل في أصولها الفارسية ، ولم يترجم منها - فيما نعلم - أية أجزاء إلى اللغة العربية .

وكنا قد عقدنا فصلاً في كتابنا « شعراء الصوفية المجهولون » حول شعر نجم الدين كبرى ، فجمعنا عدداً من رباعياته المذكورة في (ریحانة الأدب) و (روضات الجنات) وترجمناها - بمعاونة الدكتور إبراهيم الدسوقي شتا - فكان من جملة ذلك قوله :

(١) روح البیان ١٣٢/٦ .

(٢) روح البیان ٦٦٨/٦ .

(٣) انظر كتابنا « شعراء الصوفية .. » ص ٥١ وما بعدها .

حاکمان در زمان معزولى همه شبلى وبایزید شوند
بازجون برسر عمل آیند همه جون شمر وجون یزید شوند

وترجمة الرباعية :

- الحکام فى وقت عزهم
- کلهم الشبلى وأبو یزید
- وإذا عادوا لسلطتهم
- فکلهم مثل شمر ومثل یزید

یرید الشیخ أن یقول : إن ذوى السلطان لا دوام لحالهم ، ففى أوان ابتعادهم وإقصائهم عن الحکم ، نجدهم زهاداً كالصوفية (أبى بکر الشبلى ، أبى یزید البسطامى) فإذا عادوا للسلطة ، نسوا زهدهم وصاروا من أهل الظلم والبطش أمثال (شمر بن ذى الجوشن) قاتل الحسين فى كربلاء ، و (یزید ابن معاوية) الذى نكّل بآل بیت النبوة . والرباعية فى مجملها إشارة إلى تلاعب خمر السلطة بعقول البشر ..

وفى رباعية أخرى ، یصف الشیخ حال الإنسان الفقير المعدم ، فىقول :

کر جهودی قراضة أى دارد خواجه نامدار وفرزانة است
وأنکه دین دارد وندارد مال کر همه بر علی است دیوانة است

وترجمتها :

- لو أن يهودياً لديه فئات مال
- فهو يكون السيد والوجيه
- من لديه الدين وليس لديه المال
- يصير مجنوناً ، ولو كان أباً على

وهنا إشارة إلى سلطان المال على نفوس البشر ، فها هو اليهودى يتملك ويسود بالمال ، وها هو المعدم يصيبه الجنون ، حتى لو كان رئيس الحكماء أباً على ابن سينا ..

وفي رباعية صوفية يقول الشيخ :
 أين لا له رخان كه أصلشان أز جكل أست
 يارب كه سرشت باكشان أزجة كل أست
 دل را ببرند وقصد جان ميز كنند
 أينست بلا وكرنا زیشان جه كله أست^(١)
 وترجمتها :

- ذوات الخدود التي تشبه الشقائق ، وأصلهن من شَجَل^(٢) .
- يارب ، من أية طيبة عجبتهم الطاهرة ؟
- إني يسلب القلب ، ثم يتوجهن إلى الروح .
- وهذا بلاء ، وليس للشكوى منهن سبيل !

وهنا يستخدم الشيخ الرموز الصوفية ، فيشير بذوات الخدود الوردية إلى تجليات الجمال الإلهي في الكون .. تلك التجليات التي تذهب بعقول المحققين من الأولياء ، المندهشين تحت سطوة الجمال الأزلي ، فلا يملكون اعتراضاً أو شكوى . وأخيراً ، يرمز الشيخ للواردات الإلهية بحبة الشعير ، ويقول بوجوب التضحية في سبيل تلك الحبة بالدنيا وما فيها :

درکوی تو مید هند جانی بجوی جان راجا محل كه کاروانی بجوی
 از تو صنمه جوی جهسانی أرزد زين جنس كه مائيم جهانی بجوی^(٣)
 وترجمتها :

- في حَيْك ، يضعون بالروح لقاء حبة شعير !
- وما الروح (إنهم يضعون) بقافلة في مقابل حبة الشعير .
- فإن حبة منك أيها الحبيب ، تساوي عالمًا .

(١) الرباعيات الثلاث السابقة ، ذكرها ميرزا محمد علي مدرس في كتابه : ربحانة الأدب .
 (٢) شجل : مدينة فارسية من بلاد ما وراء النهر مشهورة بالنساء الجميلات .
 (٣) هذه الرباعية ذكرها الخوانساري في « روضات الجنات » قائلاً : ومن جملة أشعار الشيخ نجم الدين ، سفل الشيخ أي هاشم الكازروني ، هذه الرباعية ..

– فلنبحث في مقابلها ، عن دنيا كاملة من هن على شاكلتنا .

* * *

وهناك مجموعة أخرى من المؤلفات التى نسبها المؤرخون والمفهرسون للشيخ نجم الدين ، لكننا لم نطلع عليها لنتثبت من نسبتها إليه .. ضمن تلك المؤلفات :

- ١ – سيرُ الحدس^(١) .
- ٢ – طوابع التنوير^(٢) .
- ٣ – رسالة الطرق^(٣) .
- ٤ – منازل السائرين ومنهاج السالكين^(٤) .
- ٥ – سكنات الصالحين^(٥) .
- ٦ – آداب المريدين .
- ٧ – الرسالة الكبرى .
- ٨ – مقدمة مختصرة مفيدة .
- ٩ – فصل في فضل الذكر .
- ١٠ – رسالة في السلوك .

(١) ذكره البغدادي في هدية العارفين (ص ٩٩) وعنوانه غريب على لغة التصوف بعامة ولغة الشيخ نجم الدين بخاصة .

(٢) ذكره البغدادي (هدية العارفين ص ٩٠) ولليضاوى كتاب بعنوان قريب : طوابع الأنوار .

(٣) ذكرها البغدادي (هدية العارفين ص ٩٠) وكحاله (معجم المؤلفين ٣٤/٢) وفي كشف الظنون (ص ٨٧٦) ما يفيد بأنها رسالة « الأصول العشرة » .

(٤) في روضات الجنات (٢٩٥/١) ما نصه : نجم الدين الكبرى صاحب كتاب منازل السائرين وغيره .. وفي ربحانة الأدب (١٤٣/٦) : منازل السائرين ومنهاج السائرين ، كشف الظنون ذكره .. وبالرجوع إلى كشف الظنون لم نجد له ! والموجود هناك : منازل السائرين للهروي ، منهاج السالكين لإسماعيل الأنقروى .. ولعل الإشارة تكون لمنازل السائرين للشيخ نجم الدين داية (تلميذ الشيخ) .

(٥) المؤلفات من ٥ : ١٠ ذكرها بروكلمان (Gesch.I, 787) ونعتقد أن رقم (٧) ورقم (١٠) هما إحدى رسالتى الشيخ « الأحوال العشرة – السفينة » ورقم (٩) هو فصل من فوائح الجمال أو رسالة الهائم .

وتحتاج هذه المؤلفات إلى مراجعة نقدية لما هو مخطوط منها ، لإثبات صحة نسبتها للشيخ . أما المفقود منها ، فلا سبيل للكشف عن صحة نسبته إلا مع ظهور نسخة خطية منه ، أو وجود اقتباسات في مؤلفات الصوفية ، أو إشارة مؤكدة من بعض تلاميذ الشيخ المباشرين ؛ وكلها أمور لا تتوفر لنا الآن .. فلنتحدث عن الكتاب الأشهر للشيخ .

فوائح الجمال وفوائح الحلال :

هو أشهر مؤلفات الشيخ وأكثرها استيعاباً لحياته الروحية .. تحدث فيه عن شتى الموضوعات الصوفية ، وذكر فيه العديد من الوقائع التي عاينها في خلواته وخلال صحبته للمشايخ . ولا يوجد أدنى شك في نسبة هذا الكتاب للشيخ نجم الدين ، بل يعد الكتاب ترجمة ذاتية للشيخ - أو تصوير لرحلة عروجه - وهو مذكور له في معظم المصادر إما كاملاً « فوائح الجمال وفوائح الحلال »^(١) وإما مختصراً « فوائح الجمال » .. وهو في معجم المؤلفين : فوائح الجمال وفوائح الحلال^(٢) !

وكلمتي « فوائح ، وفوائح » من الألفاظ ذات المذاق الصوفي ، وقد جعلهما العديد من المؤلفين عناوين لكتبهم ، فمن ذلك : الفوائح الإلهية والمفتاح الغيبية (تفسير صوفي) للشيخ بابا نعمة الله النخجواني - فوائح الأسرار في شرح مقدمة التشریح للعلامة كمال الدين السيواسي - فوائح الأسرار الإلهية لمجهول - فوائح السور للغزالي^(٣) - فوائح الأسرار للمبيدي - فوائح أزهار الحقائق ولوائح أنوار الطرائق لكamal الدين الحلبي - الفوائح الجنانية في المدائح الروضانية للإدكاولي - فوائح عُرف الصفا في مدائح السيد أبي الوفا للسندوني - فوائح المسك العبوق في لوائح السلك الدسوقي لكamal الدين الحلبي - الفوائح المكية والروائع المسكية لابن بشاشة^(٤) .. وأصحاب هذه المؤلفات جميعاً ، عدا الغزالي ، متأخرون زمنًا

(١) حاجي خليفة : كشف الظنون ، ص ١٢٩٢ .

(٢) كحاله : معجم المؤلفين ٣٤/٢ .

(٣) حاجي خليفة : كشف الظنون ، ص ١٢٩٣ .

(٤) البغدادی : إيضاح المكنون ٢٠٣/٢ .

عن الشيخ نجم الدين ؛ مما لا يُستبعد معه أنهم استفادوا منه في وضع عناوين كتبهم ! أما قبل الشيخ نجم الدين ، فلا نكاد نجد كتباً بعنوان الفوائح أو الفوائح . وفي الكتاب إشكال ، فقد ذكر العديد من المترجمين والمفهرسين ، أن الكتاب بالفارسية^(١) .. مع أن النسخ التي بين أيدينا كلها بالعربية ، حتى مخطوطات الكتاب الموجودة في طهران^(٢) ، ولا توجد أية مخطوطات منه بالفارسية . ونعتقد أن مرد الإشكال إلى أن أحد المفهرسين - ولعله حاجي خليفة - قد ذكر أن الكتاب بالفارسية ، سهواً منه ، فتناقل السهو الذين اعتمدوا عليه ونقلوا عنه دون تدقيق .

* * *

والآن .. لندخل في عالم الشيخ نجم الدين كبرى من خلال كتابه « فوائح الجمال » في تلك النشرة المحققة ؛ فنذكر أولاً طريقة التحقيق ، ثم نقدّم النص المحقق للكتاب .

(١) كشف الظنون ص ١٩٩٢ .. هدية العارفين ص ٩٠ - ربحانة الأدب ١٤٣/٦ .

(٢) يقول الدكتور قاسم غنى : توجد رسالتان باللغة العربية للشيخ نجم الدين الكبرى في مجموعة المخطوطات تحت رقم ٥٩٨ في مكتبة مجلس الأمة الإيراني (مجلس شورای ملی) إحداهما الرسالة المسماة بفوائح الجمال وفوائح الحلال ، وتاريخ كتابتها سنة ٧٠٩ وثنانها الرسالة المسماة بالهائم ، وهي ناقصة .. (تاريخ التصوف ، ص ٧٥٨) .

منهج التحقيق

نسخ التحقيق :

اعتمدنا في إخراج النص المحقق لكتاب « فوائح الجمال » على ثلاثة أصول :
 اثنان منهما نسخٌ خطية باليد ، من مكتبة الدكتور / حسن عباس زكى^(١) .
 بالإضافة إلى نشرة فريتز ماير للكتاب ، وهى النشرة التى طُبعت فى فسبَادَن بألمانيا
 سنة ١٩٥٨ . والتى اعتمد فى إخراجها على المخطوطات التالية : مخطوطة مكتبة
 آياصوفيا باستانبول رقم ٤٨١٩ بتاريخ ٨٣٠هـ وهى نسخة غير مصحّحة
 - مخطوطة المكتبة الأزهرية بالقاهرة رقم ٣٤٨٠٠ بدون تاريخ ، ولم يرجع إليها
 المحقق إلا فى بعض المواضع المشكوك فيها - مخطوطة مكتبة فيض الله أفندى
 باستانبول رقم ٢١٣٥ بتاريخ ٧٦٨هـ - مخطوطة مكتبة جامع الفاتح باستانبول
 رقم ٣٧٥٦ بتاريخ ٦٩٤هـ - مخطوطة مكتبة فيينا رقم ١٨٩٧ بتاريخ ٧٨٤هـ ..
 ويقول فريتز ماير إنه لم يوفّق فى معرفة الصلة بين النسخ المذكورة ، وإن مخطوطة
 فيض الله أفندى كانت هى النسخة التى اعتمد عليها - فى أغلب الأحوال - فى
 نشر الكتاب .

وكنا قد بدأنا فى تحقيق النص اعتماداً على نسختى الدكتور حسن عباس
 زكى ، وأوشكنا على الانتهاء ، حتى حصلنا على نشرة فريتز ماير فوجدناها نشرة
 طيبة ، إلا أننا لاحظنا الآتى :

أولاً : أنها نشرة نفدت من زمن طويل ، ويبدو أنها لم تطبع على نطاق واسع ؛
 والحصول عليها أمر صعب ، أهون منه الحصول على إحدى مخطوطات الكتاب .

(١) حسن عباس زكى من رجال العلم والسياسة البارزين فى مصر المعاصرة ، ولد فى مدينة نورسعيد سنة
 ١٩١٧ ودرس فى كلية التجارة ثم أكمل دراساته العليا فى واشنطن ، وتولى الوزارة عدة مرات من سنة
 ١٩٥٧ إلى سنة ١٩٧١ ثم عمل مستشاراً مالياً للشيخ رايد بن سلطان وهو يتولى اليوم رئاسة العديد من
 البنوك والشركات ، إلى جانب رئاسته للمجلس الأعلى لجمعية التبناك المسلمين .. وتحتوى مكتبته
 الخاصة على كنوز التراث العربى المطبوع والمخطوط .

ثانياً : أن النشرة خالية من تعليقات الحقن إلا في بعض المواضع التي لا تتعدى أصابع اليد الواحدة . وقد أوردنا تلك التعليقات بنصّها في هوامش تحقيقنا للكتاب الذي رأينا أنه بحاجة إلى تلك التعليقات الكثيرة التي وضعناها في تحقيقنا هذا .

ثالثاً : أن هناك العديد من الاختيارات غير الصائبة ، أو غير الدقيقة ؛ فاستبعدناها من المتن وذكرناها في هامش التحقيق لمن أراد المراجعة .

ومع ذلك ، فالنشرة - كما أسلفنا - طيبة ، وكان من الممكن أن نقنع بها ونصرف عن تحقيق الكتاب لولا ندرتها وصعوبة الحصول على نسخة منها .. وقد رمزنا لتلك النشرة في هوامش التحقيق بالرمز (أ) .

أما نسختنا مكتبة الدكتور حسن عباس زكى ، فهما كالآتي : المخطوطة الأولى حديثة النسخ ، واضحة الخط ، ناسخها كثير السهو . وهى تقع في ٨٠ ورقة (مقاس ٢٤ × ١٧ سم) وقد رمزنا إليها في الهامش بالرمز (ب) والمخطوطة الثانية تقع في ٣٢ ورقة من الحجم الكبير (مقاس ٣٧ × ٢٦ سم) وهى رديئة الخط ، وإن كان ناسخها أدق من الناسخ الأول .. وقد رمزنا لها بالرمز (ج) .

وفي إخراجنا للنص لم نعتمد على أصل واحد نعتبره أساس التحقيق ، بل كانت غايتنا استخراج نص سليم بالاعتماد على الأصح من الأصول الثلاثة التي اعتمدنا عليها . وقد أخرجنا النص مشكولاً في بعض المواضع المُستشكلة ، ووضعنا علامات الترقيم والفواصل ، وقسمناه إلى فقرات مناسبة .

الهوامش :

تشتمل هوامش التحقيق على الآتي : الاختلاف بين النسخ الثلاث ، تخريج الآيات والأحاديث النبوية^(١) ، التعليق على النقاط الدقيقة الواردة في المتن ، شرح المصطلحات الصوفية .

(١) إذا وردت في النص إشارة إلى آية أو حديث نبوى ، ذكرنا ذلك بنصه في الهامش لتضخ تلك الإشارة .. وإذا كان للآية أو الحديث أكثر من تخريج ، ذكرناه في الهامش كاملاً .

وقد اهتمنا بالتعليقات الهامشية على النص ، لتكون باباً للفهم الصحيح لعبارات الشيخ وإشاراته ، خاصةً أنه يلجأ في أحيان كثيرة لاستخدام الرموز الصوفية التي تدق عن أفهام بعض القراء ، إن لم يكن أغلبهم .. ومع ذلك ، فلم نسرف في التعليق بحيث يصير بحثاً مفرداً حول هذه النقطة أو تلك ، وإنما اكتفينا بالقدر الذى يسمح بقراءة النص قراءةً صحيحة ، مع ذكر المراجع لمن يريد الاستزادة .

العناوين الجانبية :

لم نكن يوماً من أنصار وضع المحقق للعناوين الجانبية في متن النص ، لكننا اضطررنا لذلك في هذا الكتاب نظراً لعدم كفاية العناوين فيه ، فالشيخ يضع لبعض الفصول عناوين ولا يضع للبعض الآخر ويحشد الموضوعات متنقلاً بسرعة من دقيقة صوفية إلى معايينة ذوقية إلى شرح مصطلح أو بيان حالٍ وذكر وقائع ، دون أن يضع من الفواصل والعناوين ما يمهد وينبه للتنقل بين تلك الموضوعات .

ولذا كانت هذه هي المرة الأولى التي نضع فيها عناوين جانبية لنصٍّ محقق ، كي تسهل متابعة الشيخ نجم الدين وهو ينتقل من موضوع لآخر .. فإذا كان العنوان موجوداً في الأصول ، تركناه كما هو - مع كتابته بينط مميّز - وإن كان العنوان من عندنا ، وضعناه بين أقواس معقوفة [] ليكون متميزاً عن النص الأصلي ، ومن البديهي أن العناوين التي وضعناها ، مستمدة من كلام الشيخ نفسه ، بحيث لا تبدو مقحمةً على النص .

الرموز المستخدمة :

استخدمنا في هوامش التحقيق تلك الرموز ، للاختصار :

- أ نشرة فريتز ماير لفوائح الجمال .
- ب مخطوطة د. حسن عباس زكى الأولى .
- ج مخطوطة د. حسن عباس زكى الثانية .
- + إضافة هامشية في أحد الأصول .
- كلمة ساقطة من أحد الأصول .

والنقط المتجاوزة (.) لا تشير إلى مواضع ساقطة ، كما هو الحال في بعض النشرات المحققة .. وإنما هي ، فقط ، للفصل بين العبارات على نحو ييسر القراءة . وتجدر الإشارة إلى أنه لا توجد في النص أية مواضع ساقطة أو غير مقروءة ، فنصُ « الفوائح » كما سنقرأه ؛ نصٌ كامل .

* * *

وتبقى نقطة أخيرة ، لاحظناها أثناء التحقيق ، وهي تلك العجمة التي نراها في النص كاستخدام الضمائر وأسماء الإشارة بشكل غير دقيق ! فنرى (هذا) تشير إلى المؤنث ، والعكس .. إلى جانب استخدام حروف الجر على نحو غير دقيق . وقد اعتقدنا أول الأمر أن تلك العجمة من الشيخ نجم الدين ، نظرًا لأن العربية لم تكن لغته الأولى كالفارسية .. وفي اللغة الفارسية لا توجد فروق بين المذكر والمؤنث ، فالضمير واسم الإشارة واحد في الحالين . لكن هذا الاعتقاد ثبت تهافته لما راجعنا أعمال وكتابات الشيخ ، كالمسائل الصوفية والتفسيرات القرآنية ، فوجدناها سليمة اللغة ؛ بل فصيحة وبلغية . هذا بالإضافة إلى أن لغة التأليف الأولى عند الشيخ هي العربية وليست الفارسية . فهو لم يؤلف بالأخيرة إلا تلك الرباعيات الشعرية ، أما كتبه ورسائله فكلها بالعربية التي كانت لغة الدين والثقافة في عصره .

وهكذا لم يبق إلا القول بأن الشيخ أملى الكتاب على أحد مريديه ممن لم يتقنوا العربية إتقاناً تاماً ، أو أن أحد النساخ الأصليين للكتاب كان من الفرس غير المتقنين للعربية ، فكتب تلك الهنات اللغوية ، ثم جاء النساخ من بعده وتناقلوا الكتاب كما هو ، خاصة أن وفاة الشيخ كانت إبان هذا الخراب الذى أحدثه المغول ، مما يعنى أن مكتبة الشيخ الأصلية تبددت لا محالة ، فلم يبق من مؤلفاته إلا تلك النسخ التى كُتبت فى أماكن بعيدة ، وفى عصور بالية .. فكان ضمن ذلك ، تلك النسخة التى خطها ذلك الفارسى . ذو العجمة ، وتناقلها النساخ من بعده كما هى .

وعلى أية حال ، فقد أصلحنا تلك الهنات ، مع التنبيه فى الهامش عليها .. خاصة أنها قليلة ، ولا تؤدى إلى تغيير سياق كلام الشيخ نجم الدين .

★ ★ ★

فوائح الجمال وفوائح الجلال

(النص المحقق)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى عَلَّمَنَا منطَقَ الطير^(١) ، وأَمَّنَّا غَوَائِلَ الغير^(٢) ، وبَصَّرَنَا بعلامات السير^(٣) .. حمداً يتضاعف أبداً ، والصلاة على رسوله سرمدًا .

قال شيخنا ومولانا ، الإمامُ الأجلُّ ، نجم الملة والدين ، قطب الإسلام والمسلمين ، برهان الطريقة ، مُحَبِّى السُّنَّةِ^(٤) ، حُجَّةُ الحَقِّ^(٥) ؛ أبو الجنَّاب أحمد بن عمر بن محمد بن عبد الله ، الصوفى ، الحَيَوِّى^(٦) ، الخوارزمى ، المعروف بنجم الدين الكُبرى . قَدَّسَ الله روحه ، ورضى عنه وعن والديه :

[حقائق صوفية]

اعلم يا حبيبى - وفَّقَكَ الله لما يحبُّ ويرضى - أن المُرادَّ الله ،

(١) منطَقُ الطير ، عنوانٌ لعمل صوفى شهير تحدث فيه مؤلف « فريد الدين العطار » عن رحلة الأرواح إلى الحضرة الإلهية ، بأسلوب شعريٍّ رمزيٍّ آسر .. والضمير في « عَلَّمَنَا » هنا ، يعود بالأصالة إلى النبي سليمان - الذى علَّمه الله لغة الطير - وبالإضافة إلى أولياء الله الذين يسمعون الرسائل الإلهية الميثوقة فى أصوات الطيور .. وهذا لونٌ من السماع الصوفى الخاص .

(٢) الغير ، هم كل ما سوى الله .. ويُشار إلى ذلك بلفظتى : غير (أغيار) - سوى .

(٣) يقصد : قطع المراحل فى الطريق الصوفى العارج إلى الله .

(٤) يشير هذا اللقب إلى كذب الادعاء بأن الشيخ نجم الدين كان شيعيًا .

(٥) أى الذى يكون حُجَّةَ الله على خلقه يوم الحساب .

(٦) سةٌ إلى بلدة « تحيَّوق » من نواحي خوارزم .

والمريد نورٌ منه^(١) . وأن الله ما ظلم أحداً . وأن كُلَّ أحدٍ ففيه روحٌ منه ، وعقل له^(٢) . وجعل له سمعاً وأبصاراً وأفئدة^(٣) . وأن الناس في عمى ، إلا من كشف الله عنه الغطاء ؛ والغطاء ليس شيئاً خارجاً عنهم ، بل هو منهم ، وهو : ظلام وجودهم .

[اختبار روحى]

يا حبيبي ، أطبق جفنيك وانظر ماذا ترى . فإن قلت « لا أرى شيئاً » فهو خطأ منك ! بلى تُبصر ، ولكن « ظلام الوجود » لفرط قربهِ من بصيرتك ، لا تجده .

فإن أحببت أن تجده^(٤) ، وتبصره قدامك - مع أنك مطبق جفنيك - فنقص من وجودك شيئاً ، أو ابعُد من وجودك شيئاً . وطريق تنقيصه ، والإبعاد منه قليلاً : المجاهدة .

ومعنى المجاهدة « بذل الجهد في دفع الأغيار » أو « قتل الأغيار » ؛ والأغيار : الوجودُ والنفسُ والشيطان .

[طرق المجاهدة]

وبذل الجهد مضبوطٌ بطرق :

(١) في ب : نوره - والمريد هو الصوفى المبتدئ . والمعنى هنا : أن الله تعالى هو المطلوب الحقيقى للمتصوف ، وأن المريد لا يريد الحق تعالى إلا بتوفيق منه عز وجل .

(٢) لعل المراد هنا ، هو النفخة الإلهية في آدم ، تلك التى يتوارثها بنوه .

(٣) الآية : وجعلنا لهم سمعاً وأبصاراً وأفئدة .. الأحقاف ٢٦ .

(٤) الضمير هنا عائد إلى الله - عز وجل - الذى هو المراد .

الأول ؛ تقليل الغذاء بالتدريج .. فإن مَدَدَ^(١) الوجود ، والنفس ،
والشيطان ؛ من الغذاء .. فإن قَلَّ الغذاء ، قَلَّ سلطانها^(٢) .

والثاني ؛ تركُّ الاختيار وإفناؤه في اختيار شيخ مبلغ مأمون^(٣) ، ليختار
له ما يُصلحه . فإنه^(٤) مثل الطفل أو الصبي الذي لم يبلغ مبلغ الرجال ، أو
السفيه المبذّر .. وكُلُّ هؤلاء ، لا بدّ لهم من وصيّ ، أو وليّ ، أو
قاضي ، أو سلطانٍ يتولى أمرهم^(٥) .

(١) ب ، ج : مرد .

(٢) الجوع هو أحد الطرق الأربعة للمجاهدة ، وهي الطرق التي ذكرها « سهل بن عبد الله
التستري » في عبارته الشهيرة : ما صار الأبدال أبدالاً إلا بأربع خصال ، بإخماس
البطون ، والسهر ، والصمت ، واعتزال الناس (انظر : قوت القلوب في معاملة المحبوب
٩٥/١ - إحياء علوم الدين للغزالي ٧٥/٣) وقد عُرفت هذه الطرق بعد ذلك اختصاراً ،
بالجوع والسهر والصمت والخلوة .. والأبدال مرتبة في طريق الولاية .

أما عن المجاهدة بالجوع ، فقد استند فيها الصوفية للعديد من الأحاديث النبوية
الشريفة في فضل الجوع وذهم الشعب ، وما يشير إليه الشيخ هنا مستمد بشكل خاص من
الحديث : إن الشيطان يجري في ابن آدم مجرى الدم فضيقوا مجاريه بالجوع (رواه
السيوطي في الجامع الصغير ٨٢/١) .

وكان زهاد الشام الأوائل ، يسمون الجوعيين من كثرة مجاهدتهم به ، ثم توالى
مجاهدات الصوفية بتلك الرياضة الجوعية وتكررت إشاراتهم وعباراتهم حولها ، حتى إن
الغزالي ذكر في الإحياء (٨١/٣ وما بعدها) عشرة فوائد للجوع اومع ذلك فقد نبّه
المتصوفة الكبار على أن المريد لا يجوز له أن يمعن في رياضة الجوع حتى تسقط قواه ويقعد
عن القيام بالفروض والواجبات الشرعية .

(٣) الشيخ هو المرشد الروحي في الطريق الصوفي ، القائم بتربية المريدين وحفظ أوقاتهم عليهم
من جهة الشريعة والحقيقة . وللشيخ المرى صفات وسمات وخصال وشروط ومهام ،
يضيق المقام هنا عن استعراضها ، وقد تناولنا ذلك بشيء من التفصيل في كتابنا : الطريق
الصوفي (دار الجيل - بيروت ، ص ٤٣ وما بعدها) كما يمكن الرجوع إلى الفصول
الوافية التي وضعها السهروردي في كتابه : عوارف المعارف ص ٧٣ وما بعدها ،
ص ١٩٨ وما بعدها .

(٤) الإشارة هنا للمريد المبتدئ .

(٥) ب : أمره .

والثالث من الطرق ؛ طريقة الجُنَيْد^(١) - قَدَّسَ اللهُ روحه - وهى ثمان شرائط : دوام الوضوء^(٢) ، ودوام الصوم ، ودوام السكوت^(٣) ، ودوام الخلوة^(٤) ، ودوام الذكر - وهو : لا إله إلا الله - ودوام ربط القلب بالشيخ واستفادة علم الواقعات منه بفناء تصرفه فى تصرف الشيخ ،

(١) هو شيخ الطائفة « الصوفية » أبو القاسم الجنيد بن محمد بن الجنيد ، ولد سنة نيف وعشرين ومائتين (سير أعلام النبلاء ٦٦/١٤) وتوفى سنة ٢٩٨ هجرية على قول الذهبى (المرجع السابق ص ٧٦) أو سنة ٢٩٧ هجرية على قول السلمى (طبقات الصوفية ص ٣٦) .

ويعد الجنيد من رواد الطريق الصوفى الذين التزموا فى أحوالهم وأقوالهم بظاهر الشرع ، إذ كان من أهل التمكن الذين لم تصدر عنهم الشطحات والمعانى الغريبة - كالحلاج - مما جعله فى مرتبة لا يختلف عليها اثنان من حيث الرفعة .. وكان الجنيد صوفياً ومتكلماً وفقهياً - على مذهب أئمة ثور - ومحدثاً ، وله فى التصوف لطائف ورسائل نُشرت مؤخراً . راجع ترجمته فى :

حلية الأولياء ٢٥٥/١٠ - تاريخ بغداد ٢٤١/٧ - الرسالة القشيرية ص ١٨
طبقات الحنابلة ١٢٧/١ - المنتظم ١٠٥/٦ - صفة الصفوة ٤١٦/٢ - وفيات الأعيان ٣٧٣/١ - العبر فى خبر من غبر ١١٠/٢ - دول الإسلام ١٨١/١ - مرآة الجنان ٢٣١/٢ - طبقات الشافعية ٢٦٠/٢ - البداية والنهاية ١١٣/١١ - طبقات الأولياء لابن الملقن ص ١٢٦ - النجوم الزاهرة ١٦٨/٣ - شذرات الذهب ٢٢٨/٢ .
(٢) فى الحديث الشريف : « الوضوء سلاح المؤمن .. » ولا يزال الصوفية إلى اليوم يهتمون بهذه القاعدة الشرعية الذوقية ، فىرى الواحد منهم دائماً تجديد الوضوء ، خاصة قبل النوم .

(٣) الإشارة هنا لرياضة « الصمت » التى هى واحدة من الطرق الأربع للمجاهدة (راجع ماسبق) وهى مستعمدة أيضاً من الحديث الشريف مثل قوله ﷺ : املك عليك لسانك .. وقوله : من سرَّه أن يسلم فليسلم الصمت .

(٤) الخلوة واحدة من أهم الرياضات الروحية ، وفيها يعكف الصوفى على العبادة أياً ما ، معتزلاً الناس . وقد أفاض الصوفية فى الكلام عن فوائد الخلوة وشروطها ، راجع : قوت القلوب ٩٧/١ - إحياء علوم الدين ٢٢٦/٢ - عوارف المعارف ص ١٢١ - الرسالة القشيرية ص ١٠١ .

ودوام نفى الخواطر^(١) ، ودوام ترك الاعتراض على الله - عزَّ وجلَّ - في كُلِّ ما يردُّ منه عليه - ضرًّا كان أو نفعًا - وترك السؤال منه^(٢) .. من جنة أو تعوِّذ من نار^(٣) .

[فروق]

الفرق بين الوجود والنفس والشیطان ، في مقام المشاهدة^(٤) : الوجود ظلمةٌ شديدةٌ في الأول ، فإذا صفا قليلاً ، تشكَّل قُدَّامك بشكل الغيم الأسود ؛ فإذا كان « عرش الشيطان » ، كان أحمر ؛ فإذا صلح وأفنى^(٥) الحظوظ منه ، وأبقى^(٦) الحقوق ، صَفَا وَايِضُّ مثل المُنْزَن^(٧) .

والنفس إذا بدت ، فلوونها لون السماء ، وهو الزرقة . وبها تَبَعَانِ كَنَبَعَانِ الماء من أصل ينبوع . فإذا كانت^(٨) « عرش الشيطان » ، فكأنها

(١) الخواطر في كلام المتصوفة تعنى : الأفكار المذمومة .. ونقيضها : الواردات .
(٢) أ ، ج : عنه .

(٣) استقر في الوجدان الصوفي منذ وقت مبكر ، أن الطمع في الجنة والخوف من النار هي من أخلاق عوام المؤمنين . أما الخاصة فهم يعبدون الله حياءً منه ورغبةً في مشاهدة أنوار جماله .. وتعدُّ « رابعة العدوية » من أوائل المعبرين عن تلك الفكرة .

(٤) المشاهدة ؛ توالى أنوار التجلى على قلب الصوفي من غير أن يتخللها ستر أو انقطاع ، وهي تكون بعد المحاضرة والمكاشفة ؛ يقول الجنيد : صاحب المحاضرة يهديه عقله ، وصاحب المكاشفة يذنيه علمه ، وصاحب المشاهدة تمحوه معرفته (الرسالة القشيرية ص ٧٥) .

(٥) أ ، ج : فنى .

(٦) أ ، ج : بقى .

(٧) المنز ؛ السحاب الأبيض .. وهي كلمة قرآنية .

(٨) أ ، ج : كان .

عينٌ من ظُلمةٍ ونار ، ويكون نَبَعَانِهما أَقْلٌ .. فإن الشيطان لا خير فيه^(١) .

وفَيْضَانُ النفس ، على الوجود^(٢) ؛ وتُرْبَتُهُ منها^(٣) . فإن صفت وزكت ، أفاضت عليه الخير ، فنبت منه الخير . وإن أفاضت عليه الشر ، فكذلك : نَبَتَ منه الشر .

والشيطان نارٌ غير صافية ، مُمتزجةٌ بظلمات الكفر في هيئةٍ عظيمة . وقد يتشكّل قُدَامَكَ كأنه زنجيٌّ طويل - ذو هيئةٍ عظيمة - يسعى كأنه يطلب الدخول فيك ؛ وإذا طلبت منه الانفكاك ، فقلّ في قلبك : « يا غياث المستغيثين أغثنى » فإنه يفرُّ عنك .. واعلم أنه يبصر بك وتبصر به ، وثيابه مخيطةٌ بثيابك ؛ فإذا فصلت ثيابك من ثيابه ، عمى بصره ، وتعرّى عن ثيابه .

غير أنه يدرى أينما تكون ، فيكون معك .. فيطمع فيك ، وربما يَصْفَعُكَ ، ويريد مُعاملتك ومُلاعبتك ومُعَارَضَتَكَ ولَعْنَتَكَ إياه ؛ فإن لعنته أو صفعته أو كلّمته ، كلّمك وصفعك وقوى من اللعنة وطال أمره معك . ومهما سكّت عنه ، وصفعك فلم تصفعه ، واتكلت على الحق ، انفطم عنك ، وما صَفَعَكَ . ومهما قلت : « يا غياث المستغيثين أغثنى » بقلبك ، استغاث برّبّه وهرب عنك .

(١) يربط الشيخ نجم الدين ، بين الخير والتجدّد (النَّبْعَانِ) من جهة ، وبين الشر والسكون من جهة أخرى .. فيجعل قلة نبعان النفس وتجدّدها مواكب للظلمة ، مما يعنى أن النَّبْعَانِ هنا يراد به الفيض النوراني الذي يتجلى على مرآة النفس .

(٢) المقصود هنا « الوجود الشخصى المفرد » وليس الوجود بمعناه العام .

(٣) .٠٠ تربيته - والمعنى لا يستقيم بهذه الكلمة .

[نيران الذكر]

الفرق بين نار الذكر ونار الشيطان ، أن نيران الذكر صافية سريعة الحركة والصعود إلى فوق .. ونار الشيطان في كدرٍ ودخانٍ وظلمةٍ ، وكذلك ، بطيئة الحركة .

وكذلك يُفَرَّقُ بين النارين بطريق الحالة .. فإن السَّيَّار إذا كان في ثقلٍ عظيمٍ ، وضيقٍ صدرٍ ، وقد تعذَّرَ عليه الذكر ، ولا ينطلق له القلب ، ولا ينشرح له الصدر ، وكأنَّ أعضائه تُرَضُّ رَضًّا بالحجارة ، وهو يشاهد النار المظلمة ؛ فهي نارُ الشيطان . وإن كان السَّيَّار في خفةٍ ووقارٍ وشرح صدرٍ وطبيرة قلبٍ وطمأنينةٍ ، وهو مع ذلك يرى نارًا صاعدةً صافيةً ، مثل ما يشاهد أحدنا النار في الحطب اليابس ؛ فهي نيران الذكر في فضاء الصدر .

الذكرُ نارٌ « لا تُبْقَى ولا تذر »^(١) فإذا دخل بيتًا ، يقول : « أنا ولا غيري » وهو من معاني « لا إله إلا الله » فإذا كان في البيت حطبٌ ، أحرقه ، فكان نارًا .. وإذا كان في البيت ظلمة ، كان نورًا ، فأفناها ، ونور البيت .. وإذا كان في البيت نورٌ ، لم يكن ضيئًا له ، بل ذلك النور أيضًا ذكرٌ وذاكرٌ - ومن المذكور -^(٢) فيصطحبان جميعًا : نورٌ على نور^(٣) .

(١) الآية « وما أدراك وما سقر ، لا تبقى ولا تذر .. » المذثر / ٢٨ .

(٢) المذكور ؛ الله تعالى .

(٣) سورة النور ، آية ٣٥ .

الذَّكْرُ حَقٌّ ، وصفةُ حَقٍّ ؛ يُفْنَى الحُظُوظُ^(١) وَيُتَقَى الحقوق ..
فلا مضادةً بينهم . والحُظُوظُ أجزاءٌ زائدةٌ ، وجوديةٌ ، حصلت من
الإسراف ؛ فتقع فيهنَّ نارُ الذَّكْرِ ، فَتَفْنِيهِنَّ . وكذلك الأجزاءُ الحاصلة من
لُقماتِ الحرام ، يقع فيها سلطانُ الذَّكْرِ ، فَيَفْنِيهِنَّ .. وأما الأجزاءُ الحاصلة
من الحلال ، فلا يَدُّ له عليهنَّ لأنها حقوق .

[رموز وجودية]

الوجود^(٢) مركَّبٌ من أربعة أركان^(٣) - وكلها : ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا
فَوْقَ بَعْضٍ -^(٤) الترابُ ، والماءُ ، والنارُ ، والهواء .. وأنت تحت هذه
كلها ، ولا مطمع في الانفصال عنها ، إلا بإيصالِ الحَقِّ إلى المستحقِّ !
وهو إيصالُ الجزء إلى الكُلِّ ، فيأخذ الترابُ الترابية ، والماءُ المائية ، والنارُ
النارية والهواءُ الهوائية^(٥) ؛ فإذا أخذ كُلُّ واحدٍ نصيبه ، انفصلت عن هذه
الأحمال .

(١) يقصد حظوظ النفس وأهواءها الحسية .

(٢) الوجود هنا بمعناه العام (الأنطولوجى) وليس الوجود الفردى المستخص كما هو المراد فى الفقرات السابقة .

(٣) الأركان أربعة - أو الاستقصات - هى مكونات الوجود : الهواء والتراب والماء والنار ؛ وهى تقابل فى جسم الإنسان « الأخلاط الأربعة » التى هى : الدم والبلغم والصفراء والسوداء ؛ وتقابل فى الأمزجة « الطبائع الأربعة » التى هى : البرودة والرطوبة واليبوسة والحرارة .. راجع : شرح مشكلات الفتوحات المكية ، للجبلى ص ١٩٠ (هامش) .
ولأن هذه الأركان مادية ، فالشيخ هنا يصفها بالظلمة ؛ لأن المادة أصل الظلام ،
كما أن الروح أصل النور .

(٤) سورة البور ، آية ٤٠ .

(٥) يقصد : أن يلقى شهواته الترابية فى التراب ، والمائية فى الماء ، والنارية فى النار ، =

وطريقنا^(١) طريق الكيمياء^(٢) .. فلا بد من استخراج اللطيفة النورانية من بين هؤلاء الجبال . فتشاهد في فناء الحظِّ الترابي ، مفاوِزَ تقطعها ، فتسير المفاوِز تحتك ؛ وإنما أنتَ تسير ! ولكن مَنْ كان تسير به السفينة^(٣) ، يحسب أن السواحل تمرُّ عليه ﴿ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ ﴾^(٤) وتشاهد - أيضاً - كأنك في بئر ، والبئر تنزل من فوق ، وإنما تصعدُ إلى فوق .. وتشاهد - أيضاً - قرى^(٥) ، وبلاذاً ، ودوراً ؛ تنزلُ عليك من فوقك ، وتغنى من تحتك . كما تشاهد الجرار^(٦) على شطِّ البحر ، تقع^(٧) فيه ، فيغرق^(٨) !

= والهوائية في الهواء .. وكلها تصورات رمزية تشير إلى التخلص من العلائق المادية وتعلقات النفس الإنسانية بكل ما هو أرضي ، وذلك كي تتخفف من أحمالها الحسية ، وتترق في المقامات النورية .

(١) يقصد : طريقته في التخلص من علائق النفس .

(٢) الكيمياء هنا ، بمعنى فصل العناصر عن بعضها .. أى معالجة الأركان الأربعة وعزلها عن بعضها - بنار المجاهدة - لاستخراج « اللطيفة النورانية » منها ، وهى اللطيفة الربانية المودعة في المنشأة الإنسانية بمقتضى النفخة التى نفخها الله تعالى في آدم ، ثم توارثها بنوه .

(٣) السفينة هنا تشير إلى الارتحال الروحي في بحر الأحوال والمقامات .

(٤) سورة النمل ، آية ٨٨ .

(٥) أ ، ج : قرايا .

(٦) أ ، الجدار .

(٧) أ : يقع .

(٨) هذا المشهد موغل في الغرابة ، وتأويله - كما يبدو لنا - أن الصوفي إذا ارتقى ، يرى البحر يغرق في ماء الجرار ! أى إن قلوب أهل المعارف (الجرار) إذا فاضت بالمعرفة ، غرقت المعارف في فيضانها ، مع أن المعارف بحر واسع .

(م ٩ - فوائح الجمال وفواتح الجلال)

واعلم - يا حبيبي - أنك لا تتخلص من أربعة الوجود ، الترابي والمائي والناري والهوائي ، بالكُلِّيَّة ؛ إلا بالموت الكبير الأخير^(١) .. ولكن بهذا الموت^(٢) ، يفنى منك بعضه ، فتشاهد - عَيَانًا - ما علمته عقلاً .

[مشاهدات عروجية]

وإذا شاهدت بحارًا تعبرها ، وأنت فيها مستغرقٌ ؛ فاعلم أنه فناء الحظّ المائي . وإذا كانت البحار صافية ، وفيها شمسٌ غريقةٌ ، أو أنوارٌ أو نيران ؛ فاعلم أنها بحار المعرفة .

وإذا شاهدت مطرًا نازلًا^(٣) ؛ فاعلم أنه مطرٌ ينزل من محاضر الرحمة ، لإحياء أراضى القلوب الميّتة .

وإذا شاهدت نيرانًا ، وأنت^(٤) خائضٌ فيها ، ثم تخرج عنها ؛ فاعلم أنه فناء الحظوظ النارية .

(١) يتردد هذا المعنى كثيرًا في كتابات الصوفية ، فهم يؤكدون على أن الخلاص النهائي لا يكون إلا بالموت ، فهناك يكون الخلاص من أسر المادة وتكون المشاهدات التامة ويكون معنى ﴿ لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد .. ﴾ سورة ق آية ٢٢ .

(٢) يقصد بالموت الجزئي الذي هو إماتة شهوات النفس وتعلقاتها الحسية ، مع بقاء الوجود الجسماني .. وبخصوص الموت الجزئي هذا ، وضرورة الموت الكلي الموصوف هنا بالموت « الكبير الأخير » يمكن ملاحظة الآية : ﴿ الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى ... ﴾ الزمر ، آية ٤٢ كما يمكن الرجوع إلى الأجزاء الأخيرة من قصتي « حى بن يقظان » لاسيما ، « الغرة الغريبة » للسهروردي للإشراق .

(٣) أ : ينزل .

(٤) أ ، ج : أنك .

وإذا شاهدت بين يديك فضاءً واسعاً ، ورحباً شاسعاً ، ومن فوقه
هواءٌ صافٍ .. وترى في نهاية النظر ألواناً ، كالحُضرة والحُمرة والصُفرة
والزُرقة ؛ فاعلم أن عبورك على هذا الهواء إلى تيك الألوان ، والألوان ألوان
الأحوال . فلون الحُضرة علامة حياة القلب ، ولون النار الصافية علامة
حياة الهمة - والهمة معناها القدرة - وإن كان اللون كدراً ، فذاك نيران
الشدة ؛ وهو أن يكون السيّار في تعبٍ وشدةٍ من المجاهدة مع النفس
والشيطان . والزُرقة لون حياة النفس .. والصفرة علامة الضعف .

وهذه معاني تنطق بأنفسها ؛ مع صاحبها ، بلساني الذوق
والمشاهدة ، وهما شاهدان عدلان . فإنك تذوق بنفسك ما تشاهد
ببصيرتك ، وتشاهد ببصيرتك ما تذوق بنفسك ؛ وهو أنك متى شاهدت
الحُضرة ، أحسست من قلبك انطلاقاً ، ومن صدرك انشراحاً ، ومن
نفسك طيبةً ، ومن روحك لذّةً ، ولبصيرتك قوّةً .. وهذه صفات
الحياة .

وكذلك ، نستدلُّ بأحوال النبات ، فنقول : النبات متى كان أخضر ،
دَلَّ على قُوّته وحياته وسرعة نموه . ومتى ما كان أصفر ، دَلَّ ذلك على
ضعف النبات - لعرضٍ ألمَّ به وعرضٍ له - وكذلك الوجوه إذا
احمّرت ، دَلَّ ذلك على عرضٍ عَرَضَ لها من خجلٍ أو وجَلٍ أو سرورٍ أو
تَرَجٍّ أو هموم .

فإن اتّحد اللون ، فاعلم أنه استقامةٌ وجمعيةٌ في تلك الحالة ، وإذا
اجتمعت الألوان واختلطت في حالة واحدة فهو « تلوين » ، فإذا استمر

لونُ الخضرة واستقام ، فهو « تمكين^(١) » .. ولونُ الخضرة آخرُ لونٍ يبقى ، ومن هذا اللون تسطعُ السواطعُ ، وتلمعُ البروقُ اللوامعُ^(٢) . والخضرةُ تصفو وتكدر ، فالصفاء من غَلَبَاتِ نورِ الحقِّ ، والكدر من غَلَبَاتِ ظلمات الوجود^(٣) .

[القلب والقلب]

واعلم أن اللطيفة^(٤) ، التي هي القلب ، لأنها كانت لطيفة^(٥) ، تتقلبُ من حالةٍ إلى حالةٍ ، كالماءِ يتلون بلون الظرف^(٦) ، والسماءِ تتلون بلون الجبل .. جبل قاف^(٧) ! ولذلك سُمِّيَتْ قلبًا ، لانقلابها ؛ وكذلك سُمِّيَ قلبًا ، لأجل أنه قلبُ الوجود والمعاني .

(١) التلون والتكين اصطلاحان شهيران في لغة الصوفية ، يشير الأول إلى أحوال أهل البداية ، والثاني يشير إلى رسوخ الأقدام في مقامات الولاية .

(٢) السواطع والبروق واللوامع ، من اصطلاحات الصوفية الدالة على تلك الأنوار التي تتجلى على الصوفي في رحلة عروجه .

(٣) الوجود هنا بمعنييه : الأنطولوجي العام ، والفردى المشخص .

(٤) اللطيف في اللغة ، الصغير الدقيق . يقال « لطف الشيء » إذا صغر ودق (لسان العرب ٣٦٩/٣) وفي لغة الصوفية : اللطيفة هي كل إشارة دقيقة المعنى يلوح منها في الفهم معنى لا تسعه العبارة . واللطيفة الإنسانية ، هي النفس الناطقة المسماة عندهم بالقلب ، وهي في الحقيقة تنزل الروح إلى رتبة قريبة من النفس ، مناسبة لها بوجه ومناسبة للروح بوجه ، ويسمى الوجه الأول « الصدر » والثاني « الفؤاد » (اصطلاحات الصوفية للقاشاني ص ٧٣) .

(٥) يستغل الشيخ هنا المعنى المزدوج للكلمة في الإصطلاح الصوفي المشار إليه في الهامش السابق .

(٦) سئل الجنيد عن المعرفة والعارف ، فقال : لونُ الماء ، لونُ إنائه .

(٧) جبل قاف ، هنا : قبة السماء .. وسوف تكون لهذه الكلمة دلالات عميقة عند صوفية الفرس والعرب ، منها : القدرة اللانهاية - المستحيل وصوله ... إلخ .

والقلبُ لطيفٌ ، يقبل عكس الأشياء والمعاني الدائرة حواليه ، فيتصوّر لونُ الشيء في اللطيفة المقابل لها ، كما تنعكس الصور في المرآة والمياه الصافية .. وكذلك سُمِّي قلبًا ، لأنه نورٌ في قلب قليب^(١) الوجود ، كنور يوسف - عليه السلام - في الجُبِّ^(٢) .

واعلم أن قلب الوجود يبدو من قُدَّامك - بجذاء وجهك - عميقًا ، لا تشاهد أعمق منه في عالم الشهادة^(٣) . وهذا البئر في الأول ، يكون من فوق رأسك ؛ ثُمَّ يبدو من قُدَّامك ، ثُمَّ من تحتك - وذلك في نهايات الطريق .. وترى - في قعر البئر - الوجود نورًا أخضر ، وذلك : نهاية الوجود والحدوث وبداية القَدَمِ^(٤) .

وهذا البئر ، إذا تجلَّى لك في اليقظة ، أنسَتْ إليه وتعجبت منه ؛ وإذا تجلَّى لك في الغيبة ، وقعت عليك هيبَةٌ منه وشدةٌ وزلزالٌ ، حتى تكاد تفارق الروح .. ولا تلتجئ حينئذٍ - من طريق الحالة الأولى - إلا إلى الذِّكْرِ .

(١) القلب : البئر .. وسُمِّي بذلك لأنه حين حُفر ، قُلب ترابه (لسان العرب ١٤٦/٣) .
(٢) الإشارة إلى القصة القرآنية الخاصة بإلقاء أخوة يوسف له في البئر (سورة يوسف ، آية ١٠ وما بعدها) .

(٣) عالم الشهادة هو العالم المحسوس المقابل لعالم الغيب غير المحسوس .
(٤) القدم والحدوث لفظتان لهما مترادفات كثيرة مثل : عالم الأمر وعالم الخلق ، الوجود الحقيقي والوجود المعار ، وغير ذلك . وكلها تشير - على الإجمال - إلى الفرق بين العالم الإلهي الأزلي الذى ينعدم فيه الزمان ، والعالم الزماني الذى تكون فيه المخلوقات .. وهناك مشكلة عويصة في الفكر الإسلامى ، تُعرف بمشكلة العالم بين القدم والحدوث (راجع ؛ جلال شرف : الله والعالم والإنسان في الفكر الإسلامى ، الباب الثانى) .

ويبدو ذلك في البئر ، من عجائب الملكوت وغرائب الجبروت ، ما لا تنساه أبدًا الدهر ، لشدة ما تقاسى فيه من القسوة^(١) والخوف والشدائد . فتفرح به ، وتخاف عنه ، وتأنس إليه ؛ فتذوق الأحوال المتضادة ، في حالة واحدة .. وقد يتجلى في أوائل المشاهدات مختل الحال والبناء ، ظلمانيًا في هيئة عظيمة ، ثم ينصلح البناء وتترتب لبننة فوق لبننة ، ثم يفنى البناء ، وصور اللبنة ، فلا ترى إلا بئرًا من نور أو خضرة . ففي الأول إنما كان ظلمانيًا ، لأنه كان منزل الشياطين . وفي الثاني إنما تنور واخضر ، لأجل أنه صار مهبط الملائكة والرحمة .

[مراتب الوجود]

واعلم أن الوجود ليس شيئًا واحدًا . فما من وجود ، إلا فوقه وجود آخر أخص وأحسن منه ، إلى أن ينتهي إلى وجود الحق . وفي كل وجود ، في الطريق ، بئر .

وأنواع الوجود تنحصر في سبعة - وانحصار أعداد الأرض والسماء في السبعة إشارة إلى هذا - وإذا عُرِجَت على الآبار السبعة في أنواع الوجود ، بدت لك سماء الربوبية والقدرة .. هواها نور أخضر خضرة شديدة من نور « ذات حياة » يمشی - أبدًا - بعضها إلى بعض وفيها من القوة ما لا تطيقه الأرواح ؛ لكنها مع ذلك عاشقة لها^(٢) عشقًا ذوقيًا .

(١) أ : القوى .

(٢) .. عليها !

وعلى السماء نقطُ أشدَّ حمرةً من نارٍ ولعل^(١) وعقيق ، متناسبة الوضع ،
خمسٌ خمس ؛ يجدُّ صاحبُ الحالة حنينًا وشوقًا إليها ، يطلب الإلحاق بها .
واعلم أنه يعرجُ بالسَّيَّار إلى هذا المقام - مقام القدرة الربوبية -
أربعةً من الملائكة .. واحدٌ من^(٢) يمينه ، وآخر عن شماله ، وآخر من
تحتة ، وآخر من وراء ظهره . فإذا عرجوا به إلى هذا المقام ، جرى على
لسان عجز العبودية :

أَنْتَ رَبِّي وَقَادِرِي

إِنْ شِئْتَ أَحْيِنِي

وإِنْ شِئْتَ أَمِتْنِي

ويخافُ ، لما يستقبله من شدة القوة^(٣) والشَّد . ويتمنى حينئذٍ ، ليته
يُؤْخِذُ منه الروح ويُترك فيه . ويُحكى^(٤) كيفية أخذ الروح منه - أو
النَّفْس - وأنه متى ما أُخرج من البئر إلى ذلك العالم لم يبق معه روحٌ أو
نفس .. ثمَّ يُرجع به ، من ثَمَّة ، إلى عالم الشهادة .

(١) اللعل : حجر نفيس يشبه الياقوت ، يُقال له في العربية « بَلَحُش » وفي الفارسية القديمة
« لعل » واسمه الأوروي المعاصر « Spinel » وهى لفظة مستمدة من كلمة إغريقية
معناها الأصل « الشرارة » إشارة إلى اللون الأحمر الناري الذي يختص به هذا الحجر
(أزهار الأفكار في جواهر الأحجار ، للتيفاشي ، ص ٢٥٧) .

(٢) ب : عن .

(٣) أ : القوى .

(٤) أ : ويحسّ - مطموسة في ب .

[مَشْهَد]

أول ما يردُّ على السَّيَّار من الأنوار ، أنوار العزة في مقام التجلَّى ، من فوق رأسه - وهو في البئر - فيتزلزل ويضطرب وينقبض من هول ما يرد عليه ، ويسجد اضطرارًا ، ثُمَّ يعرج من البئر إلى فوق ، لأنه لا يصل ظُلمانيَّ إلى نورانيَّ ، إِلَّا إِذَا طُهِرَ وَنُورَ ، فصار من جنسه ، ثُمَّ يصلُّ إليه .

وأكثر ورود الملائكة من وراء الظهر ، وقد يَرِدُونَ^(١) من فوق . وكذلك السكينة ، وهي جمعٌ من الملائكة تنزل في القلب ، تجدُّ من ورودهم راحة وطمأنينة في القلب .. وتُؤْخِذُ منك ، حتى لم يَبْقَ لك اختيار في الحركة ، والقول ، والتفات الخواطر إلى سوى الحق .

ومن علامات حضور الرسول معك - عليه السلام -^(٢) أن تجرى الصلاةُ على لسانك من غير اختيارك .

[مُعَايِنَة]

عَرَّجَنِي مَلَكٌ ، فجاء من وراء ظهري ، فالتزمني واحتملني ، ودار إلى وجهي ، فقبلني ، وتشعَّشع نُورُهُ في بصيرتي .. ثُمَّ قال : « بِسْمِ اللَّهِ^(٣) الذي لا إله إلا هو الرحمن الرحيم »^(٤) وعرج بي قليلاً ، ثم وضعني .

(١) . يرد !

(٢) ب : الرسول ﷺ معك .

(٣) ب : باسم .

(٤) الآية : ﴿وَالْهُكَمُ إِلَهُ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ (سورة البقرة ، آية ١٦٣) .

كنتُ أسمعُ في وقت السَّحر - وأنا ذاكرٌ في الخلوة - تسبيح الملائكة ، وكأنَّ الحقَّ نزل إلى السماء الدُّنيا^(١) ، فأسرعت الملائكة في قولهم .. كأنهم خافوا وطلبوا النجاة ، كالصبي يخاف الأب إذا غضب عليه وهم بالضرب ، فيقول : « تُبْتُ ، تُبْتُ » . فسمعت من قول الملائكة حين اشتدَّ عليهم الخوف : « يا قادر ، يا قادر ، يا قادر ، يا مقتدر » فلما فُزَّع عن قلوبهم ، قالوا : اللهم ارزقنا من ثوابك جنائنا ، ومن عقابك أماننا .

[الخواطر]

الفرق بين خاطر النفس وخاطر الشيطان .. خاطر الحقَّ وخاطر النفس^(٢) :

فخاطر الحقَّ يدخل فيه : خاطر القلب وخاطر الملكة ؛ وخاطر النَّفس لا يدخل فيه خاطر الشيطان . فيفارقه بشيء ، فإن خاطر القلب وخاطر المَلَك ، بإذن الله عزَّ وجلَّ ، فإنهما مَلَكَان معصومان لا يعصيان الله ما أمرهما ويفعلان ما يُؤمران^(٣) . ومحض خاطر الحقَّ يكون إلهاماً ؛ والإلهام صحيحٌ ، وإذا خَطَرَ لا يعترضُ عليه عقلٌ ولا نفسٌ ولا شيطانٌ ولا قلبٌ ولا مَلَكٌ .

(١) في الحديث الشريف : ينزل الحق تعالى إلى سماء الدنيا كل ليلة فيقول « هل من مستغفر فأغفر له .. » .

(٢) أ : الفرق بين خاطر الحق وخاطر النفس .

(٣) إشارة إلى قوله تعالى : ﴿ عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يُؤمرون ﴾ .

ثُمَّ هذا الإلهام ؛ تارةً يكون في الغيبة ، فيكون أشد ظهوراً وأقرب إلى الذوق . والسِّرُّ فيه ؛ أن الخواطر الحَقَّانية هي العلم اللَّدُنِّي ، وهي ليست في الحقيقة خواطر ، بل هو : علمٌ أزلِّي ، علَّمه الله الأرواح حين خاطبهم : اَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى (١) .. وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا (٢) ، فتعلَّمت هي - كذلك - وهي معلَّمة الآن ، بالعلم اللَّدُنِّي . إلا أن العلم قد يُستر ، بظلام الوجود ، فإذا صفا السَّيَّارُ وغاب عن الوجود ، ظهر العلم اللَّدُنِّي - أو حكمٌ من أحكامه - فيرجع السَّيَّارُ إلى الوجود ، ومعه العلم - . وهو الإلهام ، وصار كالخطِّ المكتوب على اللوح إذا اندرس (٣) بغبارٍ وقع عليه ، ثُمَّ أزيل الغبار عنه ، فيظهر الخطُّ .

[معاينة]

غبتُ ، فأبصرتُ النَّبِيَّ - عليه السلام - ومعه عليٌّ . فبادرتُ إلى عليٍّ ، فأخذتُ بيده ، وصافحته .. وألهمتُ ، كأني سمعت في الأخبار عن النَّبِيِّ - عليه السلام - أنه قال : « مَنْ صافح عليًّا ، دخل الجنة » . فجعلتُ أسألُ عليًّا عن هذا الحديث : أصحيحٌ هو ؟ فكان يقول : نعم صدق رسول الله ﷺ ، صدق رسول الله ، مَنْ صافحني دخل الجنة (٤) .

(١) سورة الأعراف ، آية ١٧٢ (وتُعرف هذه الآية ، بآية العهد والميثاق) .

(٢) سورة البقرة ، آية ٣١ .

(٣) اندرس ؛ غاب وانمحي ..

(٤) حديث نبوي مشهور ، لم يرد في الكتب الستة المعروفة .

[وصل]

وإن الأرواح التابعة ، تعلَّمت عن الأرواح الشريفة . وهى تتعلَّم الآن ، ولكن^(١) فى عالم الغيب لا فى عالم الشهادة - كأرواح الأولياء عن أرواح الأنبياء^(٢) - فإذا غاب السَّيَّار عن وجوده ، ذاق ذلك .

وقد يقع الإلهام فى الحضور^(٣) ، ولكن يكون أخفى من الأول .. ولكن ، مع ذلك ، لا يعترض عليه شىء فى الداخل .. واستسلمت له الجوارح ، وانقادت له النفوس ، وانشرحت له الصدور ، واطمأنت له القلوب .

والمَلَك - أبداً - يَحُثُّ على المحمودات ، مع كراهة النفس لها^(٤) ؛ إلا إذا زَكَّتْ .. وإذا زَكَّتْ ، لم يَحْفَ عليها الفرق فى الخواطر .

والقلب مثله^(٥) ، إلا أنه يفارق المَلَك فى الشهوة ، والشوق ،

(١) . ولكنها - وبها لا يستقيم المعنى .

(٢) المراد هنا ، أن استفادة الأرواح التابعة من الأرواح الشريفة - فى عالم الغيب - هى كاستفادة أرواح الأولياء من أرواح الأنبياء .. ويقول الصوفية : كل ولئى على قدم نبي من الأنبياء ! ولهذا يقال عن الولي أنه عيسوى أو موسوى أو محمدى .. والطريف هنا ، ما يروى عن الإمام عبد القادر الجيلانى من أنه تفاضل مع « الخضر » صاحب موسى عليه السلام ، فاعتبر نفسه أكمل حالاً ، لأن الخضر موسوى .. وهو محمدى (راجع ؛ الشطنوفى : بهجة الأسرار ومعدن الأنوار) .

(٣) أى فى حال الصحو .

(٤) . له !

(٥) يقصد : خاطر القلب مثل خاطر المَلَك .

والحنين ، والطيش ، والطيران ، والانصباب ، والرغبة ، والمحبة ،
والعشق ، والوله ، والجنون في الحق .. وهذا هو سبب ترجيح المؤمنين
على الملائكة .

[معايمة]

قال الشيخ أبو الحسن الخرقاني^(١) ، قدس الله روحه^(٢) : صعدتُ
ظهيرةً إلى العرش لأطوف به ، فطفئتُ عليه ألف طوفة - أو كما قال^(٣) -
ورأيتُ حواليه قومًا ساكنين مطمئنين ، فتعجبوا من سرعة طوافي ،
وما أعجبني طوافهم ؛ فقلت : من أنتم ؟ وما هذه البرودة في الطواف ؟
فقالوا : نحن ملائكة ، ونحن أنوار ، وهذا طبعنا ، لا نقدر أن نجاوزَه !
فقالوا : ومن أنت ، وما هذه السرعة في الطواف ؟ فقلت : بل أنا آدمي ،
وفى نورٌ ونار ، وهذه السرعة من نتائج نار الشوق^(٤) .. والملائكة ،
فما لهم شهوة قط^(٥) .

(١) راجع ما ذكرناه عن الخرقاني في الدراسة الممهدة للنص .

(٢) ب : سره ، ومصححة فوقها .. وفي العادة ، يقال « قدس الله سره » عن الولي الذي ما يزال
حيًا ، أما « قدس الله روحه » فتقال لمن توفي ؛ وإن كانت هذه القاعدة غير ملزمة تمامًا .

(٣) تفيد تلك الجملة الاعتراضية ، الشك في تذكر عدد مرات الطواف .

(٤) + أ : ترد حكاية أخرى شبيهة بهذه في تذكرة الأولياء للشيخ فريد الدين العطار (طبعة
ليدن ١٩٠٧ ج ٢ ص ٢٥٤ س ٣ - ١٠) وحكايتنا موجودة باللغة الفارسية في
الرسالة الذكرية للأمير السيد علي الهمداني المتوفى ٧٨٦ هـ نسخة آيا صوفيا ٢٨٧٣
ورقة ٤٢٠ أ .

(٥) راجع المفاضلة بين الملائكة والكمال من الأولياء ، واختلاف الجيلي مع ابن عربي حول
هذه النقطة في تحقيقنا لكتاب : شرح مشكلات الفتوحات المكية ، للجيلي (دار سعاد
الصباح ص ٢٠٤) .

[وصل]

وأما خاطر النفس ، فهو الخاطر المفضى إلى الراحة ؛ وإن طهرت وزكت وأسلمت . فإنها إذا زكت ، تجعل راحتها في فنون العبادات وصنوف الخيرات ، وإذا كانت خبيثة كانت أماراً بالسوء . ثُمَّ إِذَا زَكَتْ ، كان خاطرها محموداً - فعلامة ذلك أنه يجذب القلب من ذلك راحةً ويطمئن ، وهى تكون آمنةً في نفسها - وإذا لم تكن زاكية ، كان خاطرها مذموماً ؛ وعلامته أنك تحسُّ في القلب ألماً ، وفي الصدر ضيقاً ، وفي الأعضاء وجعاً ، وفي النفس خيفةً ، فإن النفس خائفة منكورة ، مثل الصبى إذا سرق بيضاً أو أبق^(١) ، خاف خيفةً منكورة .. ويحسُّ صاحبها كأن الكونين وما فيهما ، يعترضون عليه .

وأما خاطر الشيطان ، فإنه قد يكون في صنوف العبادات وأنواع الخيرات وحبُّ القدرة والكرامات ! وهو لا يزال مع المرء حتى يُخْلَص^(٢) ، فإذا أُخْلِصَ فارقه ولم يطمع فيه . والشيطان يوافق النفس في خواطرها ، إذا كانت خبيثةً ، يحثُّها ويسوِّل لها ويمثِّل لها القبيح حسناً ؛ وخاطر الشيطان أصعب ، فإن خاطر الشيطان ذو فنونٍ وخاطر النفس ذو فنٍّ واحد . والنفس كالصبى^(٣) ، وعدوها الشيطان يسوِّل لها الشيء

(١) أ ، ج : إبرة ! وأبق ، هرب .. من الإباق ، وهو هرب العبد من سيده (لسان العرب

٧/١) وهى كلمة قرآنية ، قال الله تعالى في يونس : ﴿ إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴾ .

(٢) قارن هذا المعنى ، بما ورد من قول الشيطان : ﴿ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ * إلا عبادك

منهم المخلصين ﴿ .. سورة ص ، الآيتان : ٨٢ ، ٨٣ .

(٣) كثيراً ما يشبه الصوفية النفسَ بالطفل أو الصبى أو الغلام .. وفي بُردة البوصيرى

الشهيرة :

فتصدقه لصغرها .. والشيطان بالغ في المكر والحيل ، يأتي الإنسان من كُلِّ طريق ؛ إلا من باب الإخلاص .

فَكُنْ - يا حبيبي - مخلصًا . ولو كنت في الإخلاص ، فلا تَرَّ^(١) في مقام الإخلاص ، فإنه^(٢) شائبة في الإخلاص ؛ فيدخل عليك الشيطان .

وعلامةُ خاطره ، أنه إذا خطرَ : تَسْتَوْفُزُ وتَسْتَعْجَلُ ولا تجِدُ في القلب راحةً منه ، وكأنك استقبلت الظلمات . ويمازجك الرياء والالتفات إلى ما سوى الحق ، وتندقُّ أعضاؤك من نزوله عليك .

وإن الحق - بلطيف شأنه - ربما يوصل العباد إلى مقام القرب بواسطة الشيطان ! فإن الشيطان يلقي في قلوبهم حُبَّ العبادات لمراعاة الخلق ، فإذا عبدوا الله لأجل التفات الخلق إليهم ، فإذا التفات الخلق إليهم - لالتفاتهم - ازدادوا رغبةً .. فإذا استحلَّوا ذلك ، فينغمسون في بحر التعبد . والعبادة تأتي أن تكون إلا للحق ! فيجدون طعم لذة العبادة للحق ، بواسطة الأذكار ، وتظهر لوازم العبادات والأذكار - من العلوم والأسرار والأنوار - فيَعْرِضُونَ عن الخلق ويستقبلون الحق .

ولا تأمن الشيطان ، مادام معك شيء من دنياه !

= والنفس كالطفل إن تهمله شبَّ على
وفي تائية ابن الفارض :

قتلتُ غلام النفس بين إقامتي
الجدار لأحكامي وخرق سفينتي
(١) أ ، ج : ولا تر - ب : ولا ترى .

(٢) هكذا في كافة النسخ ، وفي + أ : كان المنتظر أن يقول « فإنها » .

[رواية]

جاء عن عيسى عليه السلام ، أنه كان نائماً متوسداً لَبِنَةً^(١) ، فهب من منامه ، فإذا « اللعين » عند رأسه ؛ فقال له : ما جاء بك إليّ ؟ فقال : طمعتُ فيك ! فقال : يا ملعون أنا روح الله ، كيف تطمع فيّ ؟ قال : إنك أخذت قماشي ، فطمعتُ فيك ! قال : وما ذاك القماش ؟ قال : هذه اللبنة تحت رأسك ! فرماها عيسى - عليه السلام - حتى فارقه^(٢) .

[معانيّة]

كنتُ منقطعاً إلى الله^(٣) في الخُلُوة^(٤) ، مواظباً بذكره . فجاء « اللعين » وأكثر على الخيل ، ليشوِّش الخلوة والذكر ؛ فظهر في يدي سيفُ الهمة^(٥) مكتوب عليه ،

(١) . بلبنة .

(٢) وردت هذه الحكاية في قوت القلوب للمكي وإحياء علوم الدين للغزالي وحديقة الحقيقة لسناي .. وهي بشكل عام تحوى دلالة رمزية لضرورة التجرد التام ، بمعنى أن يكون الصوفي منقطعاً عن التعلق بكل ما هو مادي .

(٣) ب : الله .

(٤) راجع ما ذكرناه عن الخلوة فيما سبق .

(٥) يعطى الصوفية لمصطلح « الهمة » أبعاداً ذوقية عميقة الغور ، فبالإضافة إلى تلك المضامين الروحية التي سيذكرها الشيخ نجم الدين فيما بعد ، نرى القاشاني وهو يفرق بين ثلاثة أنواع من الهمة : همة الإفاقة ، وهي أول درجات الهمة للسلوك والباعثة على طلب الباقي وترك الفاني - همة الأنفة وهي التي تورث صاحبها الأنفة من طلب الأجر على العمل ، بل يعبد الله على الإحسان - همة أرباب الهمم العالية وهي الدرجة الثالثة التي لا تتعلّق إلا بالحق ولا تلتفت لغيره من أحوال ومقامات ، فلا تقف بصاحبها عند الأسماء والصفات ، ولا تقصد إلا عين الذات (اصطلاحات الصوفية ص ٤٥ ، ٤٦) . وقد تناول الجنبي معاني الهمة بشيء من التفضيل ، فقال : اعلم أن الهمة =

من ذؤابته^(١) إلى قبضته : الله ، الله .. فكنتُ أنفى به الخواطر المشغلة^(٢) عن الله . فخطر على قلبي ، أن أُصنّف كتاباً - في الخلوة - أُسميه « حِيل المريد على المريد » فقلت : لا يصحّ ، إلّا بإذن الشيخ !

فشاورتُ الشيخ ، في الغيب ؛ فسمعتُ كلامه - لصحة رابطة كانت بيني وبينه^(٣) - أن انتهِ عن هذا الخاطر ، إن الله برئ من هذا

= أعز شيء وضعه الله في الإنسان ، وذلك أن الله تعالى لما خلق الأنوار أوقفها بين يديه فرأى كلاً منها مشغلاً بنفسه ، ورأى الهمة مشغلة بالله .. ثم تجلّى عليها باسمه « القريب » ونظر إليها باسمه « السريع المحيى » فأكسبها ذلك التجلّى أن تستقرب كل ما بعد عن القلوب ، وأفادها ذلك النظر سرعة حصول المطلوب ، لهذا فإن الهمة إذا قصدت شيئاً ثم استقامت على ساقها نالته على حسب وفاقها . ولاستقامتها علامتان ، العلامة الأولى « حالية » وهى قطع اليقين بحصول الأمر المطلوب على التعيين ، والعلامة الثانية « فعلية » وهى أن تكون حركات صاحبها وسكناته جميعها مما يصلح لذلك الأمر الذى يقصده بهمته ، فإن لم يكن كذلك ، لا يسمى صاحب همة ، بل هو صاحب آمال كاذبة .. (راجع المزيد فى : الإنسان الكامل ٢٢/٢) .

(١) أ : ذنابته - ب : ذبابته - غير واضحة فى ج .. وذؤابة السيف : علاقة قائمه ، وذؤابة الشيء : أعلاه (لسان العرب ١٠٥٢/١) .

(٢) ب : المثقلة ، ومصححة بأعلى .

(٣) الرابطة بين المريد والشيخ ، هى إحدى الروابط الثلاث فى الطريق الصوفى : رابطة الموت ، رابطة الشيخ ، رابطة الحضور .. وقد تناوّلها جميعاً - بالتفصيل - الشيخ إبراهيم حلمى القادري (المتوفى ١٣٩٠ هجرية) فى كتابه : مدارج الحقيقة فى الرابطة عنه أهل الطريقة .

وعن « رابطة الشيخ » يقول صاحب المدارج : وإنا نشاهد أثر ذلك التخيّل لأهل الخارج بوضوح تام على غالب أهل زماننا هذا .. وما ذلك إلا لقوة رابطتهم لتلك الدنيا واستمرار تخيلهم لها بالاستحسان والتعظيم يدل الواجب علينا من تخيل ما هم عليه بالاستقباح والتحقيق .. حتى بلغوا مرتبة الفناء فى محبتهم فلا يسمعون فيهم =

الخاطر ، فإنه خاطر الشيطان ، لَأَطْلَقَكَ في الحيلة ، وسمي نفسه مريداً ؛
أفحسبت أنه لا يشتم نفسه ، واستبعدت عن^(١) ذلك ؟ وعرضه من ذلك
أن يشغلك عن ذكر الحق ، فيتخبط عليك الأمر .. فانتبهت ، وانتبهت .

[وصل]

فإذا خطر خاطر بقلبك - أو فضاء صدرك^(٢) - فشاور فيه الشيخ ،
فإن قال : « هذا خاطر الحق » فاعلم أنه كذلك^(٣) . وهذا ضابط لك ،
ما لم تصل إلى الذوق ، فإن وصلت إلى الذوق ، ذقت الخاطر فعرفته
وميزته عن غيره - حسب الفرق بين الشهد والحنظل^(٤) - بالذوق ..
أما بالعبارة ، فيصعب نوع صعوبة ! فإنك تقول في الفرق : ذاك حلو
وهذا مر . ثم يقال لك : ما الحلو وما المر ؟ فلا تقدر أن تكشف عن
حقيقة الحلاوة والمرارة ، سوى أن تذكر علامتهما وثمرتهما ؛ فتقول :

= ما يقال ولا ينفكون عنهم بحال . فكيف والحالة هذه ، إذا تخيل السالك واستحضر صورة
شيخه ومرشده ومريه وولى نعمته ، بكمال الأدب مستعرضاً إرشاداته لدفع الخواطر
الشیطانية ولزيادة الحضور وحصول الخشوع ، وبدهي أن ذلك من أكد الدواعي وأنفع
الوسائل لطرد الشيطان وحضور القلب والحياء من الله تعالى .. (مدارج الحقيقة ،
ص ٣٣) .

(١) أ : عنه .

(٢) ب : سرك - ومصححة بأعلاها .

(٣) أ : وإن قال هذا خاطر التنفس أو كيت وكيت فاعلم أنه كذلك .

(٤) نبات شديد المرارة . يقول العشابون العرب القدامى : هو نبات يُخرج أغصاناً وورقاً
مفروشة على الأرض .. له ثمرة مستديرة شبيهة بكرة متوسطة الحجم ، شديدة المرارة
(المعتمد في الأدوية المفردة ص ١١٠) .

(م ١٠ - فوائج الجمال وفوائج الجلال)

المرارة تأبأها النفس وتنقبض عنها ، والحلاوة ترضأها النفس وتنبسط بها .
وتقول : ذاك طيبٌ موافق ، وهذا مخالف غير طيب ؛ وهذا يقطع ويفرق^(١)
ويزعج ، وهذا يرمُّ ويجمع ويسكن ؛ وهذا تقبله المعدة ، وهذا لا تقبله ..
وكذلك بين الحلوين والمرين ، يفرق بينهما إذا كان الذوق سليماً ؛ أما إذا
فسد الذوق ، فقد تجدد الحلو مرّاً ، كما قال الشاعر :

وَمَنْ يَكُ ذَا قِمٍ مُرٌّ مَرِيضٍ يَجِدُ مُرّاً بِهِ الْمَاءَ الزُّلَالاً^(٢)

[الخفيف]

وكذلك ، نسبة مبدأ هذا الأمر إلى منتهاه ، فإن مبدأه مرضٌ ومنتهاه
صحة . فإن القلب ذو مرضٍ في الابتداء ، فإذا دأواه الشيخُ الطيبُ
الحاذق ، صحَّ وصار سليماً ، فيذوق في الأول حلاوة العبادة مرارةً ،
ومرارة المعصية حلاوةً ؛ فذا صحَّ القلبُ وسلم ذوقه ، سلمت الأتباع
كلها .

مسألة :

هل يسقط التكليف عن عبادة الخواص ؟ نعم .. بمعنى أن التكليف
مأخوذٌ من الكلفة ، وهى المشقة . فيعبدون الله تعالى بلا مشقةٍ وكلفة ،

(١) القطع والتفريق .. إلخ ، من مصطلحات الطب العربى القديم ؛ كانوا يصفون بها خواص
الأدوية والنبات وأثرهما فى الجسم . وبخصوص المعانى المتعددة لكلمة «تفرق» يمكن
الرجوع إلى ماكتبه «القوصوفى» تحت هذا اللفظ فى كتابه المخطوط : قاموس الأطباء
وناموس الألباء .

(٢) البيت من قصيدة للمتنبى ، فى مدح بدر بن عمار ، يقول مطلعها :
بقائى شاء ليس هم ارتحالاً وحسن الصبر زموا لا الجمالاً

بل يتلذذون بها ويطربون ! فإن الصلاة مناجاة ، ولكن مهما كان العابد موافقاً للشيطان مخالفاً للرحمن ، لم يجد لذة المناجاة بل يشقُّ عليه ذلك ، فإن مناجاة المخالف صعبة شاقة على البدن ، أما إذا وافق الرحمن وعادى الشيطان ، كانت^(١) الصلاة في حقه مناجاة الحبيب .. وهو ألدُّ الأشياء .

[رواية]

حكى عن الحضرمي^(٢) أنه كان يقول : إن الناس يقولون إني حلولي^(٣) ، وإني أقول بسقوط التكليف عن عباد الله .. وكيف أكون حلولياً ، ولا أرى في الوجود سوى الله ! وكيف أقول بسقوط التكليف

(١) . . . كان .

(٢) ب : الخضر - + أ : الحضرمي ض أ ، الحضري رحمه الله ف ن ، الحضري في الباب الثامن من كتاب تحفة البررة في المسائل العشرة (كذا) تأليف مجد الدين البغدادي المتوفى ٦١٦ هـ نسخة آيا صوفيا ١٦٩٦ ، الحضري في نسخة مكتبة برلين رقم ٣٠٨٨ ورقة ٤١ ب . ذكر أبو نعيم الأصفهاني في كتابه « حلية الأولياء » طبعة مصر ١٩٣٨ ج ١٠ ص ٣٤٤ صوفياً اسمه أبو عبد الله الحضرمي وتبعه الشيخ عبد الرحمن الجامي في نفحات الأنس طبعة كلكتة ١٨٥٨ ص ١٣٥ والحضري مشهور . ولعل الصواب « الجريري » فإنه وصل إلينا قول له في سقوط ثقل المعاملة عن العبد في الحلية ج ١٠ ص ٣٤٨ .

(٣) الحلول تهمة طالما اتهم بها مشايخ التصوف - وكان الحلاج هو أشهر من اتهم بذلك - والمقصود بها : الاعتقاد بأن الله اصطفى أجساماً حل فيها بمعاني الربوبية (راجع : تعريفات الجرجاني ص ٩٨ - كشاف اصطلاحات الفنون للتهانوي ١٠٥/٢) وهو أحد أشكال الاعتقاد بالحلول ، ومنه قول القائل : أنا الله ، ما في الجبة غير الله .. وغير ذلك من العبارات التي تفوه بها الحلاج في غمرة سكره وغيبته عن الشعور - وإن كان قد عاد في صحوه وحضوره ، فكذبها وأنكرها .

ولي وَرْدٌ^(١) في حال صباى ما فاتنى إلى هذا الوقت ! ولكنى أقول :
لا كلفة في عبادة عباده الخواص .

(١) الورد هو جمع عدد معلوم من سور القرآن - بحيث لا يكون فيها سورة منقطعة ،
والالتزام بقراءتها في اليوم واللييلة . ويقال لذلك أيضاً : حِزْب ، ولهذا فإن قولنا « قرأ
الرجل ورده - قرأ الرجل حزبه » بمعنى واحد .. انظر : لسان العرب ٦٢١/١ ،
٩٠٨/٣ - القاموس المحيط ٥٦/١ ، ٣٥٧ - التكملة والذيل والصلة ١٧٤/١ ،
٣٣٢/٢ .

ويطلق لفظا الحزب والورد أيضاً ، على كل (ذِكْر) يتلى بعد الحضرة في الزوايا
والتكايا الصوفية ، بشرط أن يكون مؤلفاً من المختارات القرآنية (مكدونالد : مادة حزب
بدائرة المعارف الإسلامية ٣٦٩/٧) وقد يقال له اليوم : وظيفة ! وهى تسمية
يستخدمها مريدو بعض الطرق المعاصرة .

فصل : فى تبديل الذوق

والذوق والمشاهدة^(١) ثابتان معًا ، إلا أن المشاهدة سببها فتح البصيرة ، بكشف الغطاء^(٢) عنها .. والذوق سببه تبديل الوجود والأرواح . والذوق هو « الوجدان بما يأتيك » ويدخل فى هذا التبديل تبديل الحواس ؛ فإن الحواس الخمس تتبدل بحواسٍ أُخر . ومثاله النوم ، وهو ثابت فى حَقِّ العامة ، فإنه مهما نام واستخلص قليلاً عن أثقال الوجود ، وانسدت حواسه ببحار الوجود ، انفتحت حواسٌ أُخر إلى الغيب - من عين وسمع وشَّم وفَمٍ وَيَدٍ وَرِجْلٍ ووجودٍ آخر - فىرى ويسمع ، ويأخذ من لُقَمِ^(٣) الغيب ويأكل .. وربما يقوم من نومه بعد الأكل ، فيجد لذَّة الطعام فى فمه ! ويتكلَّم ويمشى ويبطش ويصل إلى البلاد القاصية - ولا يحجبه البُعْدُ - وذلك وجودٌ أكمل من هذا . وربما يجد فى ذلك الوجود قوة الطَّيران ، والمشى على الماء ، والدخول فى النار ولا يحترق ؛ ولا تحتسب هذا جُزْأً ، بل هو حقيقةٌ ، وهو أُلْحُ الموت^(٤) .

(١) راجع معنى « المشاهدة » فيما سبق . أما « الذوق » فهو منهج الصوفية الذى يعتمد على الرؤية الباطنة القلبية للأشياء ، والإدراك غير الحسى للمعارف .. وهو يقابل فى المصطلح الفلسفى كلمة « حدس » وكثيراً ما يستخدم الدارسون الكلمتين بمعنى واحد ، مع ما فيها من اختلاف فى المنطلق والغاية .

(٢) كشف الغطاء : تعبير صوفى يراد به الإشارة إلى انكشاف الحقائق الكامنة وراء الظواهر المحسوسة ، ورؤية القدرة الإلهية فى سائر الأشكال الوجودية . وينسب إلى بعض صحابة النبى قوله : لو كشف عنى الغطاء ما أزدت يقيناً ..

(٣) فى الحديث الشريف : إني أبيتُ عند ربي يطعمنى ويسقنى .

(٤) فى المأثورات : النوم أخو الموت . وفى الآية الكريمة : ﴿ الله يتوفى الأنفس حين موتها =

فما يجده العامي^(١) في منامه - بحسب قوة وجوده الأدنى ، يجده السَّيَّار بين اليقظة والنَّام ؛ لضعف وجوده الخسيس^(٢) ، وقوة وجوده الشريف النفيس^(٣) . ثم يقوى هذا الوجود الشريف ، فيقع الفعل إلى عالم الشهادة ، فيطير ، ويمشي على الماء ، ويدخل في النار فلا تضره^(٤) ، ويرى ويسمع ويأخذ ويصعد وينزل ويتصرّف بيد الهمة^(٥) .. والحاضر معه ، محجوبٌ بالوجود الكثيف لا يجد ذلك .

واعلم أن المشاهدة في الأول تكون بالصور والخيال ، ثم بالذوات - إذا ظهرت الألوان - ثم تفتنى الذوات في الذات الواحدة . وسبب الصورة والخيال ، قوتان خادمتان للعقل في الرأس ، لضبط الأشياء له - مثل الحبال^(٦) والشبكة للصياد - فتأخذان الأشياء ، فيتصرّف هو فيها ؛

= والنبي لم تمت في منامها فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى ﴿ (الزمر ، آية ٤٢) .

(١) العامي في كلام الصوفية ، هو غير المتدق .. حتى لو كان عالماً في أحد علوم الظاهر .

(٢) هو : الوجود الجسماني .

(٣) هو : الوجود الروحاني .

(٤) + أ : ولا تضره - .. يضره .

(٥) الإشارة إلى تصرف الأولياء في الوجود المحسوس ، سواء بالهمة (انظر « الهمة » فيما

سبق) أو بالقدرة الإلهية المعارة ، المشار إليها في الحديث القدسي : مازال عبدى يتقرب

إلى بالنوافل حتى أحبه ، فإن أحببته كنت عينه التي يرى بها .. ويصبح عبداً ربانياً يقول

للشيء كن فيكون (وهو من أصح الأحاديث التي يستند إليها الصوفية في قولهم

بالكرامات) .

(٦) الحَبَالَةُ في فصيح اللغة : الانطلاق ، فيقال : أتيت على حَبَالَةٍ انطلاقاً ، وأتيت على حَبَالَةٍ

ذلك - أى على حين ذلك وإبانه (لسان العرب ٥٥٨/١) وإن الظاهر هنا ، أن الشيخ

يستخدمها هنا بمعنى أنشودة الصياد .

والنظر - مثل كلب الصياد - فإذا وردت المعاني بذواتها ، رمى العقل إليها
حبالتى المصورة^(١) والخيّلة^(٢) ، أو عدا إليها كلب النظر فاصطادها بنابئى
المصورة والخيّلة ؛ ثمّ تحفظها الممسكة^(٣) المذكورة للعقل حتى يتصرّف
فيها ، ويسألها : من أين هي ؟ وما هي ؟ وإلى أين ؟ وما غرضها ؟ ثمّ
يقضى منها العجب .

فالخيّلة تحيل المعنى بلباسه اللائق به ، والمصورة تصوّره ..
فتصوّر العدو الخسيس بصورة الكلب ، والعدو الشريف بصورة الأسد ،
والرجل العظيم بالجليل ، والسلطان بالبحر ، والرجل النافع بالشجرة
المثمرة ، وغير النافع بالشجرة غير المثمرة ، والنفع والرزق بالطعام ،
والدنيا بالنجاسة والمرأة العجوز ، وهلمّ جرّاً إلى غير ذلك .. وهذا سيرُّ
علم التعبير^(٤) .

(١) يقصد القوة المصورة التى تجسد المعانى فى الصورة .

(٢) هى قوة الخيال .

(٣) هى الذاكرة .

(٤) هو علم تعبير الرؤى ، أو تفسير الأحلام . وقد استهدى البشر بالأحلام والرؤى لفهم
الواقع المحسوس منذ أقدم العصور ، ولذلك نرى النابلسى يصف هذا العلم (تعبير
الرؤى) بأن علم من أشرف علوم الأوائل .. وأقدم النصوص الخاصة بمحاولة تفسير
المنامات ؛ ووضع تصنيف لها ، هو كتاب « أَرطَمِيدوس الإفسى » الذى عاش فى القرن
الثانى الميلادى ، وقد قام « حنين بن إسحاق » بترجمته من اليونانية إلى العربية فى القرن
الثالث الهجرى ، ويرجح الباحثون أن ابن سيرين - أشهر المؤلفين فى هذا الفن - قد
استفاد من كتاب أَرطَمِيدوس .

ومع ذلك كله ، فالبرديات الفرعونية تشير إل أن المصريين القدماء استعانوا فى مجال
التشخيص بدلالة المنامات التى يراها المرضى ، فكان يطلب من المريض أن ينام فى المعبد ثم
يقص ما يراه على الطبيب حتى يستهدى الأخير بذلك فى معرفة نوع المرض ! =

فإذا قضى العقلُ وطَرَهَ ، وَحَدَّه^(١) ، وطرب^(٢) ، وعجب كل العجب ؛ علم أن الحِسَّ الأول كذبه حين قال له : لا شيء سوى ما ترى وتسمع وتذوق وتجد ؛ وقد طالت^(٣) محبته معه ، وكان مصدِّقاً له تصديقاً عارضياً ، فلما وجد علماً آخر ، صدَّقه .. حتى إنه لو أنكر على الحِسَّ الغيبي ، فعَلَّ به رقباء الغيب^(٤) ما يعمل مدَّعى الحقائق على السفسطى ، من بعج بطنه بسكين ، وترضيض رأسه ، والضرب بالسيف والقيد .. حتى يجد الألم ، فيصدِّق الحقائق^(٥) .

= أما آراء العلماء المسلمين في هذا الفن ، فقد عرضها التهانوى بالتفصيل (كشف اصطلاحات الفنون ص ٥٩٧) حيث ابتدأ باختلاف العلماء حول معنى الحديث النبوى : « من رآنى فى المنام فقد رآنى حقاً فإن الشيطان لا يتمثل لى .. » ثم عرض التهانوى لمذاهب الإسلاميين فى الرؤيا .

وأشهر الكتب فى هذا الموضوع أربعة : تعبير الرؤيا لأرطيميدوس - تفسير الأحلام لابن سيرين - تعطير الأنام فى تعبير المنام للنابلسي - تفسير الأحلام لفرويد . واللافت للنظر فى تناول الشيخ نجم الدين لهذا الموضوع ، هو تركيزه على ميكانيزمات الترميز ، ودور الخيلة والمصورة المتكامل فى صياغة الرؤيا ، وبالتالى يمكن الكشف عن دلالات الرؤى بشكل دقيق .. وتلك المسألة تعد من قبيل « البحث العلمى » فى هذا الموضوع ، وغالباً ما ينسب الفضل لعالم النفس الشهير « فرويد » فى الكشف عنها .

(١) قوله « حده » أى : جعل له حدّاً معروفاً وصورة مناسبة .

(٢) أ : وطرده ! وغير واضحة فى ب .

(٣) .. طال .

(٤) الرقباء هم أهل مرتبة من المراتب الروحية للأولياء (راجع الحكومة الباطنية للدكتور حسين الشرقاوى) لكن المشار إليه هنا - على الأرجح - هو شيء آخر ، يبدو وكأنه صنف من الملائكة .

(٥) يقصد ما يشعر به الإنسان بعد قيامه من النوم ، من آلام جسمية .

فإذا علم ذلك ، كَذَّبَ الحسَّ الأول وأَعْرَضَ عنه ، وقعد عن الصيد الحسِّي . وضعف عن التصرُّف - بمُدَّةٍ مديدة - فيسأم عن عالم الصور والخيال ، فتقعد كلابه وحباله^(١) عن الاصطياد ؛ فتظهر المعاني^(٢) في الألوان - لثبوت الرابطة بينها وبين البصيرة - ثُمَّ تَفْنَى المعاني في ينبوع المعاني ، وهو القلب ، فيستقيم الأمرُ على لونٍ واحدٍ ، وهو الخضرة ، وهو لونُ حياة القلب ؛ ثُمَّ يبقى بعده لونُ العقيق^(٣) ، وهو لون العقل الكبير .. مَنْ اتَّصَفَ به ، حمّله على ما يحبُّ أن يوجد ، ويمنعه عما يحبُّ عدمه . شاء صاحبه أم أبى ، بل لا يَأْنِي عليه ، كما لا تَأْنِي على الروح إذا احترزت من النار !

وهذا اللون^(٤) ، إنما يظهر باليسر بعد العسر .. وهو عسر المجاهدة ، فإن المجاهد إذا رابط ثغره^(٥) الصدق والإخلاص ، نزل عليه من

(١) الإشارة إلى الخواص المذكورة فيما سبق ، كالخيلة والمصورة .

(٢) العبارة التالية في هامش ب .

(٣) العقيق حجر كريم ، أجوده وأشهره « العقيق الأحمر » وهناك أنواع أخرى : الرطبى ، الأحمر المائل للصفرة ، الأزرق ، الأسود الأبيض (انظر : أزهار الأفكار للتيفاشى ص ١٤٦ - الجماهر في معرفة الجواهر للبيريونى ص ١٧٠) والمقصود بلون العقيق هنا : اللون الأحمر .

(٤) يقصد لون العقيق الأحمر .

(٥) الرابطة في الثغور ، نوع من المجاهدات الصوفية ، يذهب فيه الصوفى لحراسة حدود الدولة من هجمات الأعداء .. ويبدو أن اتخاذ الصوفية لهذه الرياضة الروحية ، راجع إلى جمعها بين الجهاد بالمعنى الظاهر (الجهاد بالسيف) والجهاد بمعناه العميق .. أى الجهاد الأكبر (جهاد النفس) لما في هذه الرابطة من ملازمة لشطيف العيش والتقشف والبعد عن الحياة المترفة .

الواردات^(١) الثَّقَال كالجبال الراسيات ، حتى يَنْدَقَّ في الأرض ويصير بها^(٢) . فلم يضطرب ولم يتحرك ، فيبقى بذلك زمانًا ، وهو حقيقة نزول العقل الكبير عليه ، ويبدو لونه - بجذاء الجبهة - كأنه لوح أسود عليه نقطٌ حمراء كالعقيق ، يكبر ويصغر بقدر خرق حجابهِ .. وهو أمتن الحجب وأصعبها . وإذا شوهد^(٣) هذا اللون في الغيبة ، فَتَتَّ السَّيَّارَ وَمَزَّقَهُ وَرَزَّلَهُ ونفضه ؛ وسببه أن الضعيف لا يطيق نظر القوى^(٤) .

وهذا إنما يكون في النهايات ، لا في البدايات .

(١) الوارد - كما يعرفه القاشاني - هو : كل ما يرد على القلب من المعاني ، من غير عمل العبد (اصطلاحات الصوفية ص ٤٧) .

(٢) أ : ويصير لها - ب : ويصير لها .

(٣) . . شاهد ! ولا يستقيم المعنى بهذه الكلمة .

(٤) المعنى الوارد هنا ، يطابق القصة الصوفية الشهيرة ، التي تحكى عن الشاب الذى مات عند رؤيته لأبى يزيد البسطامى ! فقد روى ابن خميس فى « المناقب » والغزالي فى « الإحياء » والمكلى فى « قوت القلوب » ما نصه :

عن بعض أصحاب أبى يزيد البسطامى ، قال : كان عندى شاب صغير ملازم للخلوة . فقلت له : هل رأيت أبأ يزيد ؟ قال : لا ، فتركته أيامًا وأعدت عليه القول . قال : لا ، فلما أكثرته عليه قال : رأيت الله فأغنانى عن أبى يزيد ! فكررت عليه القول وهو لا يزيد على هذا ، فغاضنى ، فقلت : لو رأيت أبأ يزيد مرة كان أنفع لك من رؤية الله سبعين مرة ! فقال : قم بنا إليه .. فخرجنا نطلب أبأ يزيد ، وإذا به قد خرج من النهر وفروته مقلوبة على كتفه ، فلما رآه الشاب ، صاح ومات . فقلت لأبى يزيد : ما هذا ؟ فإنه ذكر أنه يرى الله وما مات ، يراك فيموت ! فقال : نعم ، كان يرى الله على قدر حاله ، فلما نظر إلى ، رأى الله على قدر حالى ، فلم يثبت ، فمات .

فصل : فى الاستغراق

الاستغراق الأول ؛ استغراق الوجود فى الذكر :

وهذا إنما يكون ؛ إذا احترقت الأجزاء الخبيثة وبقيت الأجزاء الطيبة ، سمعت حينئذٍ « ذكر الوجود » فتسمع من كل جزءٍ ذكراً ، كأنه ينفخ فى بوق أو يضرب دُبْدُبَةً^(١) . وإذا استقام ذكرهنَّ ، صار كرنة النحل .

وقبل الاستقامة ، يقع الذكر أولاً فى دائرة الرأس - لأنها مصعدة - فتجد فيه صوت الدباب والكووس^(٢) والبوق . والذكر سلطان ، إذا نزل موضعاً ، نزل بدبابه وبوقاته^(٣) ، حتى ربما ينتهى الأمر إلى أن يُجَنَّ ويُخاف عليه من الموت .. ولكن الصادق لا يضره ذلك .

[معاينة]

كنت فى الخلوة ذاكراً ، فوجدت فى رأسى مثل هذه الأصوات ، مع أوجاع شديدة ، وكنت فى ذلك صادقاً ، باطلاً المهجة^(٤) للتراب أقدام تلك الحضرة . فحكيت الأصوات والأوجاع للشيخ ، فقال لى : اخرج

(١) الدبْدُبَة : الطبلَة .

(٢) الكوس : الطبل .. والمتكاوس نوع من قواف الشعر (لسان العرب ٣/ ٣١٣) .

(٣) كذا فى جميع الأصول ، وجمع « بوق » فى فصيح اللغة العربية : أبواق .

(٤) . . . للمهجة .

من الخلوة ودع الذكر ، حتى لا تُجَنَّ أو تموت ! فقلت للشيخ : لأن
أموت في الطريق ، أحبُّ إلى من أن أموت في المقام^(١) .. فقال : كنتُ
أستعبرُ باطنك على ما أنت عليه ، فمهما كنت صادقاً عازماً على بذل
المهجة فما تُبالي !

فما عَبَّرَ أسبوعٌ ، حتى حَلَّ الله تلك العقدة ، ونزل الذكر في
الرأس ، وأقام به ، وظهرت قُرَّةُ الأعين ومُنَى الأنفس ولذاذة الأرواح
وطيبة القلوب . وما أدرى سبباً لفتح هذا الباب على ، إلا توفيقه ،
لصدقي وثباتي على قدم الإخلاص في تلك الأيام .

[إشارة]

وسيرُّ هذه الأصوات الشديدة ، أن الذكر ضدَّ كل ما سوى الحقِّ ؛
فإذا وقع في موقع ، اشتغل بنفى الضدِّ .. كما تجده من اجتماع الماء والنار .

[وصل]

وبعد هذه الأصوات - أصوات الدبادب والبوقات - تسمع أصواتاً
مختلفة ، مثل خريز^(٢) الماء ودويِّ الريح وصوت النار إذا تأجَّجت وصوت
الأرحية^(٣) وخبط الخيل والرجل وصوت أوراق الأشجار إذا هبت عليها

(١) الطريق هنا ، إشارة إلى المرحلة الفاصلة بين المقامين .. والمعنى : أنه يفضل الموت وهو في
طريقه إلى المقام الأعلى ، على الموت وهو في المقام الأدنى .

(٢) أ : هدير ، + أ : مقصودها « خريز » .

(٣) الأرحية : جمع رحي ، رحا (حجر عظيم يُطحن به) يقول ابن منظور : والرحى
معروفة ، التي يُطحن بها ، والجمع أُرْج وأرحاء ورُحى ورحى وأرحية ، الأخيرة نادرة !
(لسان العرب ١/١١٤٤) .

ريّح عاصفة . وسِرُّ ذلك ، أن الآدمى مُرَكَّبٌ من كل جوهرٍ - شريف ووضيغ - هذه من الأركان^(١) والأرض والسماء وما بينهما ، فهذه الأصوات أذكّارُ كُلِّ أصلٍ وعنصرٍ من هذه الجواهر^(٢) .. ومن سمع هذه الأصوات ، فقد سَبَّحَ الله وقَدَّسه بكُلِّ لسانٍ ، وهو من شرائط الطريق . وهذا الاستغراق ، نتيجةُ ذكر اللسان بقوة .

الاستغراق الثاني^(٣) :

وبعد هذا ، يفتَحُ الذكر بابًا من فُود الرأس^(٤) ، قوارة^(٥) شبيهة الدائرة ، فينزل عليه من فوق ظلمةٌ ، ثُمَّ نارٌ ، ثُمَّ خضرةٌ .. وهى ظلمةُ الوجود ، ونارُ الذكر ، وخضرةُ القلب .

وإنما يُفتح البابُ أولاً من فوق الرأس ، لأن الذكر كلمةٌ طيبةٌ تصعد إليه بذاتها . وجهةُ الهوية فوقُ ، فودُ الرأس ، فتصعد الكلمةُ الطيبةُ إليه . والحقُّ يجازيه - بالفضل والرحمة - من الواردات الروحانية والأنوار

(١) يقصد : الهواء والماء والنار والتراب (= الأركان الأربعة) .

(٢) يشير الشيخ نجم الدين هنا إلى معنى سيصير نظرية كبرى في كتابات ابن عربى والصوفية من بعده ، وهى نظرية التقابل بين الإنسان (الكون الأصغر) والكون (الإنسان الكبير) وهى فكرة رواقية الأصل - وربما شرقية - كان لإخوان الصفا قد عرضوا لها فى رسائلهم بشىء من التفصيل .

(٣) هكذا فى ب ، ج .. وجاءت بين أقواس فى أ ، وكتب المحقق فى الهامش : الاستغراق الثانى ص : ليس فى ف ن آ ، ووضعت فى المتن لتوضيح موضوع الكلام .

(٤) الفود : معظم شعر الرأس مما يلى الأذن ، وفودا الرأس : جانباه . والجمع : أفواد (لسان

العرب ١١٤٢/٢) .

(٥) ب : فوارة !

القدسية ، فيملؤه من فوقه إلى قدمه أماناً وإيماناً ورغبةً وشوقاً ومحبةً وإيقاناً وإتقاناً وعرفاناً ، فيمتلئ . وعند ذلك ينطلق القلب ، ويرغب إلى الربّ جلّ جلاله - عند الصحة - فيستغرق الذكر في القلب ، لا استغراق الفناء^(١) ، بل استغراق الوقوع فيه ، فيحسّ من القلب كأنه قلب ، والذكر دلوّ يقع فيه ، فيستقى الماء منه . وعند ذلك يقع الطيران في الأعضاء وحركاتٍ ضرورية غير معهودة مثل حركة المرتعش .

وكلما سكت عن الذكر ، تحرّك القلب في الصدر حركة الولد في بطن الأم يطلب الذكر ، فإن القلب مثل عيسى بن^(٢) مريم ، والذكر لَبَنُهُ . وإذا قوى وكبر ، صعد منه حنينٌ إلى الحقّ ، وصوتٌ ، وصعقات^(٣) ضرورية ، شوقاً إلى الذكر والمذكور ؛ وإن كان صاحبه غافلاً عن الذكر والمذكور .. وذكر القلب يشبه رنة النحل ؛ لا صوت رفيع مشوش ، ولا خفىً شديد الخفاء .

(١) للفناء في لغة الصوفية دلالات متعددة (راجع في ذلك : تعريفات الجرجاني ص ١٤٣ - الرسالة القشيرية ص ٣٩ - التعرف لمذهب أهل التصوف ص ١٥٠ - رسالة اصطلاح الصوفية لابن عربى ص ٦) .

والراجع أن الشيخ نجم الدين هنا يستخدم الفناء بمعنى غياب الحس ، ذلك لأنه ينفي هذه الحالة ويؤكد شعور الذاكر الواقع ذكره في القلب ، وكأن الذكر دلو يأتى بالماء من بحر القلب .. وهى صورة فريدة من صور الشعور . أما في الفناء - بمعانيه المتعددة - فلا نجد مثل تلك الصور الشعورية .

(٢) أ ، ج : ابن .

(٣) الصعقات نوع من الصرخات المفاجئة التى تصدر عن الصوفى إذا هجمت عليه الواردات الإلهية .. وفى كتب الطبقات نرى العديد من وقائع الصعق على مشايخ الصوفية ، وبعضهم مات بتلك الصعقة الشديدة .

ومن علامات وقوع الذكر في القلب ، أن تشاهد من قدامك ينبوعاً ، ينبع نوراً سريع التبعان ، يجد إليه السيار طمانينة ، ويتخذها مؤنساً . ومن العلامات^(١) أن الذكر يفتح الجنب الأيمن ، فيسب على الجنب مثل أثر الجراحة إذا اندملت ، فتخرج منه أنوار الذكر .. ثم يدور ذاك الوسم بخذاء عمل الذكر على القلب ، فيرجع من الجنب إلى ما وراء الظهر ، فيحس السيار بالداخل والخارج منه . ومن ذاك الباب ، يخرج القلب والروح القدس ، فيعلو الراكب على المركب ، وقد كان تحته ؛ وأعني بالراكب : اللطيفة الناطقة ، وبالمركب : القالب .. وحينئذ يعرج به إلى المحاضر ، محاضر الحق^(٢) .

الاستغراق الثالث ، وقوع الذكر إلى السر^(٣) :

وهو غيبة^(٤) الذاكر عن الذكر ، في المذكور^(٥) ؛ فذكره : الهيمان فيه ، والغرق فيه . ومن علاماته ، أنك إذا تركت الذكر لم يتركك

(١) ب ، ج : العلامة .

(٢) المحاضر : جمع « محاضرة » وهي كما يقول القاشاني : حضور القلب مع الحق في الاستفاضة من أسمائه تعالى (اصطلاحات الصوفية ص ٨١) .

(٣) السر : هو ما يخص كل شيء من الحق ، عند التوجه الإيجادي إليه ، المشار إليه بقوله تعالى « إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون » ولهذا قيل : لا يعرف الحق إلا الحق . ولا يجب الحق إلا الحق . ولا يطلب الحق إلا الحق ! لأن ذلك السر هو الطالب للحق ، والمحجب له ، والعارف به .. كما قال النبي عليه السلام : عرفت ربي برى .

(٤) راجع معنى « الغيبة » فيما يأتي من كلام الشيخ نجم الدين .

(٥) المذكور : الله تعالى .

الذكر ؛ وذلك طيرَانُ الذكر فيكَ ، لينبِّهكَ عن الغيبة إلى الحضور^(١) .
ومن علاماته : شُدُّ الذكر رأسك وأعضاءك جميعها ، فتكون كالمشدود
بالسلاسل والقيود . ومن علاماته أنه لا تخمد نيرانه ، ولا تذهب أنواره ،
بل ترى أبداً أنواراً صاعدة وأخرى نازلة ، والنيران حواليك صافية تتأجج
وتتقد .

فذكر الحروف بلا حضور ، ذكرُ اللسان .

وذكر الحضور في القلب ، ذكر القلب .

وذكر الغيبة عن الحضور في المذكور ، ذكر السر .

فإذا رجعت إلى الحضور وفهم الذكر ، نزلت درجة . فإذا ذهلت
عن المذكور والحضور ، واختصرت بمجرد لقلقة اللسان ، نزلت درجة
أخرى .

.. واعلم ، أن للذكر - وإن كان بمجرّد اللسان - سلطاناً عظيماً ،
ولكنه لا يظهر عند الوجود ، لقوّة احتجاجه عن سلطان الذكر ؛ فإذا عرى
السّيّار عن الوجود - بالنوم أو بالغيبة عند ضعف الوجود - ظهر سلطان
الذكر . وهو نورٌ يقع عليه من فوق ، أو من وراء ، أو من قُدّام ؛

(١) الملاحظ هنا ، أن الشيخ نجم الدين يجعل الغيبة مدخل الحضور ، فإذا كانت الغيبة بمعناها
الأول هي الذهول عن الوجود المحسوس ، فهي بمعناها الثاني حضور مع الله .. ثم يجعل
الشيخ « الغيبة » هي الخروج عن الحضور في الذكر ، وبذلك فبدلاً من الغيبة عن
الوجود الحسى بالحضور مع الذكر ، تكون الغيبة - عن الحضور مع الذكر - في الشعور
بالوجود المحسوس !

فيتزلزل وينتفض ، ويقول عند ذلك - ضرورة المخافة : « لا إله إلا الله »
ويجد قُوَّةً عظيمة وشِدَّةً شديدة ، حتى إنه يسجد وينيب حيثُ إلى الله
- عَزَّ اسمُه - ويُسلم ويؤمن ، وهذا يظهر بقدر خدمته للذكر ومواظبته
عليه .

[مراتب النفس]

النفوس ثلاثة : النفس الأمَّارة بالسوء ، وهى نفس العامة .. تكون
مظلمة ، فإذا وقع الذكر ، كان الذكر مثل السراج الموقد فى البيت
المظلم . فحيثُ تصير لَوَّامة ، لأنها . تبصر أن البيت ملآن من نجاسة ،
وكلب ، وخنزير ، وفهد ، وغمر ، وحمار ، وثور ، وفيل ، وكلُّ شئ
مذموم فى الوجود^(١) .

ثم تجتهد فى إخراجهم عن هذا البيت ، بعد أن تلطَّخت بأنواع
النجاسات ، وتجرحت من أنواع السَّباع . فتلازم ذكر الحق ،
والإنابة^(٢) ، حتى يظهر سلطان الذكر عليهم .. فيخرجهم .

ثم تقرب من المطمئنة ، فلا تزال تجتهد فى جمع أثاث البيت ، حتى

(١) المراد بالبيت هنا : الجسد .. والمراد بتلك الحيوانات ، ما يقابلها فى خلق الإنسان ،
حيث يرمز الكلب والخنزير لشهوات البدن ، والتمر لشراسة الخلق ، والحمار للغباء ..
وهكذا .

والرمز الصوفى لقوى النفس بالحيوانات ، يتكرر عند غير واحد من كبار مؤلفى
التصوف ، فنراه فى قصة « حى بن يقظان » لابن سينا وفى « الإحياء » للغزالي .

(٢) الإنابة : الرجوع . والمراد هنا : الرجوع إلى الله .

يتزَّين البيتُ بأنواع المحمودات ، فتتحلى^(١) بها ، ويصلح البيت لنزول السلطان فيه ، فينزل .. فإذا نزل فيه السلطان ، وتجلَّى الحقُّ^(٢) ؛ اطمأنت^(٣) .

واعلم أن للنفس الأمارة علامة في الشاهدة ، وهى دائرة كبيرة تطلع من قدامك مسودة كأنها قيْر ، ثم تنفى ، ثم تطلع قدامك كأنها غيم ، ثم تطلع وقد انكشف من حافاتِها شيءٌ كالهلال يبدو طرفٌ منه أثناء الغيوم ، ثم تكون هلالاً . ثم إذا لامت نفسها ، فتطلع من الحَدِّ الأيمن كأنها شمسٌ حمراء - يجد الحَدُّ حرارتها - وتارة تكون بجذاء الأذن ، وتارة بجذاء الجبهة ، وتارة فوق الرأس .. وهذه النفس اللوامة هى العقل .

(١) التحلى مرتبة تلى التحلى .. فإذا كان التحلى هو تحلية النفس من الأوصاف المذمومة - تلك التى رمز إليها الشيخ بالحيوانات - فإن التحلى هو تحلية النفس بضدها ، أى الصفات المحمودة المؤهلة لنزول سلطان الذكر الإلهى .

(٢) التحلى : هو ما يظهر للقلوب من أنوار الغيوب (اصطلاح الصوفية لابن عربى ص ٩ - اصطلاحات الصوفية للقاشانى ص ١٥٥) .

(٣) يشير الشيخ نجم الدين هنا إلى ثلاث مراتب للنفس : الأمارة بالسوء - اللوامة المطمئنة .. وهى ثلاثة أوصاف مستمدة من النص القرآنى :

★ ﴿وما أبرئ نفسي إن النفس لأمارة بالسوء﴾ سورة يوسف ، آية ٥٣ .

★ ﴿لا أقسم بيوم القيامة﴾ ولا أقسم بالنفس اللوامة ﴿ سورة القيامة ، آية ١ ، ٢ .

★ ﴿يا أيها النفس المطمئنة﴾ ارجعى إلى ربك راضية مرضية ﴿ سورة الفجر ، آية ٢٧ ، ٢٨ .

وقد زاد بعض الصوفية فى مراتب النفس فجعلها سبعة : الأمارة - اللوامة - الملهمة - المطمئنة - الراضية - المرضية - الصافية أو الكاملة . (راجع : الفيوضات الربانية فى المآثر والأوراد القادرية ، لإسماعيل القادرى ص ١٤ وما بعدها) .

وأما النفس المطمئنة فلها علامةٌ في المشاهدة ، وهى أنها تطلع تارةً قَدْ أَمَكَ مثل ينبوع الكبير ، فتفيض منها الأنوارُ ، وتارةً تشاهدها في الغيبة دائرةً وَجْهَكَ من نورٍ ، صافيةً مثل السجندل المصقول ؛ وهذا إذا صعدت إلى الوجه ، وفنى فيها الوجهُ ؛ فيكون وجهك - حيثُ - هو^(١) النفس المطمئنة . وتارةً تشاهدها بعيدةً عنك في الغيبة ، وبينك وبين دائرتها ألف منزل^(٢) ، لو دنوت من واحدٍ منها احترقت^(٣) .

واعلم أن في الوجه دوائر تظهر في نهايات السير ، منها « دائرتا العينين من نور » تظهران في كل مُلْتَفَتٍ يميناً وشمالاً ، ودائرة أخرى « دائرة نور الحق » تظهر من بين الحاجبين والعينين ، وهذه الدائرة لا نقطة في وسطها - بخلاف دائرة العينين ، ففي وسطها نقطة - وربما تفنى دائرة العينين في النقطة ، فتبقى النقطةُ وتفنى الدائرتان .. و « دائرة الروح » وهى تظهر بجذاء الأنف . ونور اللسان ليس له دائرة ، وإنما هو نورٌ مطلق ، ورَشٌّ محض ، لا دائرة فيه . ولا دائرة لنور السمع ، وإنما ذلك نقطتان من نور تظهران وراء دائرتي العينين .

(١) أ ، ج : هى !

(٢) المنزل في معناه المشهور : الخط ودار الإقامة . وفي الاصطلاح ، يشير عند أهل علم الفلك إلى المسافة التى يقطعها القمر في يوم وليلته (كشاف اصطلاحات الفنون ص ١٤٢٣) وعند الصوفية ، المنزل هو المقام الذى يكون فيه الصوفى خلال رحلة عروجه . والشيخ نجم الدين ، يستخدم « المنزل » هنا بمعناه الفلكى .

(٣) قارن ذلك بقول جبريل للنبي ﷺ ليلة الإسراء والمعراج : لو تقدمتُ شبرًا لاحترقتُ .

[معاينة]

كنتُ في الخلوة ، فغبتُ ، ثُمَّ عُرِّجْتُ إلى أن كان بين يديَّ شمسٌ طالعة ؛ فأدخلتُ في الشمس بعد أن قاسيتُ من قواها شدةً عظيمة . فسألتُ الشيخ ، فقال : الحمد لله ، وأنا رأيْتُ في المنام كأني أمشي في حرم مَكَّةَ ، وأنتَ معي - والشمس في وسط السماء - وتقول : أيها الشيخ ، أتعرفني مَنْ أنا ؟ قال : فقلتُ مَنْ أنتَ ؟ فقلتُ : أنا ذاك الشمس في السماء ! ففرح شيخى عَمَّار لتطابق الواقعتين ، وقال : أُدخلت في عالم القلب ، جاهدتُ في الله ليالي ، فكنتُ أنظرُ إلى السماء إلى أن دخلت السماء في داخل ، حتى دُقْتُ أُنَى السماء ؛ وكنتُ أنظرُ إليها ليالي أُخِر ، إلى أن أبصرتها تحتى بمثل ما أبصرتها فوق ؛ وكنتُ أنظرُ إلى الأرض ليالي ، واستكشفتُ على ماذا هي ! حتى فَتَيْتُ في دائرةٍ من نور .

[تفسير]

وحظُّ العلم ، من هذه الواقعات : أن الروح القدسى لطيفةٌ سماوية ، فإذا فاضت بقوة الهمة^(١) ، لحقت بالسماء وغرقت السماء فيها ، بل السماء والروح شيء واحد .. وهذا الروح لا يزال يطير ويربو وينمو ، إلى أن يكسب شرقاً فوق شرف السماء ، فيعلوها .

(١) راجع معنى « الهمة » فيما سبق .

[تفسير آخر]

أو نقول : إنَّ في الآدميِّ جواهر من كل معدن ، فالطالب لكل معدنٍ جنسه من الجواهر ؛ فإذا صدقت إرادته وطلبه وجدَّ ، وجد الأصل ولحق به . وما رأيتُ السماء تحتى ولا فى داخلى ، إلَّا بعد أن قام فى داخلى طلبٌ وعتابٌ : « أنى لأيش^(١) ما كنت فى السماء ، أو أكبر من السماء ، أو فوق السماء بحسب ما هى فوق ؟ » فصَدَقَتْ الجواهر الغربية فى الحنين إلى معادنها ، فلحقت بها .. والدائرة التى فئت فيها الأرض : دائرة القدرة .

[طبقات المشاهدة]

اعلم أن المشاهدة مشاهدتان ؛ أدنى ، وأعلى . فالمشاهدة التى هى أدنى ، مشاهدةٌ ما تشتمل به الأرض - أعنى بها فى الغيب لا فى عالم الشهادة - من صورٍ وألوانٍ وبحارٍ ونيرانٍ ومفازات^(٢) وقُرى^(٣) وآبارٍ وصروحٍ وغير ذلك .. والمشاهدة العليا مشاهدةٌ ما تشتمل به السماء من الشمس والقمر والكواكب والبروج والمنازل وكل شئ ، فلا تُرى ولا تُشَاهَدُ إلَّا ببعضه^(٤) - كما قلنا : إن الجواهر لا يشاهد إلا معدنه

(١) تتردد كلمة « أيش » كثيرًا فى كتابات وأقوال الصوفية ذوى الأصول الفارسية ، وهى اليوم لفظة عامية كثيرة التداول بين البدو وسكان صعيد مصر .. ويقابلها فى الفصحى : ماذا .

(٢) المفازة هى الأرض الصحراء الخالية ، وجمعها : مفاز .

(٣) أ ، ج : قرايا .. والواضح أن ناسخ ج صَحَّحَهَا بما أثبتناه فى المتن !

(٤) ب : ببعض .

ولا يريد إلا معدنه ولا يحنُّ إلا إلى معدنه - فإذا شاهدتَ سماءً أو أرضاً أو شمساً أو كواكب أو قمرًا ، فاعلم أنه^(١) قد زكا فيك الجزء من ذلك المعدن .. ولا تعتقد أن السماء التي تشاهد في الغيب ، هذه السماء ! بل في الغيب سموات أخر ألطف ، وأخضر ، وأصفى ، وأنضر ؛ بلا عدِّ ولا حصر . وكلما زدتَ صفاءً ، بدت لك سماءً أصفى وأبهى ؛ إلى أن تسيرَ في صفاء الله - وذلك في نهاية السير^(٢) - وصفاء الله لا نهاية له ، فلا تعتقد أن الذي نلتَه ليس شيء وراءه أعلى منه !

[المحاضر الربانية]

اعلم أن للحقِّ محاضرٌ ، وهي محاضر الصفات^(٣) وتُميِّز المحضر عن المحضر بحالتك ؛ فإنك إذا عرجت إلى ذلك المحضر ، جرى على لسانك - بلا اختيارك - اسم ذلك المحضر وصفته ، إلى أن تدور على المحضر وصفته ، فتسبح الله تعالى به ، فتارةً تسبحه بسبحان العليِّ الكبير ، وتارةً بسبحان العليِّ الأعلى ، وتارةً برَبِّي وقادري ، وتارةً : أَحَدُ أَحَد .. وهكذا إلى أن تدور على المحاضر .

وللقلب نصيبٌ من كُلِّ صفةٍ من صفات الله - عَزَّ وَجَلَّ - وذاته ، ولا تزال تزداد .. وأرباب القلوب^(٤) متفاوتون في ذلك . وكُلُّ صفةٍ

(١) . أن .

(٢) المعروف أنه لا آخر للسير في طريق الله - كما سيثير الشيخ بعد قليل - وإنما يقال

« نهايات السير » على سبيل الإشارة إلى المراتب المتقدمة من الطريق .

(٣) راجع « المحاضر » فيما سبق .

(٤) يقصد : الأولياء .

على المحاضر ، وللقلب نصيبٌ من كُلِّ صفةٍ من صفات الحق ، فيتجلّى للقلب بواسطة نصيب القلب منها ، فتتجلّى الصفات للصفات ، والذات للذات .. وتارةً تشهده الصفات ، وتارةً يشهد في محاضر الصفات .

والتجلّى في الأول ، بالعلم^(١) . ثمّ بالمشاهدة - بأن تشهده الصفات أو يشهد في محاضر الصفات - ثمّ التجلّى بالاتصاف ، وهو أن يتخلّق القلب بهذه الصفات ، بأن يكون ويوجد ويحيى ويميت ويرحم ويعاقب إلى غير ذلك من صفات الفضل والعدل^(٢) .

ثمّ في الاتصاف ثلاث درجات :

الأولى : يتصف بالصفات بالنسبة إلى نفسه في تغيير المعاني .

والثانية يتصف بالصفات بالنسبة إلى نفسه ، وغيره ، في تغيير المعاني .

والثالثة : الاتصاف بالصفات بوجهٍ يتصرف مطلقاً في الأكوان والألوان والمعاني .. والكمال في ذلك لله عزّ اسمه .

(١) يقول عبد الكريم الجيلي : من تجلّى الله عليه بالصفة العلمية .. علم العوالم بأجمعها على ما هي عليه من تفاريحها من المبدأ إلى المعاد ، وعلم كل شيء . كيف كان ، وكيف هو كائن ، وكيف يكون . وعلم : ما لم يكن ، ولم لا يكون « ما لم يكن » ولو كان « ما لم يكن » كيف كان يكون ! كل ذلك علماً أصلياً حكماً كشفياً ذوقياً .. لكن في غيب الغيب (الإنسان الكامل ٣٧/١) .

(٢) الحديث القدسي : ما يزال عبدي يتقرب إلىّ بالنوافل حتى أحبه فإن أحبته كنت عينه التي يرى بها .. ويصبح عبداً ربانياً يقول للشئ « كن » فيكون .

واعلم أن من الأنوار ما يصعد ، ومن الأنوار ما ينزل . فالأنوار التي تصعد قلبية ، والتي تنزل عرشية ؛ والوجود حجاب بين العرش والقلب ، فإذا تُحرق الوجود ، وفُتح من القلب باب إلى العرش ، حنّ الجنس إلى الجنس ، فيصعد النور إلى النور ، وينزل النور على النور .. نورٌ على نور^(١) .

وحقيقة الجمعية^(٢) أنه مهما حنّ القلب إلى العرش ، حنّ العرش إلى القلب ، فيلتقيان ، فيجتمع ما بينهما من الوجود والنفس ، بل يفنى ما بينهما مثل الهواء الحاصل بين اليدين ، إذا صَفَّقَتَ بهما فنى الهواء فيما بينهما ؛ ومثل الطعام بين الحجرين ، إذا دار بعضه على بعض خرج الطعام من البين^(٣) .

[سِرُّ السير والجذب]

وكُلُّ ما فيك من جوهر نفيس ، يوجب لك حالة أو مشاهدة في السماء مَثَلُهُ من نار شوقٍ ومحبةٍ وعشق^(٤) . وكلما صعد منك نورٌ ،

(١) سورة النور ، آية ٣٥ .

(٢) الجمعية ، الجمع : هو إزالة الشعث والتفرقة بين القدم والحدث ، لأنه لما انجذب بصيرة الروح إلى مشاهدة جمال الذات ، استتر نور العقل المقارق بين الأشياء في غلبة نور الذات القديمة ، وارتفع التمييز بين القدم والحدث لزهوق الباطل عند مجيء الحق ، وتسمى هذه الحالة « جمعاً » ثم إذا أسبل حجاب العزة على وجه الذات وعاد الروح إلى عالم الخلق وظهر نور العقل .. عاد التمييز بين الحدث والقدم ، وتسمى هذه الحالة « تفرقة » (كشف اصطلاحات الفنون ٢٣٤) .

(٣) يقصد ، القمح المطحون بين حجرى الرحى .

(٤) انتقد بعض الفقهاء قول الصوفية بالعشق . راجع رأى ابن الجوزى في هذه المسألة وردّها عليه فيها ، في كتابنا : الطريق الصوفى .. ص ١٠٣ وما بعدها .

نزل إليك نور ؛ وكلما صعدت منك نيراناً ، نزلت عليك نيراناً مثلها .
غير أن الجواهر في السماء محدودة لا تتجاوز حَدَّها ، بخلاف الجواهر منك ،
فإنها تقبل التربية والازدياد . فإن كان جوهر السماء أقوى من مثله فيك ،
حنَّ جوهره الناقص إلى الزائد وجَذِبَهُ القويُّ ، وإن تساوى ، حنَّ وجذباً ،
فيلتقيان في وسط الطريق - والحنين من صفة الرحمة ، والجذب^(١) من قوة
القدرة - وإذا كثرت الجواهر فيك ، صار كُلاً بالنسبة إلى جوهره الذي هو
من جنسه في السماء ، فيحنُّ الجوهر من السماء ، ويجذبه جوهره إلى
نفسه ، فينزل عليك .. وهذا سيرُ السير والجذب ، فإن السير ليس
إلا تصفية الجوهر ليعلم ، إن كان زائداً جَذَبَ ، وإن كان ناقصاً حَنَّ .

[إشارة]

قال أبو بكر الواسطي^(٢) ، قَدَّسَ اللهُ روحه : تصادمت صفةُ الجلال

(١) الجذب أو الجذبة : تقريب العبد بمقتضى العناية الإلهية المهيئة له كل ما يحتاج إليه في طي
المنازل إلى الحق بلا كلفة وسعى منه (اصطلاحات الصوفية ص ٣٩) . ويمكن الرجوع
إلى ما استعرضناه من صور الجذب الروحي ، في كتابنا : عبد القادر الجيلاني .. ص ٥٢
وما بعدها .

(٢) الواسطي ، نسبة إلى « واسط » وهي بلدة بالعراق سميت بذلك لأنها متوسطة بين
البصرة والكوفة (معجم البلدان ٣٤٧/٥) وهناك العديد من أعلام الرجال يلقبون
بالواسطي ، منهم أربعة يحملون لقب وكنية « أئى بكر الواسطي » وهم : أبو بكر محمد
ابن سليمان بن الحارث الواسطي الباغندي - ابنه : أبو بكر محمد بن محمد الواسطي
- أبو بكر يوسف بن يعقوب الواسطي الأصم المقرئ (راجع تراجمهم في سير أعلام
النبلاء ٣٨٦/١٣ ، ٣٨٣/١٤ ، ٢١٨/١٥) .

والمقصود في كلام الشيخ نجم الدين ، هو رابعهم : أبو بكر محمد بن موسى =

وصفة الجمال ، فتولّد منهما الروح .. فالابن إشارةً إلى الجزء ، والأب والأم إشارةً إلى الكل^(١) .

[وصل]

إذا صفت دائرة الوجه ، فاضت بالأنوار - كالينبوع بالمياه - حتى يحسُّ السَّيَّارُ تَبَعَانَ الأنوار من وجهه ، ويكون النبعان من بين العينين والحاجبين ؛ ثُمَّ يستغرق الوجه كله . ويكون حينئذٍ من قُدَّامِك - بخذاء وجهك - وجهٌ من نورٍ ، كذلك ، ينبع بالأنوار .. وتُرى من وراء ستره الرقيق شمسٌ تجيئ وتذهب ، مثل الأرجوحة تجيئ وتذهب ، فذلك الوجه في الحقيقة وجهك ! وتلك^(٢) الشمس شمسُ الروح تتردّد في البدن .

= الواسطي ، المعروف بابن الفرغاني - نسبة إلى فرغانة بالقرب من تركستان - ترجم له السلمي فقال :

من قدماء أصحاب الجند وأبي الحسين النوري : وهو من علماء مشايخ القوم ، لم يتكلم أحد في أصول التصوف مثلما تكلم هو ، وكان عالماً بالأصول وعلوم الظاهر . دخل خراسان واستوطن كورة « مرو » ومات بها بعد العشرين وثلاثمائة ، وكلامه عندهم (طبقات الصوفية ص ٣٠٢) ويمكن مراجعة المزيد من ترجمته في : حلية الأولياء ٣٤٩/١٠ - الرسالة القشيرية ٣٢ - نتائج الأفكار القدسية ١٧٨/١ - المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ٢٦٢/٦ .

(١) حاول الصوفية تفسير عقيدة التثليث النصرانية والقول بالأقانيم الثلاثة (الأب - الابن - الأم) وفقاً لحقائق الصفات الإلهية . ولقد توقف عبد الكريم الجيلي عند هذه النقطة في معرض مناقشاته لأصحاب الديانات وبيان مداخل الخطأ في الاعتقادات .. (راجع الفصل الخاص بحقيقة الديانات في كتابنا : عبد الكريم الجيلي فيلسوف الصوفية - الهيئة المصرية العامة للكتاب) .

(٢) . . . وذلك .

ثُمَّ يستغرق الصفاءُ جميعَ البدنِ ، فتشاهد بين يديك حينئذٍ شخصاً من نورٍ تتولّد منه الأنوار ؛ ويحسُّ السَّيَّارُ تولّد الأنوار من جميع بدنه كذلك ، وربما يُكشف الحِجَابُ عن كل الأنانية ، فترى بكلّ البدن الكلّ .

وأولُ فتح البصيرة من العين ، ثُمَّ من الوجه ، ثُمَّ من الصدر ، ثُمَّ البدن كله .. ويسمّى هذا الشخص النوراني بين يديك ، تسمية القوم « المقدّم » ويسمونه أيضاً « شيخ الغيب » ويسمونه « ميزان الغيب » ، وقد يستقبلك هذا الشخص في أول السير ، ولكنه في اللون أسودّ زنجي .. ثُمَّ يغيب عنك ! فذلك لا يغيب عنك ، بل أنت هو ، فيدخل فيك ويتّحد بك . وإنما يكون أسود ، لأجل لباس الوجود الظلماني ، فإذا أفنيت الوجود عنه ، وأحرقت لباسه نيران الذكر والشوق ، عرى الجوهر عن اللباس ، فصار نورانياً كذلك .

[حقيقة]

واعلم أن النفس والشيطان والمَلَك ليست أشياء خارجة عنك ، بل أنت هم . وكذلك السماء والأرض والكرسي^(١) ، ليست أشياء خارجة عنك ؛ ولا الجنة والنار ولا الموت ولا الحياة ، إنما هي أشياء فيك ، فإذا سيرت وصفوت ، تبينت ذلك إن شاء الله !

(١) الكرسي ؛ هو محل استواء الله على الكون (العرش) وهو في المصطلح الصوفي : مظهر الاقتدار الإلهي ومحل نفوذ الأمر والنهي ومحل القضاء الإلهي ، الذي وسع السماوات والأرض (الإنسان الكامل ٥/٢) .

[أنوار]

واعلم أن الله نورُ السماوات والأرض^(١) ، ونور الرسول من نور العِزَّة ، ونور الأولياء والمؤمنين من نور الرسول .. فلا نور إلاَّ نوره^(٢) . وهذا سرُّ الآيتين :

﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا ﴾^(٣) .

وقوله : ﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾^(٤) .

[شيخُ الغيب]

واعلم أن السَّيَّارَ شاهداً - وهو الذى يُقال له : شيخُ الغيب - يرفع السَّيَّارَ إلى السماء ، فيظهر في السماء . والدليل على أنه شاهده ، بل هو هو ؛ لأن السَّيَّارَ يتحرك بحركته ، ويسكن بسكونه ، ويفيض بفيضانه ، وينبسط لظهوره ، وينقبض لغيبته . وهذا^(٥) متى صفا وتنور ، دَلَّ على أن الميزان قد رجح ؛ وإن اسودَّ أو غاب أو خفى وراء الحِجَاب ، دَلَّ على أن الميزان قد نحف .

وكذلك في وسط الطريق « دائرتا العينين » متى ما ظهرتا ، دَلَّ على حُسن الحال ، وإن خفيتا دَلَّ على سوء الحال وغلبة الوجود . وهذه الدوائر

(١) الآية : الله نور السماوات والأرض .. سورة النور ، آية ٣٥ .

(٢) يقصد ؛ نور الله عز وجل .

(٣) سورة فاطر ، آية ١٠ .

(٤) سورة المنافقون ، آية ٨ .. وجاء في الأصول : فله !

(٥) يقصد ؛ شيخ الغيب .

تكبر وتكثر وتقل وتصغر ، وذلك يدل أيضاً على رجحان إلميزان والنقصان ؛ إلا إذا هجم على السيار ثقل العقل الكبير ، فعند ذلك تخفى الدوائر ، والميزان راجح ! وعلامته : أن يلتفت مطبقاً جفنيه ، فيرى نقط العقل الكبير - وهى فى لون العقيق - وإنما ترى هذه النقط بجذاء الجبهة ، وإذا تخلص رؤيتها بجذاء الجبهة ، لأن الرأى^(١) لذلك ثمة^(٢) ، وهو العقل الصغير .. فقد قلنا إنه : لا يرى جوهراً إلا جنسه ، ولا يرى إلا بجنسه .

[كُتُبُ الْغَيْب]

إن فى الغيب لكُتُباً كتبها الله عزَّ وجلَّ ، بعضها بالنقط مكتوبة ، وبعضها بالأشكال ، وبعضها بالحروف - ولكن غير هذه العبارات - ولها أسام عجيبة مثل « ينبوع الأبرار » و « مجموع الأسرار » و « كتاب المهدي » و « كتاب الفلكي » و « فرحة الأبرار » و « نزهة الأسرار » و « كتاب العزائم » و « كتاب العشق » و « كتاب البحر »^(٣) و « البرهان الكبير »^(٤) و « كتاب الأشكال » .. وفيه أحكام نجومية^(٥) .

(١) أ ، ج : الرأى .

(٢) يقصد ؛ هناك .

(٣) أ : السحر - غير واضحة فى ج .

(٤) ب : كتاب البرهان .

(٥) ب : النجومية .

ففى الأول ، يرى^(١) كُتُبًا مكتوبة ، معقولة ، مفهومة ؛ كالقرآن .
ثُمَّ تقع إلى السر^(٢) ، فقد يفهمها وقد لا يفهمها - لظلام الوجود
المُنسى^(٣) - ثُمَّ يرى كُتُبًا مشكولة أشكال التريخ ، وغيرها . ثُمَّ كُتُبًا
مكتوبة بالنقط^(٤) ، يفهمها ويقرأها^(٥) ؛ فيعلم العلم اللدنى ، ثم إذا عاد إلى
الوجود^(٦) نسيها ، ولكن تبقى حلاوة الفهم فى قلبه ، ويؤمن بها ، ويورثه
ذلك رغبة وشوقاً ومحبةً وعشقاً .

[مشاهدات]

وقد يلوح له سماء ذات كواكب ، وهو قرآن ! يفهمه ويقرأه من
دلالة النقط . وقد يرى فى وسط الشدائد ، فى الغيبة - إذا صبر وصدق
صبره - لون الذهب والفضة ، فذلك لون الإخلاص والصدق .
وقد يبدو سهيل^(٧) الذُكر من بعيد ، يرتعد ارتعاد السهيل ، فذلك
سهيل الذُكر طَلَعَ من يُؤمن الإيمان^(٨) والإيقان والفرقان^(٩) . وقد يبدو زُحَلُ^(١٠)

(١) المقصود هنا ؛ السيار السابح فى عالم الغيب .

(٢) السرُّ هنا : الباطن .

(٣) يقصد ؛ الوجود المادى الجسمانى الذى ينسى به الإنسان ما سبق أن شاهده الروح فى

« عالم النور » الذى كانت فيه الأرواح قبل خلق الأجساد .

(٤) انظر الأشكال المنقوطة التى سترد فيما بعد .

(٥) ب : يقرأها .

(٦) الوجود هنا : العالم المحسوس .

(٧) سهيل : كوكب فى السماء .

(٨) الحديث الشريف : الإيمان بمان والحكمة بمانية .

(٩) أ : العرفان .

(١٠) زحل ؛ كوكب فى السماء .

الهمة في خفائه^(١) من بعيد ، فهو نهاية الكون - إذا كانت عالية - وقد يكبر إذا قرب منك ونزل من العلو ، فيكون مثل المشتري^(٢) ؛ وعلامة أنه كوكب الهمة ، أنك أينما نظرت وقع موقع نظرك . وقد يبدو مريخ النزاع والسفك ، وهذا إذا لم يكن في السيار ، لم يكن فقيراً .. قال المشايخ : « الفقير إذا لم يكن يُحصى ويميت ، فليس بفقير »^(٣) . وقد تبدو الشمس ، فهي شمس الروح أو القلب ؛ وقد تبدو زهرة^(٤) الطرب والنشاط والفرح بالله عز وجل ، وعطارد^(٥) العلم ، وقمر الوجود .

وقد يرى السيار أنه راكب حماراً ، فذلك علامة أنه^(٦) ملك الشهوة . وإذا رأى أنه راكب بغلة ، فذلك علامة أنه ملك النفس^(٧) . فإن مات تحته واحد ، فذلك علامة موته^(٨) . وإن رأى أنه راكب فرساً ،

(١) ب : صفائه .

(٢) المشتري ؛ كوكب في السماء .

(٣) الإشارة هنا إلى التصرف في الأكوان .

(٤) الزهرة ؛ كوكب .

(٥) عطارد ؛ كوكب .. وبخصوص الكواكب المذكورة هنا ، ومواقعها ؛ يمكن الرجوع إلى كتاب عمر الصوفي الفلكي : صور الكواكب الثمانية والأربعين (دار الآفاق الجديدة - بيروت) .

(٦) ب : علامة لأنه ، ج : بالسوء .

(٧) المقصود هنا : النفس الأمارة بالسوء .

(٨) يستخدم الصوفية لفظ « الموت » بمعنى مجازي يشير إلى موت شهوات البدن والنفس . وللموت بهذا المفهوم مظاهر وألوان ، فالموت الأبيض (الجوع) والموت الأخضر (لیس - المرقع) والموت الأسود (احتمال الأذى من الناس) .. راجع بخصوص ذلك : اصطلاحات الصوفية ص ٩١ وما بعدها .

فذلك علامة سير القلب . وإن رأى أنه راكبٌ جملاً ، فذلك علامة أنه يسير بالشوق . فإن كان يطير ، فذلك علامة حياة الهمة . فإن رأى الهوية^(١) غشيت عليه وانصبت إليه ، فذلك علامة أنه مطلوب محبوب . وإن رأى أنه راكبٌ في السفينة - في بحر - فالسفينة الشريعة ، والبحر الطريقة^(٢) .. واعلم أن الشريعة قانون الحكمة ، والحكمة قانون الهمة ؛ وهي « القدرة » بلسان القوم^(٣) .

[الاسم الأعظم]

واعلم أن كُلَّ أحدٍ من السَّيَّارين يؤقّي اسماً من أساميهِ العظام . والاسم الأعظم ينبع من القلوب ، والاسم الأعظم مركَّبٌ من جميع الآيات ، فما من آية في عالم الغيب والشهادة ، إلّا هي حرفٌ من حروف الاسم الأعظم ؛ فبقدر ظهور البيانات والآيات والعلامات والأمارات ، يزداد الاسم الأعظم^(٤) .. وسواء قلّت المعرفة والاسم^(٥) الأعظم !

(١) يقول الجليل : هوية الحق ، غيبة الذي لا يمكن ظهوره باعتبار جملة الأسماء والصفات الإلهية ، فكأنها إشارة إلى باطن الواحدية .. وهي مأخوذة من لفظة « هو » الذي يستخدم للإشارة إلى الغائب ، وهي في حق الله تعالى إشارة إلى كنه ذاته باعتبار أسمائه وصفاته مع الفهم بغيوبة ذلك (الإنسان الكامل ٥٨/١) .

(٢) قارن ذلك بعبارة الشيخ نجم الدين الشهيرة : الشريعة كالسفينة ، والطريقة كالبحر ، والحقيقة كالدر .

(٣) تعبير « لسان القوم » يقصد به : لغة الصوفية واصطلاحاتهم .

(٤) بخصوص « الاسم الأعظم » وأقوال الصوفية فيه ، يمكن الرجوع إلى مقالة الإمام عبد القادر الجيلاني وتعليقاتنا عليها في نشرتنا لديوانه (مؤسسة أخبار اليوم - القاهرة) .

(٥) ب : فالاسم .

ونهاية الأمر المعرفة والمحبة^(١) . والمحبة ثمرة المعرفة ، لأن مَنْ لا يعرف لا يحب . ومحبته لنا سابقة على محبتنا له^(٢) ، ومن أحبَّ شيئاً ، أكثر ذِكْرَهُ ؛ ويقول الحقُّ سبحانه وتعالى : « كذب مَنْ ادَّعى محبتي ، ثُمَّ إِذَا جَنَّهُ اللَّيْلُ^(٣) » نام عني^(٤) » وعلامة المُحِبِّ أنه لا يرى شيئاً سواه ، حالةً ، لا علماً^(٥) .

[كرامات]

وحُكي عن سمنون المحب^(٦) أنه كان إذا تكَلَّمَ في المحبة ، جعلت الشُّونِيزِيَّة^(٧) تَجِيءُ وتذهب يميناً وشمالاً . وقيل له تكَلَّم في المحبة ! فقال :

(١) يقول الصوفية : المحبة آخر درجة من درجات العلم ، وأول درجة من درجات المعرفة (المعارف الغيبية في شرح العينية الجيلية ، للنابلسي - مخطوط) والفرق بين العلم والمعرفة ، أن الأول ظاهري والأخرى باطنية قلبية .. فالعلم نظر ، والمعرفة ذوق .
(٢) يظهر هذا المعنى ، في تقديم محبة الله على محبة العبد في قوله تعالى : يحبه ويحبونه .. الآية .
(٣) قوله « جنة الليل » أى شمله واحتواه .
(٤) انظر « الرسالة القشيرية » طبعة مصر ١٣٤٦ هـ ، ص ١٧٦ .
(٥) يقصد : لا يرى المحب سوى محبوبه (الله) في أحواله ، مع علمه بأن هناك حق وخلق ..
ويجمع هذا المعنى بين الحضور والغيبة !

(٦) هو سمنون بن حمزة الخواص ، المعروف بالمحب ، توفي سنة ٢٩٧ .. راجع بخصوصه ، الفصل الأول من كتابنا (شعراء الصوفية المجهولون) وانظر أيضاً :

طبقات الصوفية ص ١٩٥ - حلية الأولياء ٣٠٩/١٠ - صفة الصفوة ٢٤٠/٢ -
طبقات الشعرا في ١٠٤/١ - الرسالة القشيرية ص ٢٨ - تاريخ بغداد ٢٣٤/٩ - البداية والنهاية ١١٥/١١ - نتائج الأفكار القدسية ١٥٩/١ - المنتظم ١٠٨/٦ .

(٧) الشُّونِيز : كلمة فارسية تعنى « الحبة السوداء » تعريب شينيز (معجم الألفاظ الفارسية ص ١٠٥) والشُّونِيزية : مقبرة ببغداد بالجانب الغربى ، دفن فيها جماعة كثيرة من الصالحين ، منهم الجنيد والخلوى ورويم وسمنون المحب ، وهناك خانقاه للصوفية (معجم البلدان ٣٧٤/٣) .

لا أعلم أحداً على وجه الأرض يستأهل الكلام في المحبة ! فوقع بين يديه طيرٌ ، فقال : « إن كان فهذا » .. وجعل يكلمه في المحبة ، والطير يضرب بمنقاره الأرض ، إلى أن سال الدم عنه ، ومات^(١) .

[المحبة والفناء]

وظهور الآيات في عالم الشهادة والغيب يورث الإيمان والإيقان والعرفان ، وبالعرفان تظهر الآلاء والنعم ، وذلك يورث المحبة ، والمحبة تورث الفناء ، بل هو حقيقة المحبة وحاصلها .

والفناء فناءان : فناءً عن الصفات في صفات الحق^(٢) ، وذلك الفناء في « الفردانية » . وفناءً عن صفاته في ذاته ، وذلك الفناء في « الوحدانية » .. وإذا تجلّت الذات ، تجلّت الهيبة ، فيتدكدك السيّار ويندق ، ويكاد يقرب من^(٣) الموت . ويسمع حينئذ : أَحَدٌ أَحَدٌ ! وإذا فنى في ذاته ، بقى به ، ويحيى به^(٤) .

(١) + أ : القشيري ١٤٦ - كشف المحجوب ١٧٣ - تذكرة العطار ٨٣/٢ - التعرف ١٢٥ - الواضح المبين ١٧٦/١ .. والحكاية مشهورة تتردد في العديد من كتب الصوفية .
(٢) يقصد : أن الصوفي يفنى عن صفاته البشرية ويستبدل بها صفات الله كالكرم والحلم وغير ذلك .

(٣) أ ، ج : عن !

(٤) المقصود هنا أن الصوفي يبقى بالله ويحيى بالله . وهو الحال الصوفي المشار إليه بالبقاء الثاني ، أو البقاء بعد الفناء ؛ وهو من الأحوال الخاصة بالتصوف الإسلامي ، التي تميزه عن أتماط الزهد والرهبة عند غير المسلمين .. فالزاهد الهندي يقف طريقه الروحي عند حالة الفناء المعروفة باسم « النرفانا » ويقف الراهب المسيحي عند مرتبة الفناء في المسيح ؛ فهذه الاتجاهات الروحية تجعل الرحلة الإنسانية إلى الله رحلة « ذهاب » أما عند المسلمين ، فالرحلة « ذهاب » في الله ، ثم « عودة » بالله !

وقد يغيب السَّيَّار ، فيرفعه الحقُّ إليه ، فيجد ذَوْقَ الربوبية في نفسه ، وهذا الذوق يكون كطرفه العين ، وهذا أَسْنَى المقامات والكرامات ، أن يذيقه الله - عَزَّ اسمُه - ذلك الذوق . فإنَّ السَّيَّار لا يزال مع الحق - سبحانه - في عتابٍ وجدالٍ ، يقول : ما الذى أوجب أن تكون رَبًّا وأكون مربوبًا ؟ وتكون خالقًا وأكون مخلوقًا ؟ وتكون قديمًا وأكون محدثًا ؟! فيذيقه الله هذا المذاق ، فيستريح من ذلك التحير والعتاب .

والعارف واقف ، والمتحير يسير^(١) .. بل العارف المطلق هو الله ، وغيره مُتَعَارِف .

ولا مقام يُنال ، إلا وبعده أَسْنَى من ذلك ، فإنَّ^(٢) الذوق لِلْقَدَم ، وإن كان سَنِيًّا ، فدوام هذا الذوق أَسْنَى منه . وهذا ميدانٌ فسيحٌ ، لا يُدرك حُدُّه إلا بعد الهلاك والرجوع إليه ، ولا يُدرك الهلاك إلا بعد ركوب هولٍ عظيم ، وهو بذل الروح ، كما فعل « الحسين^(٣) » في قوله : أنا الحق^(٤) .

(١) + أ : أخذ نجم الدين هذا القول من شيخه روزبهان الفارسي ، فإنه قال في رسالته التى لا اسم لها : سمعت الشيخ روزبهان الفارسي يقول : من كان عارفاً كان (فى الأصل : فكان) واقفاً ، ومن كان حائراً كان بسائراً لذلك (نسخة شهيد على باسطنبول برقم ١٣٩٥ ورقة ٦٤ أ) .

(٢) العبارة التالية ساقطة من ب .

(٣) الحسين بن منصور «الحلاج» .. القائل : تُهدى الأضاحي وأُهدى مهجتي ودمي ! والقائل : إن كان سفك دمي أقصى مرادكم ، فما غَلَت نظرة منكم بسفك دمي !

(٤) تلك هى اللفظة التى حوكم الحلاج بسببها ، فانتَهت المحاكمة بقتله قتلة شنعاء .. والمعنى هنا : أن الحلاج « بذل روحه » بتصريحه بتلك الأقوال (أنا الحق - ما فى الجبة غير الله) وما شابهها ، إذ أعطى بها لمعاصريه حقَّ التصرف فى دمه ؛ انظر ما سيأتى .

والهلاك والفناء واحد ، يقول في مناجاته : نَاسُوتِيَّيْ اسْتُهُلِكَتْ فِي
لَاهُوتِيَّتْكَ ، فَبِحَقِّ نَاسُوتِيَّتِي عَلَى لَاهُوتِيَّتْكَ ، أَنْ تَغْفِرَ لِمَنْ ابْتَغَى قَتْلِي^(١) !
والاستهلاك أثر المحبة . فأول المحبة طلبُ المحبوب للنفس ، ثُمَّ بَذْلُ
النفس له ، ثُمَّ نسيانُ الاثنينية ، ثُمَّ الفناء في الوجدانية .. وهذا قد ذُقناه ،
حالةً مستمرةً دائمةً في المخلوقين ، ولكن هذا ميدانُ قريبِ المَدْرَكِ
والوصولِ إلى حَدِّهِ . وميدانُ الفردانية بعيد المدرك - كما قلنا - وكل متاع
فبِثْمَنِ المِثْلِ^(٢) .

[من المحبة إلى العشق]

سُئِلَ الجَنِيدُ عن العشق ، فقال : لَا أَدْرِي مَا هُوَ ! وَلَكِنْ رَأَيْتُ رَجُلًا
أَعْمَى عَشِقَ صَبِيًّا ، وَكَانَ الصَّبِيُّ لَا يَنْقَادُ لَهُ ، فَقَالَ الْأَعْمَى : يَا حَبِيبِي ،

(١) قال الحلاج يوم مقتله ، مناجيًا ربه :

نَحْنُ بِشَوَاهِدِكَ نَلُودُ

وَبِسْنَا عَزَّتَكَ نَسْتُضِيءُ

لَتَبْدَى لَنَا مَا شَعْتَ مِنْ شَأْنِكَ وَأَنْتَ الَّذِي

فِي السَّمَاءِ عَرْشُكَ وَأَنْتَ الَّذِي

فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ .. وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ ..

وَهَؤُلَاءِ عِبَادُكَ قَدْ اجْتَمَعُوا لِقَتْلِي تَعْصِبًا لِدِينِكَ وَتَقَرُّبًا إِلَيْكَ

فَاغْفِرْ لَهُمْ

فَإِنَّكَ لَوْ كَشَفْتَ لَهُمْ مَا كَشَفْتَ لِي ، لَمَا فَعَلُوا مَا فَعَلُوا

وَإِنَّكَ لَوْ سَتَرْتَ عَنِّي مَا سَتَرْتَ عَنْهُمْ ، لَمَا لَقِيتُ مَا لَقِيتُ

فَلَكَ التَّقْدِيرُ فِيمَا تَفْعَلُ ، وَلَكَ التَّقْدِيرُ فِيمَا تَرِيدُ

(٢) يقصد : أَنَّ الفردانية مطلب عزيز ، فَإِذَا كَانَ الْفَنَاءُ فِي الْوَحْدَانِيَّةِ يَسْتَلْزِمُ الْاسْتِهْلَاكَ فِي

الْحُبَّةِ .. فَإِنَّ الْفَنَاءَ فِي الْفَرْدَانِيَّةِ يَسْتَلْزِمُ بَذْلَ الرُّوحِ .

أيش تريد منى ؟ فقال الصبى : روحك ! ففارق روحه في الحال^(١) .

العشقُ نارٌ تحرق الحشا^(٢) والكبد ، وتطيشُ العقل ، وتُعمى البصر ، وتذهب السمع ، وتُهَوِّن ركوب الأهوال ، وتُضيِّقُ الخلق حتى لا يعبر فيه إِلَّا النَّفْسُ ، وتُجمِّعُ الهمة على المعشوق ، وتُسيء الظن بالمحجوب من الغيرة .. وتزيد ، فيذهب النظام ، ويدوم الهيام ، ويطيب الموت ، ويورث النسيان . ويطفئها الوصل ، ويقللها العتاب والشتم والضرب .. ويودُّ المحبُّ ألا يكون حبيبهُ ، حتى لا يصل إليه غيرة ! وقد ينتهى في المخلوق إلى أن يقول : أَنْتَ رَبِّى لَا رَبَّ لى سواك .. وهذه كلمة كفرٍ ، ولكن عن حالة اضطرار ، لا عن كسبٍ واختيار . وهذه كلمة لا يقولها العاشق ، بل إنما تقولها نارُ العشق - لأن تربية نار العشق من الحبيب -

(١) وردت هذه الواقعة في كتاب السلمى « المقدمة في التصوف ص ٣٣ » وأعاد ذكرها في كتابه « الفتوة ص ٣٨ » ونصها عند السلمى :

حكى أن أبا الحسين النورى جاء إلى الجنيد فقال : بلغنى أنك تتكلم فى شىء من المحبة ، فتكلم فيما أثبتت حتى أردته عليك ! فقال الجنيد : أحكى بدء الحكاية ، كنت أنا وجماعة من أصحابنا فى بستان ، فأبطأ علينا مَنْ يجيئنا بما نحتاج إليه ، فصعدنا بطلع فإذا بضيرٍ معه غلام جميل الوجه ، والضير يقول له : أمرتنى يا هذا بكذا وكذا ففعلت ، ونهيتنى عن كذا وكذا فتركت ، وما خالفتك فى شىء تريده ، فماذا تريد منى ؟ فقال الغلام : أريد أن تموت ! فقال الضير : ها أنا ذا أموت .. وتمدد وغطى وجهه . فقلت لأصحابى : ما بقى على هذا الضير شىء ، قد تشبه بالموتى ، ولكن لا يمكنه الموت على الحقيقة . فنزلنا إليه وحركناه ، فإذا هو ميت ! فقام النورى وانصرف .

وتشير القصة إلى أن العشق الحسى يقود إلى الموت ، فما بالك بالحب الإلهى .

(٢) ب : الحشى .

وإنما العاشق يقول بلسان الحال : أَنْتَ هَلَاكِي فِي دِينِي وَدُنْيَايَ ، وَأَنْتَ كُفْرِي وَإِيمَانِي وَغَايَةُ رَغْبَتِي ، وَأَنْتَ أَنَا .. للحسين^(١) :

عَجِبْتُ مِنْكَ وَمِنِّي أَفْنَيْتَنِي بِكَ عَنِّي
أَذْيَيْتَنِي مِنْكَ حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّكَ أَلْسِي^(٢)

وقد يفنى العاشق في العشق ، فيكون العاشق هو العشق . ثم يفنى العشق في المعشوق .

[تذكّر]

عشقتُ جاريةً بقريةً على ساحل نيل مصر ، فبقيتُ أيامًا لا آكل ولا أشرب - إلا ما شاء الله - حتى كثرت نَارُ العشق ، فكنت أتنفّسُ نيرانًا .. وكلما تنفّستُ نَارًا ، تنفّسوا من السماء - بجذاء نفّسى - نَارًا ،

(١) الحلاج .

(٢) البيتان من قطعة شعرية للحلاج (الديوان ، نشرة ماسينيون - باريس ١٩٣١) يقول فيها :

عَجِبْتُ مِنْكَ وَمِنِّي يَا مَنِيَّةَ الْمُتَمَنِّي
أَذْيَيْتَنِي مِنْكَ حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّكَ أَلْسِي
وَوَغِبْتُ فِي الْوَجْدِ حَتَّى أَفْنَيْتَنِي بِكَ عَنِّي

وفي النسختين ب ، ج ثلاثة أبيات ترد في هامش أ ، وهي :

أَقْلَنِي عِثْرِي وَاسْمِعْ دَعَائِي فَأَنْتَ الْيَوْمَ فِي الدُّنْيَا رَجَائِي
لَقَدْ أَعْيَا الْأَحْبَةَ : مَا دَوَائِي وَعِنْدَكَ يَا عَزِيزَ دَوَاءِ دَائِي
دَوَائِي نَظْرَةٌ فِيهَا شِفَائِي شِفَائِي فِي لِقَائِكَ يَا مَنَائِي

والأبيات من بحر الوافر ، وفي كلمة « منائي » ضرورة شعرية قبيحة من حيث اللغة فالصحيح : مُنَاي .

فتلتقى الناران ما بينى وبين السماء ، فما كنتُ أدري من ثَمَّة أين
تلتحقان ؛ فعلمتُ أن ذلك شاهدى فى السماء^(١) .

[عَوْدٌ للمحبة والعشق]

نهايات المحبة بداياتُ العشق . والمحبة للقلب ، والعشق للروح ؛
والسِّرُّ^(٢) يجمع الأحباب ، والهمة أثرُ الجمع .. قيل : ما نهايةُ هذا الأمر ؟
قال : الرجوعُ إلى البداية !

وبدايةُ هذا الأمر ، طلبُ الجنس للجنس ، وهو نورٌ ولُطْفٌ منه .
وذلك يورث التَّمَنَّى بالشهوة ، والإرادة بالفؤاد ، والمحبة بالقلب ، والعشق
بالروح ، والوصل بالسِّرِّ ، والتصرف^(٣) بالهمة ، والصفاء فى الصُّفَّة^(٤) ،
والفناء فى الذات ، والبقاء به .. ونوره ولُطْفُهُ من الأول إلى الآخر ، بلا
أول ولا آخر ، باقٍ به ، طالبٌ له .

(١) راجع كلام الشيخ عن « الشاهد » فيما سبق .

(٢) السر هنا من السرية ، بمعنى : انمحاق السالك فى الحق عند الوصول التام (راجع
اصطلاحات الصوفية ص ١٠٣) .

(٣) التصرف : الإيجاد الخيالى والفعل المنسوب للأولياء .

(٤) أصل الصفة : اسم لجماعة شهيرة تعد أول ظهور التصوف فى الإسلام (انظر : حلية
الأولياء ، باب أهل الصفة) والمقصود بالصفة هنا : المقامات العالية .

فصل : ما الفرق بين الحال والمقام والوقت ؟

قلنا : الحال زاد شراباً ومركباً ، بها يتقوى السَّيَّارُ ويستعين في سفره المعنوي إلى مطلوبه الكُلِّي . والسفر حرامٌ بدون الاستطاعة ، ولكن الاستطاعة عند القوم إما بالحال أو بالمال ! والحال هي قوَّة الروح أو القلب أو النفس أو الشهوة ؛ والمال تقوية للنفس والشهوة فحسب ، فكان « الحال » في الاستطاعة أقوى ، فإن الحال قوَّة « من باقٍ في باقٍ إلى باقٍ » والمال قوَّة « من فانٍ في فانٍ إلى فانٍ » .

وقولنا « من باقٍ » : من الحق ، وهي كالنُّزُل من السلطان الوافد عليه^(١) « في باقٍ » : في القلب والروح ، فإن قيل : فهل للنفس والشهوة من بقاء ، حيث سلكتُهُما في نظام واحد ؟ قلنا : النفس إذا قَصَدَتْ هذا المقصد تزكَّتْ ، وإذا تزكَّتْ لَامَتْ ، وإذا لَامَتْ ذَكَرَتْ واطمأنت ، فصارت قلباً . والشهوة كذلك ، فإنها متى ما نزلت من الفاني إلى الباقي ، صارت شوقاً في القلب ، وحنيناً ورغبةً ، حتى يُسمع من القلب حنين كحنين الفرس^(٢) ، وهو سِرُّ إسلام الشيطان^(٣) وإلهام التقوى للنفس^(٤) .

(١) يتفق الصوفية على أن « الأحوال » مواهب من الله ، فهي من الباقي عَزَّ وَجَلَّ .

(٢) الحنين : صوت الإبل إذا نزع منها ولدها (لسان العرب ٧٤١/١) .

(٣) في الحديث الشريف : لكل امرئ شيطان ، قالوا : حتى أنت يا رسول الله ؟ قال : حتى أنا ، إلا أن الله أعانني عليه فأسلم .

(٤) الآية : ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾ سورة الشمس ، آية ٨ .

وقولنا « من فَنِ إلى فَنِ إلى فَنِ إلى فان » : فإنه من المال ، والمال فَنِ في فان ، فإنه قُوَّة في النفس والشهوة ، فإنهما فانيتان - فَنِ النفس والشهوة لما تولَّتا عن سواء الطريق والمنهج المستقيم فَنَيْتَا في مفاوز الهيبة - فَنِ قيل : أليست الهيبة في طريق القلب والروح ؟ قلنا : بلى ، ولكنهما حَقَّان قاصدان الحق ، فعَلا ما أمرهما الحقُّ ، وما عصياه ، وبَدَلا الجهد في الطلب . فإذا برزت عليها سواطع الهيبة ، أدركتهما أنوارُ الجلال والرحمة والإفضال ؛ فلا يذوقان خوفاً وفرعاً - لمكاتبهما من لُطف الحق - فإذا كان الهوى والشهوة في صحبتتهما ، وحملت عليهما^(١) بوادرُ الهيبة ، ظهرت حقيقةُ الإنابة وسِرُّ الاستعاذة في الهوى والشهوة ، فيلتبسان بأذيال القلب والروح ، ويظهر في القلب والروح سِرُّ التسليم والتفويض والرضا والتوكل ، بالتبرؤ عن الحلول والقوة مع حُسن الظن بقلب القلوب وروح الأرواح ، فيدركها نورُ الجمال والرحمة ، فيستأنسان به ، فيبقى القلبُ والروح بالرَّبِّ ، والهوى والشهوة بالروح والقلب ، فينجون جميعاً ، فهم القوم لا يشقى بهم جليس^(٢) .. وهو سرُّ الرفيق في الطريق .

والمقامُ للنزول والاستراحة عن تعب السير . فالحال بمنزلة أسباب السفر ، والمقام بمنزلة « المنازل » في الطريق .. أو نقول : الحال بمنزلة الجناحين للطير ، والمقام بمنزلة الوكر له .

(١) . . عليهم !

(٢) الحديث : هم القوم لا يشقى بهم جليس (أخرجه البخارى في الدعوات ٦٦ والترمذى في الدعوات أيضاً ٦٦) .

ولا بد للسَّيَّار من قوَّتَيْن مختلفتين في حالة واحدة ، نبعثا من معنى واحد ، سواء كان السَّيَّار مبتدئاً أو متوسطاً أو منتهياً - والمبتدئ طفل الطريق ، والمتوسط كهل^(١) الطريق ، والمنتهى شيخ الطريق - وهاتان القوتان يجب أن تكونا متساويتين ككفتي الميزان ؛ ومن كَشَفَ هذا السِّرَّ يتجلَّى الميزانُ ، ويُعلم معنى قوله : الصراط أدقُّ من الشَّعْرة وأحدُّ من السيف^(٢) .

وليس جناح المنتهى مثل جناح الكهل ، ولا جناح الكهل كجناح الطفل . اعتبرْ هذا بجناح التَّسَرُّ وبُغَاث الطير^(٣) ! فجناح الطفل الخوفُ والرجاء^(٤) ، وجناح الكهل القبضُ والبسط^(٥) ، وجناح الشيخ الأنسُ والهيبة ؛ ومنهما يترقَّى إلى جناحَيْ المعرفة والمحبة ، والفناء والبقاء ، والوصل والفصل ، والصحو والسُّكر ، والحو والإثبات . وهذان الجناحان إنما يصحُّ الطيران بهما ، إذا كانا متساويين في الذات والتحريك ،

(١) الكهل : الذي عمره من الثلاثين إلى الخمسين .

(٢) راجع الأحاديث النبوية الخاصة بالصراط في المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي ٣٠٠/٣ (طبعة بريل - لندن ١٩٥٥) .

(٣) البغاث : كل طائر ليس من جوارح الطير ، ويقال : هو اسم للجنس من الطير الذي يُصاد (لسان العرب ٢٣٨/١) .

(٤) في الحديث الشريف : الخوف والرجاء جناح الإيمان .

(٥) القبض : هو في مقام القلب بمثابة الرجاء في مقام النفس ؛ يقول القاشاني : وهو وارد قبول ولطف ورحمة وأنس . ويقابله وارد القبض ، كالخوف في مقابلة الرجاء في مقام النفس .. والبسط هو أن يبسط الله العبد مع الخلق ظاهراً ، ويقبضه الله إليه باطناً ، رحمةً للخلق . وهو يسع الأشياء ولا يسعه شيء ، ويؤثر في كل شيء ولا يؤثر فيه شيء (اصطلاحات الصوفية ص ٣٧) .

أما إذا تفاوتتا في الذات أو الصفة ، فإنه يتفاوت السَّيَّارُ والطَّيَّارُ بهما ، لأنَّ الثَّقلَ يجذبه إلى التَّحتِ والخفيف يقلُّه إلى الفوق ، وإذا كان أحدهما أقوى من الآخر ، فيقدِّمه الأقوى ويخلِّفه الأضعف ، فيقف السَّيَّارُ .. أو يكون أحدهما أكثر حركة من الآخر ، فيوجب الاختلافُ فيهما ، الحَيْدُ عن الطريق السوى والصراط المستقيم ، الذي هو أدقُّ من الشَّعْر ، لأنه لو كان مثل الشَّعْر لكانت فيه فسحة الحَيْد ! وَمَنْ تَرَجَّحْ خَوْفُهُ عَلَى رَجَائِهِ ، وَقَعَ فِي زَمْهِيرِ الْأَفْكَارِ ؛ وَمَنْ تَرَجَّحْ رَجَاؤُهُ ، زَلَّ عَنِ الصَّرَاطِ فِي جَحِيمِ الْإِغْتِرَارِ . وصفة الحق العدل « شَدِيدُ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ »^(١) فعقابه أوجب له جناح الخوف ، وفضله أوجب له جناح الرجاء .

واعلم أن هذين الجناحين في ميدان الطفل ، ولا يتبدلان حتى يستقيم فيه ، فإن الاستقامة سبب العبور على الصراط ؛ إما أن يزلَّ بمعضية فيزيد خوفه ، أو يغترَّ بعبادة فيعثر بها ! فلا طمع في العبور .. وهكذا دأب الأطفال ، ييقون في زمهير الخوف مُدَّةً ، وقد ييقون في جحيم الرجاء مُدَّةً ، وقد يستقيمون فيها مُدَّةً ؛ وذلك لنقصهم وضعفهم ، وهو مقام « التلوين » في مقام « الخوف والرجاء » . وكلُّ صاحب مقامٍ وحالٍ ، فلا بد أن يكون فيه - في البداية - ملوَّنًا ، وفي النهاية مستقيمًا متمكَّنًا .. فإذا استقام وتمكَّن ، تمكَّن من العبور على الصراط .

وعند الاستقامة في الخوف والرجاء ، يدخل في أول حدود الكهل ، وهو القبض والبسط . وفي القبض والبسط من الشرائط والبيان ، مثل

(١) الآية : ﴿ غَافِرُ الذَّنْبِ وَقَابِلُ التَّوْبِ شَدِيدُ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ ﴾ سورة غافر ، آية ٣ .

ما ذكرناه في الخوف والرجاء ؛ وإنما كان القبض والبسط جناحي الكهل ، وميزان أعماله - وما بينهما صراطٌ ، والحيد عنه يميناً وشمالاً زمهريره وجحيمة - لأنهما أعلى من الخوف والرجاء بدرجةٍ ، من قِبَل أن الخوف والرجاء سببهما العلمُ ، والقبض والبسط سببهما تصرفُ القدرة القديمة^(١) فيه . والعلمُ ، تتطَرَّقُ إليه آفةٌ ، كالنسيان أو الاشتغال بذكر مخالفه أو ضده ، مع أن^(٢) ذكرهما يتعلق بفعل المختار^(٣) ؛ بخلاف القبض والبسط ، فإن سببهما القدرة القديمة ، وتلك لا تتطَرَّقُ إليها آفةٌ ولا مُعارضٌ ولا مانعٌ ، ولا تتعلَّقُ باختيار السيَّار بل باختيار الواحد القهَّار .. ولأن القبض والبسط ذوقٌ في القلب والأجساد ، والخوف والرجاء ذوقٌ في القلوب دون الأجساد .

فإن قيل : قد عُلِمَ أن الخوف والرجاء يمكن فرضهما في حالةٍ واحدة ، وتُعقل التسوية والاستقامة فيهما ، فهل يمكن ذلك في القبض والبسط ، مع أنهما ضدَّان لا يجتمعان ؟

قلنا : في أوائل الدخول في هذا الميدان ، تارةً يكون القلب منبسّطاً وتظهر آثاره على الوجه ، وتارةً يكون منقبضاً وتظهر آثاره على الوجه ؛ وذلك في مقام « التلوين » في ميدان القبض والبسط . ولكن المستقيم فيه يكون منقبضاً منبسّطاً ، ولكن إذا رآه الجاهل حسبه منقبضاً فحسب ؛

(١) يقصد : القدرة الإلهية الأزلية .

(٢) يقصد : علاوةً على أن .

(٣) الإشارة إلى اختيار العبد « السيار » لا اختيار الله « الإرادة القديمة » .

أما إذا رآه الأهل^(١) ، قرأ من جبينه أنه دُرُج من قبضٍ فيه جوهرٌ من بسط ، لِمَا أنه وصل إلى ما وصل^(٢) وذاق ما ذاق ؛ وذلك أن عباد الله الخواص ، إذا^(٣) اطلَّعوا على الخزائن والدفائن ، وعرفوا أن معه^(٤) المزيد - من غير نفاذ إلى أبد الآباد - فرحوا بما عندهم ، وخرجوا إلى طلب المزيد ، فلزموا الوقار واجتنبوا الإظهار ، غيرةً وخيفةً على ظهور الأسرار عند الأغيار^(٥) .. فتعلوهم صفات الجبروت والكبرياء ، ويضمرون صفات الرحمة والجمال ؛ فهم منقبضون بأبدانهم ، كأنهم قيَّدوا بالسلاسل من شدة الوقار والأناة والتذكار ، ومنبسطون بالقلوب والأرواح انبساط الفوف^(٦) عند مهب الريح .

فإن قيل : ماذا أوجب أن تعلوهم صفات الهيبة والجبروت ، ويضمرون صفات الجمال والفضل والرحمة ؟ قلنا : لأن الجمال والفضل

(١) الأهل : الذى عرف هذا المقام وخبره .

(٢) أى أن « الأهل » سبق له الوصول إلى ما فيه صاحب الاستقامة والجمع بين القبض والبسط .

(٣) ب : إذ .

(٤) أى ، مع الله عز وجل .

(٥) قارن ما يقوله الشيخ نجم الدين هنا ، بما يقوله القشيري من أن الصوفية استخدموا لغة الرمز : لتكون معاني ألفاظهم مستبهمة على الأجانب ، غيرةً منهم على أسرارهم أن تشيع في غير أهلها (الرسالة القشيرية ص ٥٣) .

(٦) ب : النون ، + ب : النوق ، + أ : الفوف القطن .. وعند ابن منظور : الفوف هو الحبة البيضاء في باطن النواة التي تنبت منها النخلة ، وهو القشرة التي على حبة القلب والنواة دون لحمة الثمرة ، وكل قشرة فوف (لسان العرب ١١٤٥/١) :

والرحمة ، حرائر ومُخَدَّرات^(١) ذوات جمالٍ ودلال ، تسترن بالحجاب لئلا يطمع فيهنَّ الغيرُ ، فيفتتن^(٢) !

فإن قيل : فصفاً الهيبة والجبروت ، أليست هي المطلوبة ؟ قلنا : بلى ، ولكن الغير يبصر منها صورها دون معانيها ، وصورها هائلة كالثعبان والأسد والعقرب والحية ، والغير مجتنبٌ عن مثل هؤلاءك ، فلا يطمع فيهنَّ ؛ بخلاف الصفات الجمالية . فنسبة الصفات الجمالية إلى الصفات الجلالية ، نسبة النساء إلى الرجال بصورها ؛ وبالضدِّ من ذلك ، من حيث معناها .

[أقوال وأحوال]

قال الجنيد ، قدس الله سيره : لو علم الملوك ما نحن فيه ، لحاربونا بالسيوف عليه^(٣) .

وقيل : إنه كان يوماً في سماع^(٤) لبعض الإخوان ، وقد طاب لهم

(١) الحرائر : جمع « حرة » وهي المرأة الجميلة المصونة ؛ والمخدرات ، الجميلات اللواتي احتجين في الخدر (= الخيمة ، الهودج) .

(٢) المراد هنا ، هو عين ما أشار إليه القشيري في قوله السابقة .. والغير ، هم « الأجانب » في عبارة القشيري ، أى : العامة الذين من شأنهم الافتتان بمعاني الأولياء .

(٣) هي عبارة مشهورة من عبارات الجنيد ، أوردها بعض المؤرخين بهذا اللفظ المذكور ، وأوردها البعض بلفظ : لجالدونا عليه بالسيوف .

(٤) السماع : مجلس صوفي يجتمع فيه الإخوان للذكر والإنشاد ، وتستخدم فيه الموسيقى .. راجع مناقشة الغزالي لهذا الموضوع في الجزء الثاني من الإحياء (الكتاب الثامن من السماع والوجد) وانظر أيضاً : التعرف ص ١٦٠ ، اللمع ص ٣٤٠ - حل الرموز للمقدسى ص ٦٦ .

الوقت وقاموا للرقص^(١) ، والجنيد قاعدٌ لم يتحرك ، فحسبوا أن الرقص عنده حرام ، فسألوه عن ذلك فقال : ﴿ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً ﴾ الآية^(٢) .

فالراقص يستولى عليه البسط فيملكه ، والشيخ لا يملكه شيء ، وإنما هو يملك الأحوال .. وكذلك أبو الحسين النوري^(٣) ، كان قاعدًا في السماع ، فتحرك القوم للدوران وهو قاعدٌ - كأنه جماد - لم يتحرك ، فحسب القوم أنه ما أثر فيه السماع ؛ فلما كان بعد ساعة ، تفصّد جبينه وطار الدّم ، وإنما طار الدّم ، لأجل ترقّى الحالة إلى نهايتها ، فإن الحالة إذا انتهت - ومقامها الروح ، والدّم عرشُ الروح - انفتحت العروق وامتلأت ، وانفطرت ، إذ لم يكن فيها للحالة مجال .

(١) دخل الرقص في مجالس السماع الصوفي في وقت متأخر نسبيًا ، ثم داوم عليه « المولوية » أتباع مولانا جلال الدين الرومي الذي كان يقول : لا يفنى في الله مَنْ لم يعرف قوة الرقص .
(٢) بقية الآية : ﴿ وهى تمر مر السحاب ﴾ . والمعنى : أنه ثابت الظاهر كالجبال ، لكن باطنه مثلها يضطرم ويطير من الوجد .

(٣) هو أحمد بن محمد النورى الخراسانى ، من كبار رجال التصوف في القرن الثالث الهجرى . انظر ترجمته في : طبقات الصوفية ص ١٦٤ - حلية الأولياء ٢٤٩/١٠ - تاريخ بغداد ١٣٠/٥ - الرسالة القشيرية ص ٢٠ - الأنساب ص ٥٧٠ - صفة الصفوة ٤٣٩/٢ - المنتظم ٧٧/٦ - البداية والنهاية ١٠٦/١١ - النجوم الزاهرة ١٦٣/٣ - سير أعلام النبلاء ٧٠/١٤ .

وقد مات النورى ميتة درامية ، فقد سمع يومًا بيثًا شعريًا يقول :
ما زلتُ أنزلُ من وداك منزلًا تحير الألباب عند نزوله
فقام وتواجد وهام على وجهه ، فدخل حقلًا للقصب كان قصبه قد قُطع وبقيت أصوله في الأرض كالسيوف ، فظل الدم ينزف منه وهو يعدو ويعيد البيت .. ومات بذلك .

وإنما للقبض أثره في الصورة والخيال ، لأنها أشد الأشياء قوَّةً وقساوَةً وشدةً وكثافةً ، فالقبض يجتمع بها تحقيقاً للجنسية ؛ بخلاف المعاني والأنوار والقلوب والأرواح ، فإنها ألطاف من كمال لطفها ، تخلَّصت عن القيْد والأخذ - إلا بهيبة الكبرياء - فاجتمع بها الأنس ، لثبوت نسبته إلى اللطف . وبهذين الجناحين ، يطير الكهل إلى ميدان الشيخ ، ويتبدَّلان حينئذٍ بالأنس والهيبة .. وإنما فاقا على القبض والبسط ، لأن فيهما كثُرت الشواهد من الوجدان والذوق والمشاهدة ، وفي القبض والبسط قلَّت الشواهد - فإن شواهدهما الوجدان والذوق فحسب - فكانت جلالة الأنس والهيبة من هذا المعنى .

والشيخ ، له كذلك - بهذين الجناحين - حيِّدٌ عن الصراط المستقيم واستقامةً ، وهو تلوينه وتمكينه . وتلوينه أن تكون تارةً تتجلَّى له صفات الجمال من الفضل والرحمة واللطف والكرم ، فيكون مستغرقاً في الأنس ، وتارةً تتجلَّى له صفات الجلال من القدرة والعظمة والكبرياء والعزَّة والسطوة وشدة البطش ، فيكون مستغرقاً في الهيبة ، وتارةً تترج الصفات إذا تجلَّت^(١) الذات .. فإن الذات أمُّ الصفات ومجموعها .

فالخائف الراجي مسلمٌ ، والمنقبض المنبسط مؤمنٌ موقنٌ ، وصاحب الأنس والهيبة متقنٌ عارف . فهذا المتقن العارف المحسن ، إذا تجلَّت^(٢) له الذات ، يحبُّ ذلك ، وإن كان يؤخذ منه حبُّ الأشياء من القلب والروح

(١) . تجلَّى !

(٢) . تجلَّى !

- لِمَا يرى ويدوق من جلاله ذلك الشَّانَ وعظمته - فمحبته أنسه ،
وَأَخْذُ المحبوب منه ، هيئته . ومن الهيبة والأنس يترقى إلى جناحي المحبة
والمعرفة ، وجناحي الفناء والبقاء .

وإنما قلنا بأن^(١) الأنس^(٢) والهيبة جناحا الشيخ ، لأنهما ثمرتا تجلّي
الذات ؛ فهو واصلٌ إلى الذات وموصلٌ إليها^(٣) ، وهو المقصد الأسنى .
والقبض والبسط ثمرتا الصفات ، وكان كهلاً لأنه واصلٌ إلى الصفات .
وصاحب الخوف والرجاء طفلٌ ، لأنهما ثمرة العلم ، ويتطرق إليه من
الآفات ما ذكرناه .. فسبب تمام الخوف دوام العلم ، وسبب تمام القبض
والبسط دوام الشكر والصبر ، وسبب تمام الأنس والهيبة دوام الرضا
والتفويض ؛ وقد ينقلب الرضا والتفويض ثمرةً للأنس والهيبة ، لأنه إذا
شاهد الآلاء والبلاء منه - عزَّ اسمه - بطريق سلب الاختيار عنه ، تملَّق إلى
الحقِّ بحكم الحيلة ، بالرضا والشكر - لقضائه وآلائه - والصبر والتفويض
أَمَرَ نفسه إليه ، على بلائه ، فيقول : أنت ربِّي وقادري ، إن شئتَ أحنيني
وإن شئتَ أمتني .

وجناحا المعرفة والمحبة لا يثبتان معاً ، بل جناحا المعرفة يسبق جناح
المحبة ، إلا أنها ملازمة لها ، كالظلِّ للشيء يشاركه في الزيادة والنقصان .
والفناء والبقاء كذلك ، كلما فنى من غيره^(٤) ، بقى به ؛ وكلما انفصل

(١) - أ .

(٢) أ : بالأنس .

(٣) . . . إليه .

(٤) أى عن غير الله .

عن غيره ، اتصل به ؛ وكلما صحا عن غيره ، سكر بشراب شهوده ؛
وكلما محاه^(١) الحق ، أثبتته . وهذا المحو والإثبات ، والصحو والسُّكْر ،
مقاماتٌ قبل الفناء والبقاء .

[الشوق]

فإن قيل : فما زوج الشوق من الأجنحة ؟ أهو جناحٌ واحدٌ لا زوج
له ؟ قلنا : هو بمنزلة الحبة ، زوجةُ العرفان ، فإنه^(٢) بقدر العرفان يشقائق .
وفي العرفان درجاتٌ ثلاث ؛ عرفان العامة ، وعرفان الخاصة ، وعرفان
خاصة الخاصة .

فعرفان العامة : الاستدلال بالآيات الظاهرة .

وعرفان الخاصة : الاستدلال بالآيات الظاهرة والباطنة بالغيب ، وهو
عرفان الإيمان والإيقان .

وعرفان خاصة الخاصة : الاستدلال بناصب الآيات على الآيات^(٣) ،
وهو عرفان الإلتقان .. فعرفوا كل شيء به ، لا أنهم عرفوه بشيء .

ومثال هذا ، ينبوع والبحر والسواقي : فإن مَنْ أبصر الساقية عرف

(١) ب ، ج : مح .

(٢) أ : فإن .

(٣) يقول الصوفي : ما عرفْتُ الله بالأشياء ، بل عرفْتُ الأشياء به .. وراجع بخصوص
هذا المعنى ، حوار الشيخ نجم الدين مع فخر الدين الرازي المذكور في هذا الكتاب ،
ص ٦٣ وما بعدها .

أن لها مُمِداً ، فهو عرفانٌ ، إلا أنه ناقصٌ ؛ لأنه عرفان بأن ثمة مُمِداً ، ولكنه لا يعرف قَدْرَ المُمدِّ ، أهو مثل الساقية ، أم هو فوقها بكثير .. فلا يزال يقتفى الساقية ، إلى أن وصل إلى البحر الذى هو مُمِداً تلك الساقية ، فاستعظم البحر واستكثره ؛ إلا أنه قال : وإن كان هذا البحر عظيماً ، إلا أنه من جنس الساقية ، لكونه محدوداً ! وذُلت^(١) عظمة البحر على عظمة المُمدِّ ، وهو عرفانٌ ، إلا أنه ناقصٌ لأنه ما أبصر المُمدِّ ، أهو مثل البحر ، أم فوقه ، أم دونه .. فلا يزال فى طلب مُمِده إلى أن وصل إلى ينبوع الذى منه وجود البحر والسواقى . فعرف السواقى والبحور منه ، الآن ، وقبل ذلك كان عارفاً به بواسطة السواقى والبحر .

فالمقصود ، أن كُلَّ عرفانٍ يوجب محبةً وشوقاً بقدره . أو نقول : يفنى الطالبُ فى الشوق ، أو المعرفةُ فى المحبة ؛ لأن العرفان يقتضى الوصف ، والمحبة تنفى الوصل وتقتضى الإجلال عن النعت ، فإذا فنى الموصوف فى الصفة ، والمُتممُ فى الثمرة - مثل العرفان فى الشوق والمحبة - والصفة تبتغى أبداً موصوفاً ، فإذا فنى الحبُّ فى المحبة ، اتحدت محبته بمحبة الحبيب ، فحينئذٍ : لا طائر ولا جناح ! فيكون طيرانه ومحبته للحق ، بمحبة الحق له .. ولا « له » به !

أَنَا مَنْ أَهْوَى وَمَنْ أَهْوَى أَنَا^(١)

﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾^(٢) .

والشوق بدايات المحبة ، ففي الأول يصحب التوجُّه - لنقصانه -
فإذا صار محبةً وعشقًا ، يذر التوجُّه ، ويكون طائرًا من كل جهةٍ إلى كُلِّ
جهة . لأن الحبيب هناك ! فيطير من قُدَّامٍ ووراءٍ ، وفوقٍ وتحتٍ ، ويمينًا
وشمالًا ، وخارجًا وداخلًا .. إذ الحبيبُ يتجلى له من كُلِّ جهةٍ ، لكُلِّ
جهةٍ ، إلى كل جهةٍ ، في كل جهة .

[إجمال]

والحال ، ما تحوَّلت به من مقامٍ إلى مقام . والمقام ، ما وقفت فيه حين
الفتور . والوقت ، سيفٌ قاطع ؛ لأنه لو لم يكن قاطعًا لتوقَّف لك حتى
تتدبَّر وتنفكَّر ، ولكن الوقتُ مضًا كالسيف البتَّار .

[تفصيل]

والصوفي ابن الوقت ، لأنه يدور مع الوقت كيفما كان ، ولا ينظر
إلى ما مضى ، ولا إلى المستقبل ؛ لأن نظره إلى الماضي والمستقبل يضيِّع

(١) الشطر الأول من بيتي الحلاج الشهيرين :

أنا من أهوى ومن أهوى أنا نحن روحان حللنا بدننا
فإذا أبصرتني أبصرته وإذا أبصرته أبصرتنا

(ديوان الحلاج ، نشرة ماسينيون ، ص ٩٢)

(٢) سورة القصص ، آية ٨٨ .

عليه الوقت ، وربما ضيع أوقاتاً كثيرة .. وهذا^(١) ، شرط صحة المراقبة^(٢) ، والمراقبة من المفاعلة مع الحق الحبيب ، لأن الحق رقيب في كل ما يصنع ويفعل من خيرٍ وشرٍّ والتفاتٍ واستماعٍ إلى غيره ، وهو رقيب الحق في كل ما يرد عليه من ولاءٍ أو بلاء ، فيستقبلهما تارةً بالصبر والشكر - في أوائل الطريق - وتارةً بالشكر والإيثار - في وسط الطريق - وتارةً بإنزالهما مكاناً واحداً .

أَحِبُّ عَلَى أَيِّمَا حَالَةٍ إِسَاءَةً لَيْلَى وَإِحْسَانَهَا^(٣)

رأيتُ عاشقاً كلما صفعه المعشوق ، جعل يباهى بها الناس ، ويضحك ويقول شِبَّةَ الْفَرَحَانِ : ما يقصّر في حقنا !

قيل : الصوفي لا تجاوز هِمَّتَهُ قَدَمَهُ^(٤) . فلا تظنّ بهذا دناءة هِمَّةِ الصوفي ، فإن إحدى قدمي الصوفي في النهاية والأخرى في اللا نهاية ؛ فلا يفارق هِمَّتَهُ أبداً ، لأن السَّيَّارَ فَارَسَ وَالْهِمَّةَ فَرَسَهُ .

(١) الإشارة إلى كون الصوفي ابن وقته .

(٢) المراقبة : إحدى الرياضات الروحية التي يرصد فيها الصوفي حاله مع الله ويترصد خطرات النفس .. راجع أقوال الصوفية في « المراقبة » كما أوردها القشيري في الرسالة ص ١٨٩ وما بعدها .

(٣) + أ : ديوان البحتری قسطنطينية ١٣٠٠ هـ ٢٥٤/١ .

(٤) هي عبارة شهيرة للشيخ أبي محمد المرتعش النيسابوري « المتوفى ٣٢٩ هجرية ، رواها القشيري بلفظ : ينبغي للفقير أن لا تسبق همته خطوته .. ورواها الهجویری بلفظ قريب .

[بيان أمر الهمة]

وللهمة بدايات ونهايات .. فبدايتها الإرادة ، ثُمَّ الطلب ، ثم الربط^(١) ، ثُمَّ التصرف^(٢) ، ثُمَّ الكون^(٣) . والهِمَّةُ قدرةٌ ، والسِّرُّ يَجْمَحُ الهِمَّةُ وقدرةُ الحق ، والإرادة والطلب من القلب ، والروح لا يخفى ، إنما يكشف عن الربط الذوق به . فنقول : إذا قويت الإرادة واشتدّت ، وصدق الطلب ؛ حصل بين صاحب الهمة والمطلوب رابطة ، إما بإيجاد ، أو إفناء . مثل السلسلة بين الشيئين ، أو الرمح الحاصل بين يدي المبارز وصدر الآخر ، أو السهم ، أو النور بين الشمس والأرض .. والله يربط على قلوب عباده المنيبين إليه ، بنورٍ منه . ويدوق السَّيَّارُ رابطةً بينه وبين السماء ، كأنهما شيءٌ واحد ؛ وهو قد يرى سلسلةً من السماء إلى قلبه ، وهو معتصمٌ بها - وهو حبل الله^(٤) - حين تتركَّى الأجزاء السماوية .. وقد شاهدنا الهِمَّةَ في صورة رجلٍ - كان ينفصل عَنَّا في كُلِّ نَفْسٍ ولحظة - يصعد إلى السماء ، وذلك عند التكوين .

كنتُ صبيًّا وقد بُتُّ في دارٍ ، وحيدًا ، لأحفظ فيها أقمشة ، فما زال يوسوسنى الشيطانُ ، وتحذثنى النفسُ بدخول السارق - وكانت الأبواب مغلقة - حتى هممتُ تكوين السارق بواسطة بطلان الحواس ، من شدة

(١) أى ربط القلب بالمرار .

(٢) هو تصرف الإرادة في عالم المحسوسات .

(٣) يقصد « التكوين » وهو المرتبة التالية للتصرف ، وفيه تكوين للهمة قدرةً على تكوين الصور الحسية ، كما سيوضح الشيخ في الواقعة التى سيذكرها في الفقرة التالية .

(٤) الآية : ﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا ﴾ سورة آل عمران ، آية ١٠٣ .

الخوف ، وظهور حواس الغيب^(١) .. فكنتُ أسمع حسَّ رجلٍ جاء إلى الباب ، ودقَّ الباب فوجده مغلقًا ، فجعل يحرك المغلاق حتى فتح الباب ودخل . فأنحلَّ قيد العقل وزال ، فكنتُ مغشيًا عليَّ حتى نصف النهار ؛ فلما أفقتُ قلتُ : أيش^(٢) أصابني ؟ فتذكرتُ دخول السارق وأخذ القماش ، فكنتُ^(٣) أفتش عن القماش فإذا هو كما كان ، وبدرتُ^(٤) إلى الباب فوجدته مغلقًا ؛ فعرفت في هذا الطريق ، أن همتي فعلت ذلك .. وهذا سرُّ ظهور الأشخاص الهائلة عند شدائد المخاوف .

والهمةُ ثمرةُ الجمعية ، بل هي سرُّ الجمعية ؛ وضدُّها التفرقة^(٥) . ولا نعمة كالجمعية ، ولا عذاب كالتفرقة .. والجمعية لحوق القلب بالعرش ، أو لحوق العرش بالقلب ، أو التقائهما في وسط الطريق . وجمعيةُ الجمعية^(٦) ، فناء القلب والعرش في الحق ، وذلك عند استواء

(١) حواس الغيب هنا ، هي ما يُعرف عند قدماء الفلاسفة من اليونان والمسلمين بالحواس الباطنة ، وهي : الذاكرة والخيالة والحس المشترك . وكلام الشيخ هنا يقصد به الخيالة بالذات .

(٢) ب ، ج : أى شيء .

(٣) ب : فقامت .

(٤) ب : وبادرت .

(٥) الجمعية والتفرقة هنا ، هما ما يُعرف في المصطلح الصوفي بالجمع والفرق . راجع معنى « الجمع » فيما سبق .

(٦) يقصد « جمع الجمع » وهو اصطلاح يشرحه القاشاني بقوله : هو شهود الخلق قائمًا بالحق ، ويسمى الفرق بعد الجمع .

الحقَّ عليها ، واستواء الحق على العرش^(١) ، حسب استوائه في القلوب ؛ إلا أن استواءه على العرش جَلَالِيٌّ ، واستواءه على القلوب جمالي .. وهو معنى « الرحمن الرحيم » فالرحمن هو المستوى على العرش ، والرحيم هو المتجلى في القلب^(٢) ؛ وهو معنى الألف والياء في الرحمن الرحيم . وهذا سرُّ ذوقِي ، فإنك إذا ذكرت « الرحمن » أو سمعته من غيرك ، وجدت وذقت منه^(٣) مجموع صفات الجلال ، من الكبرياء والعظمة والقدرة والعِزَّة والتعالى وشِدَّة البطش والقُوَّة ؛ وإذا ذكرت « الرحيم » أو سمعته من غيرك ، وجدت وذقت منه مجموع صفات الجمال ، من الرحمة والكرم والعطف والسلام والنعمة .

فالألفُ سماويةٌ والياءُ أرضية^(٤) ، وكذلك العرشُ سماويٌّ والقلب أرضي . فلهذا جُعِلت الألف علامة النصب ، والياء علامة الكسر^(٥) ، والواو علامة الرفع - لأن الرفع ما بين النصب والكسر^(٦) - فإن الواو

(١) استواء الله على العرش ، مشكلة أثارت العديد من تأويلات الأئمة والفقهاء ، فلما احتدم الجدل فيها قال بعضهم : الاستواء معلوم والكيف مجهول والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة .

(٢) يقرر عبد الكريم الجيل - استناداً لهذا المعنى - أن القلب هو العرش الحقيقي للألوهية .

(٣) - ب .

(٤) يدخل كلام الشيخ هنا ، تحت ما يُعرف بأسرار الحروف - كما سيصرِّح هو بعد ذلك - وهي واحدة من المعارف الصوفية التي ازدهرت بعد القرن السادس الهجري (انظر ما سيقوله الشيخ نجم الدين في أسرار الحروف) .

(٥) + ب : الجر .

(٦) ب : الجر .

اسم الروح ، والألف اسم الحق ، والياء اسم الخلق ! فلذلك ، جعلت الأرواح منازل الأسرار والتعلقات بين الحق والخلق ، هي الأمر بين المكوّن والمكوّن ؛ وينكشف لك من هذا ، معنى قوله عزّ وجلّ : ﴿ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي ﴾^(١) ، فإنه تفسير للروح ، لا أنه سكوت عن معناه ، ولكنه يشبه السكوت عن الجواب ، لسرّ بين الله ورسوله والمؤمنين . ولهذا اختلف المشايخ في الروح ، وأصح ما قيل فيه ، قول الجنيد قدّس الله روحه : لا نقول هو قديم ولا مخلوق .

فكان نسبة الروح إلى الحق والخلق ، نسبة الواو إلى الألف والياء ، أو نسبة الرفع إلى النصب والخفض .. وهكذا ينحو السيّار إلى أسرار الحروف .

(١) سورة الإسراء ، آية ٨٥ .

مسألة [في أسرار الحروف]

دائرة العين^(١) لا تبدو جملةً واحدةً ، وإنما هي تبدو شيئاً فشيئاً ، وتزداد شيئاً فشيئاً ، حسب بدو الهلال في أول يوم من الشهر ، والثاني ، والثالث والرابع ؛ فيذوق السَّيَّارُ منها مذاق القمر ومنازله في السماء . وقد تنكشف هذه الدائرة - دائرة العين - وقد تفنى في الحاق ، فهذه كلها أنموذج من القمر وفلكه ومنازله وبروجه في السَّيَّار ؛ ويعلم السَّيَّار أن الحروف - التي هي ثمانية وعشرون أو تسعة وعشرون^(٢) - تولدت من السماء الأولى ، التي هي فلك القمر^(٣) . وفي الكلام^(٤) سبعُ سموات^(٥) ، أولها الحروف ، ولهذا حَكَت الحروف ، بصورة^(٦) ومعنى ، وعدد انحراف

(١) الكلام هنا عن دائرة « حرف العين » .

(٢) باعتبار أن « لام ألف » حرفاً أو غير حرف .

(٣) يقصد أيام الشهر العرى ، تلك التي تتقرر بحسب منازل القمر ، فأونة تكون ٣٠ يوماً ، وأونة ٢٩ يوماً .

(٤) الإشارة إلى الكلام الإلهي « القرآن » .

(٥) الآيات :

- ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ ﴾ سورة البقرة ، آية ٢٩ .

- ﴿ تَسْبِيحٌ لَهُ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ ﴾ سورة الإسراء ، آية ٤٤ .

- ﴿ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ ﴾ سورة المؤمنون ، آية ٨٦ .

- ﴿ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا ﴾ سورة الملك ، آية ٣ .

- ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ ﴾ سورة الطلاق ، آية ١٢ .

- ﴿ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا ﴾ سورة نوح ، آية ١٥ .

(٦) أ : صورة .

القمر في منازلها^(١) ؛ وثلاثون سينا في الفم - الذى هو مدار الحروف - إشارة إلى هذا . وحدّ لوح الحروف على العرش ، من الشفة إلى القلب ، ومن الباء إلى الهاء .

وهذه الحروف تثبت في هذا اللوح بواسطة الاختيار الإنسانى ، ثم إذا استهلكت ، تثبت بلا واسطة اختيارية ، بل تثبت بحسب ما يجب أن يُثبت بقلم^(٢) الحق وراءها .. وإرادة الحق وقدرته وراء القلم ، فحينئذ يفنى الكاتب المُحدّث ، ويكتب الكاتب القديم بما شاء ، وكيف شاء ، وأنى شاء^(٣) .

(١) الإشارة إلى المطابقة بين عدد الحروف وعدد أيام الشهر العرى .

(٢) أ : لقلم .

(٣) كان ابن عربى كثير التنبيه على هذا المعنى ، فهو لا يفتأ يذكرنا في غير موضع من كتابه الكبير « الفتوحات المكية » بأنه كان مجرد أداة لظهور الكتاب ، ففي المقدمة يقول عن سبب تأليفه للفتوحات : أقام الله في خاطرى أن أعرف الولي بفنون من المعارف عند تطوافي في بيته المكرّم .. وفي الباب ٤٨ يقول : اعلم أن ترتيب أبواب الفتوحات لم يكن عن اختيار ولا عن نظر فكرى ، وإنما الحق تعالى يُملئ لنا على لسان ملك الإلهام جميع ما نسطره .. وفي الباب ٣٧٣ يقول : واعلم أن جميع ما أتكلّم به في مجالسى وتصانيفي إنما هو من حضرة القرآن وخزائنه ، فإننى أعطيت مفاتيح الفهم والإمداد منه ... إلخ .

وقول الشيخ نجم الدين إن الكاتب القديم يكتب « أنى شاء » يذكرنا بأحوال الشاعر الصوفى عبد الهادى السورى اليمنى ، الذى كان يكتب أشعاره على الجدران بالفحم ، وقما تملكه الواردات الإلهية ، وربما كان يحو ما كتبه عند عودته إلى الصحو والحضور .. انظر كتابنا : شعراء الصوفية المجهولون (أخبار اليوم) ص ١١٣ وما بعدها .

[مُعَايِنَات]

وصلت إلى هذا المقام ، فأول ما كُتِبَ في لوحى : « بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ » فالله معناه الرحمن الرحيم ، أى المعروف الموصوف بالصفات الجلالية والجمالية . ولهذا ، جميع حروفه حروف المعرفة ؛ وكأنه يقول : باسم المعروف فى السماء ، والمعروف فى الأرض ، والمعروف فى العرش ، والمعروف فى القلوب .

غبتُ ، فكأنى برسول الله - ﷺ - وأصحابه ، فقلتُ يا رسول الله ، ما معنى الرحمن ؟ فقال : الَّذِى عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ^(١) .. فقلتُ : ما معنى الرحيم ؟ فقال : ﴿ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴾ ^(٢) .

[إِشَارَةٌ]

إذا ثبتت هذه الحروف كذلك ، فينكشف حينئذٍ قوله - عليه السلام - حكايةً عن رَبِّهِ : فبى ينطق ^(٣) .

[عَوْدٌ لِلْعَيْنِ]

وهذه الدائرة - دائرة العين - لا تبقى على حالةٍ واحدةٍ لوئًا وقدرًا ، بل تزداد وتنمو بقدر السير ؛ إشارةً إلى سبع طباقها ، وإلى سبع طباق السماوات .. كُلُّ طبقةٍ منها ، حروفُ كُلِّ سماء .

(١) قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ﴾ الأعراف / ٥٤ - يونس / ٣ - الرعد / ٢ - الفرقان / ٥٩ - السجدة / ٤ - الحديد / ٤ .

(٢) سورة الأحزاب ، آية ٤٣ .

(٣) الحديث القدسى : ما يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه .. فبى ينطق وبى يمضى وبى يبطش ... إلخ .

فإذا صفا الجزء السماوى بالتدرّيج ، ظهر لون تلك السماء وقدرها بالنسبة إلى الأولى ؛ إلى أن تستغرق الدائرة الوجه . وقد تبدو^(١) - في حال الفرج بعد الشدّة ، والأنس بعد الهيبة ، والبسط بعد القبض ، والرغبة بعد الفترة عند الملتفت^(٢) - جميع دوائر الوجه ، كأنها تسيح ! وتُسبح ، فتتجلّى حينئذٍ سبحات وجهه الكريم ، ويجرى على لسان السيّار - بحكم الاضطرار : « سبحانى سبحانى ، ما أعظم شأنى^(٣) » هذا إذا كان السيّار مستغرقاً كل الاستغراق ؛ أما إذا كان محفوظاً ، فيقول حينئذٍ سبحانه سبحانه ، ما أعظم شأنه !

(١) . يبدو .

(٢) يقصد : الفتور الناشئ من الالتفات إلى غير الله .

(٣) هى واحدة من شطحات البسطامى الشهيرة .. راجع تحليل د. عبد الرحمن بدوى لهذه العبارة وأمثالها فى كتابه (شطحات الصوفية - بيروت) .

مسألة : [فى مراقى الذِّكر]

إذا أخذ الذاكر فى الذِّكر ، ووقع الذِّكر إلى القلب ، وانفتحت بصيرته ، وأنس إلى الخلوة - وما يخرج منها إلا بحاجة ثم يدخلها ويشعر فى الذِّكر - هجمت عليه جنود الذِّكر كأنها رجل^(١) من جراد لها رئة كرتة ، تهجم عليه من ورائه ، حتى تحوم حوالبه مثل النار على الحطب ؛ وربما يخرج من الخلوة بالليل ويمشى فى صحراء^(٢) ، فىرى مدَّ البصر ميمنةً وميسرةً عنه ، وهو فى القلب مثل السلطان . وربما تهجم عليه الواردات بالليل ، خارج الخلوة ، حتى تغيب عنه الجمادات ، فلا يشاهد إلا زجاجاً فى زجاج ؛ وذلك نهاية صفاء الوجود - أن يكون فى لون الزجاج - وحينئذ : يرى شمس الروح من ورائه .

إن فى جوف الأرض ناراً ، وفى أوج السماء ناراً ؛ فإذا صار القلب مكمن نيران الذكر والشوق والعشق ، نزلت إليه نيران ، ونبعت من الأرض نيران كالشرر من الكورة^(٣) !

(١) الرُّجُل : الطائفة من الشئ ، وخصَّ بعض أهل اللغة به « القطعة العظيمة من الجراد » والجمع « أرجال » وفى الحديث الشريف : كأن نبلهم رجل جراد (لسان العرب ١١٣٤/١) .

(٢) ب : الصحراء .

(٣) يقصد « كور الحداد » وهو الذى فيه الجمر ، وتوقد فيه النار .. وللکلمة معان أخرى عديدة . انظر : لسان العرب ٣١٢/٣ .

[معاينة]

ودار الإخلاص - وهى دارُ مَنْ ذهب^(١) - لا يعبر إليها السيَّار
إِلَّا بعد خرق أنواع الوجود ، والوجود يأتى شِبْه الترس المدوَّر بين يدي
السيَّار ، فلا يعبره حتى يذوق الموت ، وذلك مذاق الهيبة .. وقد عبرت
إليها - لا باختيار منى ، بل عُبرت إليها - فذقتُ مذاق الموت ، ثم بلغتنى
الراحة لما وقع بصرى على تلك الحَضْرَة . وقد أُلْهِمْتُ أنها حَضْرَة
الرحمة ، وفيها شيخُ أُلْهِمْتُ أنه الرضوان ، وفيها جماعةٌ من الأَبْكَار أُلْهِمْتُ
أنهنَّ الحور العين - لما أبصرننى بادرنَّ بالحجاب^(٢) ، إلا واحدةً منهنَّ -
وكأئنّى ملفوفٌ فى كفى ، أطيّر بين السماء والأرض مستخلصاً من أثقال
التراب .

فلما دنوتُ من الأرض ، بلغتنى تلك العيناء^(٣) ، فأجلستنى على
كرسى ، ثم قام الشيخُ إلَى ، فجلس وراء ظهري ، فغمزنى^(٤) وهمس فى
قلبى : تألّه إلى ربِّك ! ففهمتُ أنه أرسلنى إلى حَضْرَة الربوبية والألوهية .
ثم رجعتُ إلى الوجود وأنا ملآنٌ من الإله^(٥) والشوق واليقين ، مستريحٌ من
كل تعب .

(١) يقصد ؛ مَنْ مات .

(٢) أ : الحجاب .

(٣) أى تلك التى لم تبادر إلى الحجاب من الحور العين .

(٤) ب : فغمزنى ، + ب : فحفزنى .

(٥) يقصد ؛ التألّه .

[عودة إلى مراقى الذكر] :

إذا استخلص القلب والروح من الأجزاء الترايبية ، وقويا^(١) بالروحانية ، وداوم السَّيَّارُ على الجلوس والسهر والذكر ؛ فإذا وضع جَنْبُهُ على الأرض لينام ، أحسَّ - قطعاً - أنه قاعدٌ بذكر الله عزَّ وجلَّ ، مع أنه مضطجعٌ على الأرض ! فيتعجب من ذلك كل العجب ، ثُمَّ يلتبس كيف يتصوَّر ذلك ، فيعود القاعد إلى المضطجع فيجتمعان . وهكذا من تعود القيام ، ثُمَّ قعد ، أحسَّ أنه قائمٌ ؛ وحينئذٍ يتجلَّى له « الْحَيُّ الْقَيُّومُ الَّذِي لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ »^(٢) . وكذلك الدائم القائم ، القائم الدائم .

أما في أوائل السير ، فإنَّه يترك الاختيار في النوم ، فلا ينام باختياره حتى يضجعه رقباء الرحمة ؛ فيستيقظ وهو مضطجع ، أو يستيقظ وهو في السجود . فإن انتبه وهو مضطجعٌ على اليسار ، فهو أحسن حالاً ممن ينام بالاختيار ؛ واليمين أحسن من اليسار ، والسجود أحسن من الكل .. هذا ، لأجل أن النفس مُدَسَّسَةٌ بالتراب ، والترابُ يطلب الترابَ ؛ فإذا استخلصت^(٣) من التراب ، كان حالها ما ذكرنا .

وأما حالة السَّيَّار بين المرتبتين - بين أول السيز ونهايته - فهي^(٤) أنه لا يُنَوِّم ، ولا يُضجع . فإذا اضطجع باختياره ، شاهد جنود الذكر حاموا حواليه ومن فوقه ، ويسمع منهم رَنَّةً كَرَنَّةً النحل أو دوىَّ الريح ،

(١) . قويت .

(٢) الإشارة إلى سورة البقرة ، آية ٢٥٥ (آية الكرسي) .

(٣) أ ، ج : استخلص - ب : تخلص .. والكلام هنا عن النفس .

(٤) . فهو .

فلا يقدر أن ينام ، لفرار النوم من الأصوات .. وذلك حين ضعف الحواس الظاهرة ، وقوة الحواس الباطنة : حواس القلب .

[أسرار الخلوة]

لا بد أن يرى صاحب الخلوة والانقطاع إلى الله ، كُلُّ مَنْ عاشره خارج الخلوة ، بالوهم والمشاهدة ، في الحضور والغيبة ، يدعونه إلى ما كان عليه فيما سلف . فإن كان ضعيفا جذبه وأخرجوه إلى اللهو واللعب ، فلعبوا به كما كانوا يلعبون به ، وأهلكوه كما أهلكوا أنفسهم .. وإن كان قويا ، انقطع عنهم بقدر قوته .

فإن تَمَّتْ له الخلوة ، علم أنه أقوى من الكل ؛ وإن لم تتم له الخلوة ، علم أنهم أقوى منه . وفي الأول تكون قوته بالشيخ ، فإنه صبي بعد ؛ فإن حن إليهم وخرج عن الخلوة ، كان ذلك من ضعف الشيخ وتقصيره ، حيث أدخله الخلوة وما قطع عنه الجاذب الذي يستجذبه .. إلا أن الشيخ قد يدخله الخلوة لأجل إتمام الأمر عليه ، وقد يدخله لأجل فائدة ما ؛ وذلك أن المريد لا يخلو من دفين مذموم في باطنه ، والشيخ لا يقدر على قطع ذلك إلا بواسطة صفح الخلوة !

أول ما دخلت الخلوة ، كان في قلبي نوع من رياء وسمعة وطلب لكلام هذا الطريق - حتى أعظ الناس في رعوس المنابر ، وأعد من جملتهم مع أني لست منهم - فأعطي شئنا من الكشف بقدر ما علمت أن هذا الطريق صحيح ، ولكن كان بناء الخلوة فاسدا ؛ لأجل أنه ما كان غرضي صحيحا ونيتي صادقة . وكانت لي أشياء من الكتب خارج الخلوة ألفت

إليها ، فأخرجوني من الخلوة في الحادى عشر ، ثُمَّ بقيتُ خارج الخلوة بقدر مازال عَنِّي وجعُ ضرب الخلوة ؛ وأردتُ الخلوة ، فقلتُ في نفسى : « إن دخلتُ الخلوة كما دخلت ، أُخرجتُ منها كما أُخرجت ؛ ولكن أدخلُ مُدخل صديق ، حتى أخرج مخرج صدق » .

فصفيتُ النِّيةَ لأجله^(١) ، ووضعتُ الروح بالكفِّ ، وقلتُ : « ها هى^(٢) ذا ، خذها » ووقفتُ الكتب ، ووهبتُ الثياب ، وتصدّقتُ بالدرهم ، ونبذتُ الدُّنيا وراء ظهرى ، وجعلتُ القيامة بين يدى ، وخلعتُ عذار^(٣) العار والشُّنار^(٤) أن يقول الناسُ فى : « ذلَّ واستكان ، أو جُنَّ وكان من أمره ما كان » وجعلتُ النفس بين يدى الشيخ ، مثل الميت على اللوح بين يدى الغاسل^(٥) . وقلتُ : « الساعة أدخلُ القبر ، فلا أنشرُ منه إلى يوم القيامة » .. حتى قلتُ : « هذه البقية من الثياب ، كَفَنى ؛ فإن قويتُ الخواطرُ بالخروج من الخلوة ، مَزَقْتُ ثيابى على البدن خرقاً خرقاً ، حتى أستحى من الناس فلا أخرج ، فيكون لباسى جدران الخلوة » . وذلك كله من شدة شوقى إلى طلب النجاة .. فلما دخلتُ هكذا ، ما خرجتُ عنها إلا بإذن الشيخ .

(١) أى لأجل الله تعالى .

(٢) . هو .

(٣) خلعتُ العذار ؛ إشارة إلى التجرد عن أسباب الدنيا .. ويتكرر هذا التعبير كثيراً عند الصوفية ، خاصة في شعر ابن الفارض .

(٤) الشنار : الخنزى والعار .

(٥) المريد بين يدى شيخه (ربه) كالمت بين يدى الغاسل ، عبارة صوفية شهيرة تتردد في متون كتب التصوف منذ وقت مبكر ، وتنسب لغير واحد من أهل الطريق .

قال شيخى عَمَّار : إذا دخلت الخَلوة ، فلا تحدّث نفسك بأنك تخرج منها بعد الأربعين^(١) ؛ فإن حدّث نفسه بذلك ، أُخرج في اليوم الأول .. ولكن حدّثها بأن هذا قبرك إلى يوم القيامة ! قال : وهذا دقيق ، لا ينتبه إليه إلا البالغون .

ولا يأنس السّيَّار إلى الخَلوة ، حتى يحاربه كُلُّ مَنْ عاشره وصاحبه ورآه ومَلَكه ؛ وإنما يحاربه لأنه كان إلهه قبل الخَلوة ، فلما أن خلا بالله وأعرض عن كُلِّ شَيْءٍ ، جاءه كُلُّ شَيْءٍ يدعوه أن يعبد من دون الله ، فإذا جاهد في الله ، ونصره الله عليهم ، صَحَّتْ خَلوته وُحُلُوهُ عنهم ، فيأنس إذن إلى الخَلوة ، ثُمَّ إذا أنس إلى الخَلوة استوحش عن ضيِّدها ، وحينئذ يأنس إلى ذكر مَنْ الخَلوة لأجله ؛ وهو ذكر الحقِّ سبحانه وتعالى .

قد يسبق الأنسُ بالذكر ، ولكنهما في الجملة يتسابقان ، يتعاقبان ؛ وسِرُّ المسابقة أنه قد يكون في أول طريق السّيَّار : الوحشة عن الأضداد ، فيأنس إلى الخَلوة ثم يقوم في طلب الأنس . وقد يكون في أول طريقه :

(١) الأربعين هنا إشارة إلى ما يعرف عند الصوفية بالأربعينية ، وهى قضاء أربعين يوماً متوالياً في الخلوة . وقد عقد السهروردى ثلاثة أبواب حول هذا الموضوع ، بدأها بالبَاب السادس والعشرين من « عوارف المعارف » بعنوان (في خاصية الأربعينية التى يتعاهدها الصوفية) وفيه يقول : ليس مطلوب القوم من الأربعين شيئاً مخصوصاً لا يطلبونه فى غيرهما ، ولكن لما طرقهم مخالفات حكم الأوقات أحبوا تقييد الوقت بأربعين رجاء أن ينسحب حكم الأربعين على جميع زمانهم ، فيكونوا فى جميع أوقاتهم كهيئتهم فى الأربعين ؛ على أن الأربعين تُخصت بالذكر فى قول رسول الله ﷺ « من أخلص الله أربعين صباحاً ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه » وقد خص الله تعالى الأربعين بالذكر فى قصة موسى عليه السلام .. (عوارف المعارف ص ١٢١) .

كَشَفُ الْحَقِّ ، فَيَأْنَسُ إِلَى ذِكْرِ الْجَلِيسِ ، ثُمَّ الْأَضْدَادُ يَشَوُّشُونَ عَلَيْهِ
مَنَادِمَةَ الْجَلِيسِ^(١) ، فَيَأْنَسُ إِلَى الْخُلُوةِ ، ثُمَّ لَا يَزَالُ يَكُونُ مُسْتَأْنَسًا بِالذِّكْرِ
وَالْخُلُوةِ حَتَّى تَنْقَطِعَ عَنْهُ الْأَضْدَادُ وَالْآلَهُ بِالْكَلِيَّةِ ، وَذَكَرُهَا الْبَتَّةَ ، فَيَكُونُ
أُنْسُهُ حِينَئِذٍ بِالْحَقِّ .. وَذَلِكَ نِهَايَةُ مِيدَانِ الْخُلُوةِ ، وَمِنْ ثَمَّةَ : بَدَايَةُ خُلُوةِ
الْمَعْنَى ، فَيَكُونُ بِصُورَتِهِ مَعَ الْأَغْيَارِ ، وَبِمَعْنَاهُ مَعَ الْعَارِفِ .

قَالَ الْجَنِيدُ - قَدَّسَ اللَّهُ رُوحَهُ - لِمُرِيدِيهِ أَصْحَابِ الْخُلُوتِ : إِنْ كَانَ
أُنْسُكُمْ فِي الْخُلُوةِ بِالْخُلُوةِ ، ذَهَبَ أُنْسُكُمْ إِذَا خَرَجْتُمْ مِنْهَا ؛ وَإِنْ كَانَ
أُنْسُكُمْ فِي الْخُلُوةِ بِهِ^(٢) ، اسْتَوَتْ عِنْدَكُمْ الصَّحَارَى وَالْخُلُوتِ .

كَانَ صَاحِبُ خُلُوةٍ قَدْ ذَكَرَ عِنْدَ الشَّيْخِ أُمَى النَّجِيبِ^(٣) ، أَنَّهُ انْتَهَى

(١) أَى اللَّهِ تَعَالَى .

(٢) أَى بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ .

(٣) هُوَ الشَّيْخُ نَجِيبُ الدِّينِ السَّهْرُورْدِي ، عَمَّ شَهَابُ الدِّينِ السَّهْرُورْدِي صَاحِبُ
« الْعَوَارِفِ » ؛ يَصِفُهُ الذَّهَبِيُّ فَيَقُولُ : الشَّيْخُ الْإِمَامُ الْعَالِمُ الْمُفْتَى الْمُتَفَنُّ الزَّاهِدُ الْعَابِدُ
الْقُدْوَةُ شَيْخُ الْمَشَائِخِ ، أَبُو النَّجِيبِ عَبْدِ الْقَاهِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ .. الْبَكْرِيُّ السَّهْرُورْدِي
الشَّافِعِيُّ الصَّوْفِيُّ الْوَاعِظُ ، شَيْخُ بَغْدَادَ (سِرُّ أَعْلَامِ النَّبَلَاءِ ٤٧٥/٢٠) وَلَدَ أَبُو النَّجِيبِ
سَنَةَ ٤٩٠ بِسَهْرُورْدَ ، وَتَوَفَّى سَنَةَ ٥٦٣ بِبَغْدَادَ .. وَاشْتَهَرَ أَمْرُهُ فِي زَمَانِهِ ، وَانْتَفَعَ بِهِ
النَّاسُ ، وَكَانَ الْخَلِيفَةُ يَزُورُهُ فِي رِبَاطِهِ . وَهُوَ مِنْ أَصْحَابِ الْإِمَامِ عَبْدِ الْقَادِرِ الْجِيلَانِيِّ ، لَهُ
مِنْ الْمَوْلاَفَاتِ : آدَابُ الْمُرِيدِينَ .

رَاجِعِ الْمَزِيدَ مِنْ تَرْجُمَتِهِ فِي :

الْأَنْسَابُ ١٩٧/٧ - الْمُنْتَظَمُ ٢٢٥/١٠ - مَعْجَمُ الْبُلْدَانِ ٢٨٩/٣ - الْكَامِلُ فِي
التَّارِيخِ ٣٣٣/١١ - اللَّبَابُ ١٥٧/٢ - وَفَيَاتُ الْأَعْيَانِ ٢٠٤/٣ - الْعَبَرُ ١٨١/٤ =

استغراقه في الذكر إلى حَدِّ يُسمع الذكر من صدره ، ولكنه إذا سمع صوتاً أو رأى شيئاً من عالم الشهادة ، تشوّش عليه الذكر ، وخرج صدره ، وغضب وأنكر . فكان الشيخ يوصي مريديه فيقول : لا تكونوا مثله ! معناه : صَحِّحُوا الأنس به حتى لا يشوّشكم شيء ، فإن الذاكر قد جعل الذكر الصافي ، وشواهده ، وطيراته ، معبوداً له من دون الله ، فكان - لا جرم - يتشوّش عليه بخاطرٍ يخطر على قلبه ، وصوتٍ يُسمع ، وشيءٍ يراه .

[أسرار الذكر]

يصل السَّيَّار الذاكر إلى مقام يقال له : لا تذكر ، لترى الذكر كيف يذكر ، وإنه مذكورٌ وليس بذاكر ! والإنسان - أبداً - مذكورُ الحق ، إلا أنه من كثرة الظلمات وكثافة الحُجُب ، لا يسمع ولا يجد ذلك . فإذا استغرق في الذكر ، أمره الشيخ بترك الذكر ، حتى لا يقف موقف المنقطعين ؛ فإنه وقوفٌ في الصفات وانقطاع عن الذات .

وقد ينتهي السَّيَّار بعد مُدَّةٍ مديدةٍ من الذكر باللسان ، إلى حَدِّ يسأم القلبُ عن ذكر اللسان ، ويكون ذكر اللسان تشويشاً له ، فيمنع اللسان عن الذكر ، ويدوم حضوره بالقلب ، فلا يجري الذكر على لسانه سنين

= - مرآة الجنان ٣/٣٧٢ - طبقات الشافعية للسبكي ١٧٣/٧ - طبقات الإسوي ٦٤/٢ - البداية والنهاية ١٢/٢٥٤ - النجوم الزاهرة ٥/٣٨٠ - طبقات الشعراني ١٤٠/١ - شذرات الذهب ٤/٢٠٨ - هدية العارفين ١/٦٠٦ .

- وهو مؤمنٌ موقنٌ متقنٌ - إلا في الصلوات المفروضة ، عملاً بتقوى القلب .. فإن القلب لا يُفتى بترك المفروضات قَطُّ ، ولا يُفتى بما فيه شكٍّ قَطُّ^(١) .

(١) في كلام الشيخ هنا ، ردُّ على قاصري الأفهام الذين ذهبوا إلى القول بأن الصوفية يسقطون التكاليف الشرعية وفروض العبادة ، حين يصلوا إلى مرتبة معينة .. والحقيقة ، فإن قواعد الشرع ، هي مقياسٌ لصحة أحوال الصوفى ، مهما بلغت به المراتب الروحية ، بل إن تلك المراتب لا تجوز أصلاً لمن يترك ظاهر العبادات .

فصل : الجمود والخمود في طريق القوم^(١)

أما الجمود ، فيكون بعد انطفاء النيران المذمومة ، من نار الشهوة وجوع الكلب^(٢) والعطش ، ونار الشيطنة ، ونار النفس وما يشتمل عليها من الخصال المذمومة . فإذا كان كذلك ، برد الداخل والباطن من برد يصعد وآخر ينزل من السماء ، فيصير السَّيَّار كالْجَمَد^(٣) في البرودة ؛ وهو بَرْد العفو . ويجمد جمودًا محمودًا غير مذموم ، في راحةٍ وخَفَّةٍ وطربٍ ونشاط ، لا تنفعه الثياب الكثيرة ولا البيت الدفئ من ذلك البرد ، ولو دخل النار .. ويظهر حينئذٍ معنى قوله عليه السلام : اللَّهُمَّ اغسِلْنِي بماء الثلج والبرَد^(٤) .

(١) يعدُّ الشيخ هو أول مَنْ أشار إلى هذين المصطلحين - فيما نعلم - ولعل أقرب المصطلحات الصوفية إليهما هو مصطلح « الخمول » الذي استخدمه ابن عطاء الله السكندري في حكمته الموجهة للمريد المبتدئ : ادفنْ وجودك في أرض الخمول ، فما تَبَّتْ مما لم يصلح دفنه ، لا يتم نتاجه (راجع : الحكم العطائية بشرح الشيخ زروق ص ٣٦) وسوف نرى أن الشيخ نجم الدين يقصد بهذين المصطلحين دلالة خاصة .

(٢) الجوع الكلبي : مصطلح استخدمه الأطباء العرب للإشارة إلى الجوع المرضى الذي لا يعرف صاحبه الشبع .

(٣) الجمد : الثلج . قال الأطباء العرب : والفرق بين الثلج والصقيع والبرد والجمد ، مع اشتراكها في الجمود ، أن ذلك الجمود إما أن يكون بعد صيرورة ما يجمد أو لا ، والأول إما أن يكون من السحاب فيسمى بردًا أو لا يكون كذلك ويخص باسم الجمد ، والثاني هو الثلج إن كان كثيرًا محسوسًا ، وإلا فهو الصقيع . وجميع مياه هذه تكون غليظة (رسالة فيما ورد في الثلج والجمد والبرد ، للعبلى - بغداد ص ٨٦) .

(٤) الحديث بألفاظ قريبة ، أخرجه : البخارى في الآذان ٨٩ والدعوات ٣٩ ، ٤٤ ، ٤٦ =

والخمود ، خمود النيران التى وصفناها .

والخمود والجمود حالان يتعاقبان معًا ، وكلما خمدت النيران جمدت أماكنها ، فالموضع لا يخلو عن الشيء وضيدته^(١) . وهما حالتان تصطحبانها إلى حالة لا يؤذيه حرٌّ ولا يبرد إلى أبد الآباد .. لا حرٌّ ، ولا يبرد ؛ فإنه من الجمود والخمود ، يترقى إلى حالة « لا جمود ولا خمود » إذا استخلص من الأركان^(٢) إلى محض الصفاء .

وهذه النيران أجزاء من كليات لا تعدم بالكلية ، بل تلتحق بكلياتها . وتلك الكليات ، هى النيران التى يعذب بها المجرمون الذين أجرموا ، وكَبَرُوا جِرْمَ النيران. ويظهر من هذا سيرُّ « الكبيرة والصغيرة »^(٣) فإن نار الكبيرة ليست كنار الصغيرة ؛ فلذلك جُعِلَتْ قُرَّةُ الصلاة^(٤) مبردةً لتلك النيران بعضها ، ولا تكفى البعض ؛ فَيُحْتَاجُ إلى بَرْدِ الْقَصَاصِ وَالْحَدِّ وَالْكَفَّارَةِ وَالتَّوْبَةِ فِي كُلِّ ذَلِكَ ، وهو الندم ؛ فهو الضابط ، فإنه متى

= ومسلم فى المساجد ١٤٧ والذكر ٤٨ والترمذى فى الدعوات ٧٦ والنسائى فى الطهارة ٤٧ ، ٤٨ والمياه ٥ والافتتاح ١٥ والاستعاذة ١٧ ، ٢٦ وابن ماجه فى الإقامة ١ والدعاء ٣ وابن حنبل فى المسند ٥٧/٦ ، ٢٠٧ .

(١) يخالف الشيخ هنا ، القانون الأول من قوانين الفكر الأساسية فى المنطق ، وهو القانون القائل « النقيضان لا يجتمعان معًا ولا يفترقان معًا » ليؤكد بذلك أن حياة الروح منطقًا خاصًا ، لا تنطبق عليه قوانين المنطق الصورى أو الرياضى .

(٢) المراد بالأركان ، مبادئ الوجود الأربعة المشهورة : الهواء والماء والتراب والنار . وهى هنا تشير - مجتمعة - إلى تعلقات الحياة الأرضية .

(٣) يقصد كبائر الذنوب وصغائرها .

(٤) الحديث : حُبِّبَ إِلَيَّ مِنْ دُنْيَاكُمْ الطَّيِّبُ وَالنِّسَاءُ ، وجعلت قُرَّةَ عَيْنِي فى الصلاة .. حديث مشهور ، والقر : البرد .

توقدت النيران بوقودِ النَّاسِ وَحِجَارَةٍ^(١) القلوب^(٢) ، نسي صاحبها الرَّبَّ ، حتى تجد النارُ طعمها ، فإذا شبع ، سكنت عن الهياج ؛ فحينئذ يتذكر المجرم ، فيعزم على الإقبال بالحق ، والرجوع عن الباطل - وهو الندم - فينادم رَبَّهُ ويقول : بِئْسَ مَا فعلْتُ ، وقد عهدتُ منك الجميل قديماً وحديثاً ، فاعف عني وكن رءوفاً رحيماً ، هذا رجائي وظنّي .

وهذه البرودة أيضاً جزءٌ لها كُلٌّ لا يعدم ، إلا أنه يلتحق بالكُلِّ ؛ وهو الزمهير الذى يكون فى جهنم !

وإذا استخلص السَّيَّارُ عن وبال الأركان ، عرَّجته أربعة من الملائكة إلى حضرة القدرة والربوبية التى منها تربية الأركان ؛ والطريق فى هذا التعرّيج^(٣) ، فى أَرْقَةٍ على شكل التدوير ، وهى بروج الوجود أو آبار الطبيعة ، كيفما شئت قلت^(٤) . وبعد هذا يكون السَّيَّارُ - فى الغيبة

(١) الآيات :

- ﴿ فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة ﴾ سورة البقرة ، آية ٢٤ .
- ﴿ قوا أنفسكم وأهليكم نارا وقودها الناس والحجارة ﴾ سورة التحريم ، آية ٦ .
- (٢) الآية : ﴿ ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهى كالحجارة أو أشد قسوة ﴾ سورة البقرة ، آية ٢٤ .

(٣) يقصد ؛ عروج الملائكة الأربعة بالسيار .

(٤) المراد هنا : أن هذه الأزقة الدائرية إذا نظرت إليها من غلٍّ ، رأيتها كأنها آبار الطبيعة الجسمانية التى ارتقيت عنها . وإذا نظرت إليها من واقع سجنك فى قيد الطبيعة الجسمانية ، وقد تشوفت للارتقاء ، رأيتها كأنها بروج الوجود العلوى .. فالأمر واحد ، لكن المنظور مختلف .

والحضور - أبداً مشاهداً لصفاء القلب ، أو صفاء العرش ، حتى إنه إلى أى شئ^(١) ما نظر من الأشكال في عالم الشهادة ، تنقش في ميدان قلبه ، فيشاهد ذلك الشكل - سواء أطبق جفنيه أو فتحهما - بين يديه ساعة ، ثمَّ ينمحي .

ومن هذا تنجلى فائدة الخلوة ، فإن الخلوة تجلو مرآة القلب عن أشكال تنقشت فيها منذ عقل وعاشر الدنيا وما فيها . وهذه الأشكال ظلمات تنطبق - بعضها على بعض - وتركب ، فيحصل منها صدأ القلب ، وهو الغفلة .. فبواسطة الخلوة ، والذكر ، والصوم ، والطهارة ، والسكوت^(٢) ، ونفى الخواطر ، والربط ، وتوحيد المطلب ، تنجلى « مرآة القلب » عن الصدا ؛ فالذكر نارٌ ومبردٌ ومطرقة ، والخلوة كورة ، والصوم والطهارة آلة التصقيل ، والسكوت ونفى الخواطر نفى الوارد من الظلمات عليها ، والربط تلميذٌ ، وتوحيد المطلب أستاذ .

[حكاية غريبة]

عشقتُ واحداً من بلاد المغرب ، فسَلَطت عليه الهمة فأخذته ، وربطته ، ومنعته عن سوى . إلا أنه كان عليه رُقباء ، فسكت عن صريح

(١) أ : أيش .

(٢) يقصد « الصمت » الذى هو أحد لوازم الطريق الصوفى ، كما هو واردٌ في العبارة الصوفية الشهيرة : ما صار الأبدال أبداً إلا بأربعة خصال ؛ الجوع والصمت والسهر . والخلوة .

المقال ، وجعل يكلمنى بلسان الحال ، فأفهمه ؛ وأكلّمه كذلك ،
 فيفهمه . وانتهى الأمر إلى أن صرت أنا هو ، وهو أنا ، وقع العشق إلى
 محض صفاء الروح ؛ فجاءتنى روحه سَحَرًا ، وتمرّغ وجهها فى التراب ،
 وتقول : أيها الشيخ ، الأمان الأمان ، قتلتنى ، أدركنى ! فقلتُ : ماذا
 تريد^(١) ؟ قالت : أريد أن تدعنى حتى أقبل قدمك ! فأذنتُ لها ،
 ففعلت ، ورفعت وجهها ، فقَبَّلَتها حتى استراحت واطمأنت إلى
 صدرى .

(١) . تريد .

فصل [في اسم الله]

الذكر الجارى على نفوس جميع الحيوانات - شاءوا أم أبوا - أنفاسهم الصاعدة والنازلة ، وفي كُلِّ نَفْسٍ يصعد وينزل ، اسم الله عَزَّ وَجَلَّ ؛ وهو الهاء . فالهاء الصاعدة ، معدنها القلب ؛ والهاء النازلة معدنها العرش . والواو في « هو » اسم الروح ؛ لأنها من خُدام حضرة الهُوِيَّة ، فأكسبت هذا الوصال .

قال شيخ من المشايخ - وأظنُّه سهل بن عبد الله التُّستري^(١) - لمريديه : إذا أصابهم مصيبة فلا تقولوا « آخ » فإنه اسم الشيطان ، وقولوا « آه » فإنه اسم الله .. وكذلك « وَه » و « وَه »^(٢) فإنه مقلوب « هو » فإن اللسان لا يفى بذكر حرف واحد - فإن اللسان من الأزواج - أما القلب فقد وَفَى ، لأنه واحد ، في جوف كُلِّ أحد . والهاء في « الله » هي^(٣) هذه الهاء ، والألف واللام المشددة

(١) هو الشيخ سهل بن عبد الله بن يونس ، الشهير بالتستري نسبة إلى بلدة « تُستَر » توفي سنة ٢٨٣ هجرية . راجع ترجماته في : حلة الأولياء ١٨٩/١٠ - صفة الصفوة ٤٦/٤ - الرسالة القشيرية ص ١٨ - طبقات الشعرا ٩٠/١ - طبقات السلمي ص ٢٠٦ - وفيات الأعيان ٢٧٣/١ - تاريخ الإسلام ٦٢/١٦ - سير أعلام النبلاء ٧٦/٩ - المنتظم ١٦٢/٥ - مرآة الجنان ١٤٨/٢ - شذرات الذهب ١٨٢/٢ - نتائج الأفكار القدسية ١٠٩/١ .

(٢) أ : وَه .

(٣) . : هو .

للتعريف ، والتشديدُ لتمكين التعريف .. وذلك لأن الهاء ساكنٌ ، ولام التعريف ساكنٌ ، والساكنان إذا اجتمعا ، يحرِّك الأول بالكسر ، فيكون « أَلِهَ » فيشابه الفعل ويخرج من قلب الاسم ، فريدت فيه اللام ، وضُمَّتْ إلى أختها ، وبقيت الأولى مجزومة على أصلها ، وحُرِّكت الثانية كلها ، تبيينًا لاسمه الأعظم الذى هو الهاء .

وإنما قلنا : « هو ساكنٌ » لأن أصله من القلب ، والقلب دائرة ، وتدويرها فى الكتابة إشارة إلى هذا المعنى . والدائرة لا حركة لها من أصلها - الذى هو النقطة - ونقطة دائرة القلب : الحَقُّ .

ويمكن أن يُقال : « ساكنٌ ومتحرِّكٌ » . كالدائرة الدائرة حول النقطة ، أو الرحا^(١) حول القطب ، أو القطبين الدائرين - الجنوى والشمالى - فى أماكنهما .

ولا نعى بها^(٢) ، الهاء التى يُتفَوَّه بها فى الأفواه ، فإنها هاءٌ وألفٌ ؛ وهما حرفان . وإنما نعى بها الحرف الواحد الأصلى من القلب ، الذى لم يصعد بعد إلى عالم الأزواج ؛ فالقلب واسطة بين الأزواج والآحاد ، ويظهر من هذا سيرٌ عظيم فى قوله عزَّ اسمه : ﴿ وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ ﴿^(٣).. يعنى من الأزواج إلى الواحد !

(١) ب : الرحى .

(٢) يقصد ، هاء الهوىة فى اسم الله .

(٣) سورة الذاريات ، الآيات : ٤٩ ، ٥٠ .

والقلب كاسمه ، قلب .. أى وسط - صورة ومعنى - عدل ؛ ولهذا جاء الهاء فى حَدِّ الأعداد ، اسمُ الخمسة^(١) . لأن الخمسة وسط أصل الأعداد - التى هى من الواحد إلى التسعة - ويظهر من هذا سيرُّ الصلوات الخمس ، وقوله : بُنِيَ الإسلام على خمس^(٢) .

والهُويَّة هُويَّتَان : هُويَّته وهُويَّتكَ . فإذا أفنيت هُويَّتكَ ، بقيت هُويَّته ، وقوله ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾^(٣) ، وهذا معنى قوله - حتى يفنى مَنْ سواه - ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾^(٤) . فبقدر ما تفنى هُويَّتكَ ، تغشاك هُويَّته ؛ فتفنى - فى الأول - صفات هُويَّتكَ ، مذموماتها ومحموداتها ، فتغشاك لا جرم - فى الأول - صفات هُويَّته ، من صفات الجلال والجمال . ثم تفنى ذاتك ، فتغشى هُويَّته ، ولا هُويَّة حينئذٍ هُويَّته ، فتجد حينئذٍ الوعدَ نقداً : لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ^(٥) .. فالله معناه - فى مقام تجلّى الذات - الواحدُ من كُلِّ وجهٍ ، لا يتقاضى ثانياً آخر - موجوداً ؛ لأنه ينافى ذلك خاصية الواحد . والقَهَّارُ معنى الواحد ، لأنه بوحده انيته يقهر سُكَّانَ الفردانية ؛ فيصيحون

(١) فى حساب الجمل : أ = ١/ب = ٢/ج = ٣/د = ٤/هـ = ٥ .. وهكذا تعطى لحروف

الأبجدية أرقاماً متتالية حتى العدد ١٠ يليه ٢٠ ، ٣٠ ، ٤٠ إلى آخر الحروف .

(٢) الحديث أخرجه البخارى فى الايمان ١ ، ٢ وفى تفسير سورة البقرة ٣٠ ؛ وأخرجه مسلم

فى الايمان ٢٠ ، ٢١ والترمذى فى الايمان ٣ والنسائى فى الايمان ١٣ وابن حنبل فى المسند

٣٦/٢ ، ٩٣ ، ١٢٠ ، ١٤٣ .

(٣) الآية : ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ القصص / ٨٨ .

(٤) سورة غافر ، آية ١٦ .

(٥) سورة غافر ، آية ١٦ .

حين أثبتهم بعد أن محاهم ، وأوجدتهم بعد أن أفناهم : « الله الواحد القهار » لَمَّا ذاقوا من غَشِيَانِ الهوية الوحداية والقهر .

[كلام الله]

إن كلام الحق إذا عَرَى - في الغيب - عن اللباس ، يسمع السَّيَّارُ أصواتًا تكاد تخرق دَفَّةَ الآذان . ويصعق السَّيَّار ، شاء أم أبى ، ثُمَّ يتداركه جمالُ الحق ، فيثبته ؛ وذلك بقدر ما يطيقه - ولو زاده الله تجريدًا في الكلام لَمَات - فتكشف له حالة موسى عليه السلام ؛ قال الله عَزَّ اسمه : « يَا مُوسَى إِنَّا كَلَّمْنَاكَ بِقُوَّةِ عَشْرَةِ آلَافِ رَجُلٍ ، وَلَوْ زِدْنَاكَ كُفَّةً » . ويتجلى ذلك من نفخ الصور^(١) ، وتتجلى أيامُ الله - وأيام الله هي التي أهلك فيها أقوامًا مجرمين ، في قوله : أَخَذْتُهُمُ الصَّيْحَةَ وَالرَّجْفَةَ^(٢) ؛ ثُمَّ لم يتداركهم لطفُ الحق ، فماتوا من ساعتهم . والسَّيَّار إنما يُفعل به ذلك^(٣) ، ليزداد ثباتًا وقُوَّةً وإيمانًا وعرفانًا ، ليهبه القاصدون حَقَّ الهيبة ، وَيَتَّقُوهُ حَقَّ تَقَاتِهِ .. ويظهر من هذا ، سِرُّ قوله عَزَّ اسمه : ﴿وَكَلَّا نَقْصُ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾^(٤) . وكان عليه السلام يجد

(١) قوله تعالى : ﴿ونفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله﴾ سورة الزمر ، آية ٦٨ .

(٢) الآيات : ﴿فَأَخَذْتَهُمُ الرَّجْفَةَ﴾ الأعراف / ٧٨ ، ٩١ ﴿فَلَمَّا أَخَذْتَهُمُ الرَّجْفَةَ﴾ الأعراف / ١٥٥ ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذْتَهُمُ الرَّجْفَةَ﴾ العنكبوت / ٣٧ .

(٣) يقصد : يصعق بكلام الله ، ثم يتداركه الجمال الإلهي والرحمة فينتبه .

(٤) سورة هود ، آية ١٢٠ .

من هذه القصص هذا المذاق ، وكان يقول : شَيْبَتْنِي سُورَةُ هُودٍ وَأَخَوَاتُهَا^(١) . لِمَا فِي هَذَا الْمَذَاقِ مِنْ أَهْوَالِ تُشْيِبِ النَوَاصِي^(٢) ؛ وَلِذَلِكَ يَقُولُ لَهُ - عَزَّ اسْمُهُ - فِي هَذِهِ السُّورَةِ : ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ ، وَمَنْ تَابَ مَعَكَ ، وَلَا تَطْغَوْا﴾ الْآيَاتِ^(٣) .

[عَوْدٌ لِكَلَامِ التُّسْتَرِي]

أُنْصَرَفَ إِلَى كَلَامِ التُّسْتَرِي - قَدَّسَ اللَّهُ رُوحَهُ - وَأَقُولُ : قَوْلُهُ « آه ، اسْمُ اللَّهِ » فَلِمَا قُلْتُ ، وَقَوْلُهُ « آخ ، اسْمُ الشَّيْطَانِ » فَلِبُعْدِ الْحَاءِ مِنْ مَقَامِ الْقَرَبِ ، الَّذِي هُوَ الْقَلْبُ ، وَلِهَذَا كُلُّ مَنْ أَرَادَ أَنْ يَلْفِظَ النِّخَامَةَ مِنْ فَمِهِ ، قَالَ « آخ » كَأَنَّهُ لَعَنَهُ وَطَرَدَهُ ، لِمَا لَا يَرْضَاهُ ؛ وَكَذَلِكَ كُلُّ مَنْ رَأَى شَيْئًا كَرِيهًا وَأَرَادَ بُعْدَهُ ، قَالَ « آخ » لِيَرْمِيَ الْبِزَاقَ عَلَيْهِ ؛ وَكَذَلِكَ كَانَ مِنْبَعُ حَرْفِ الْحَاءِ أَعْلَى مَنَابِعِ الْحُرُوفِ ، لِاسْتِكْبَارِ الشَّيْطَانِ .. وَكَذَلِكَ إِذَا وَجَدْتَ النَّفْسَ رَاحَةً ، اسْتَرَاحْتَ وَاسْتَرَخْتَ وَقَالَتْ « آخِ » لِأَنَّهَا حَبِيبَةُ الشَّيْطَانِ وَأَخْتُهُ ، فَتَجَرَّعَ الْكُتُوسَ بِاسْمِ أَخِيهَا وَحَبِيبِهَا . وَكَذَلِكَ ، إِذَا أَصَابَتْهَا سَهَامُ الْمَصَائِبِ قَالَتْ « آخِ » بِخِلَافِ النَّفْسِ الْمُطْمَئِنَّةِ ، فَإِنَّهَا تَقُولُ عِنْدَ الْفَرَجِ « اللَّهُ اللَّهُ » وَهَذَا سِرُّ قَوْلِهِ ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾^(٤) .

(١) أخرجه الترمذى فى التفسير بلفظ : يا رسول الله قد شبت قال : شيتنى هود والواقعة ..

والحديث فى « تمييز الطيب من الخبيث » للشيبانى (طبعة مصر ١٣٢٤) ص ١١٥ .

(٢) النواصى : الرؤوس .. وفى القرآن الكريم : ﴿فِيؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأُقْدَامِ﴾ سورة الرحمن ، آية ٤١ .

(٣) سورة هود ، آية ١١٢ .

(٤) سورة البقرة ، آية ١٥٥ ، ١٥٦ .

[صِيحَةُ الهاء]

إِلَّا أَنَّهُ يَنْتَهِي هَذَا الْاسْمُ - الَّذِي هُوَ الْهَاءُ - إِلَى حَدِّ يَتَّصِلُ بِالْاسْمِ الْأَعْظَمِ . وَابْتِدَاءُ الْاسْمِ الْأَعْظَمِ مِنَ اللَّهِ ، لِأَنَّهُ اسْمُ الذَّاتِ الْمَشْتَمِلَةِ بِالصِّفَاتِ الْجَلَالِيَةِ وَالْجَمَالِيَةِ ؛ ثُمَّ تُقَلَّلُ حُرُوفُهُ بِزِيَادَةِ كَشْفِ الْمَعْنَى ، فَتَقُولُ « هُوَ » وَ « هُوَ » إِمَارَةً إِلَى الذَّاتِ الْقَرِيبَةِ الْحَاضِرَةِ . وَمِنْ الْحُرُوفِ وَالْكَثْرَةِ ، يَقَعُ التَّقْلِيلُ إِلَى حَذْفِ الْوَائِ مِنْهُ ، فَتَنْتَفِي الْكَثْرَةُ وَالتَّرْكِيْبُ وَالتَّفَوُّهُ بِهَا ، فَيَقَعُ إِلَى مَجْرَدِ حَضُورِ الْقَلْبِ وَالذِّكْرِ ، ثُمَّ يَتَقَوَّى هَذَا فِي الْقَلْبِ فَيَنْتَقِلُ إِلَى السَّرِّ ، وَيَتَقَوَّى فِي السَّرِّ ، فَيَنْتَقِلُ إِلَى الْهَمَةِ وَالْقُدْرَةِ .. وَعِنْدَهَا يَتَّصِلُ بِالْاسْمِ .

فَعِنْدَ وَقْعِهِ - فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ - فِي بَحْرِ الْاسْمِ ، تَخْرُجُ صِيحَةٌ مِنْ قَلْبِ السَّيَّارِ ، مِنْ غَيْرِ اخْتِيَارِهِ ؛ وَتَكُونُ الصِّيْحَةُ فِي الْأَوَّلِ : مِثْلُ الْفَوَاقِ فِي الصَّدْرِ ! ثُمَّ يَقْوَى ، فَيَنْتَهِي إِلَى مَقَامٍ يَمُوتُ بِهِ السَّيَّارُ - أَوْ يَمُوتُ بِهِ غَيْرُهُ^(١) - عَلَى حَسَبِ نَفْخِ إِسْرَافِيلَ فِي الصُّورِ .

وَعِنْدَ ضَعْفِ الْإِتِّصَالِ بِالْاسْمِ الْأَعْظَمِ ، يَكُونُ كَعَبًا وَاحِدًا . وَعِنْدَ قُوَّةِ الْإِتِّصَالِ بِهِ يَصِيرُ ذَا كَعْبَيْنِ ؛ وَقَدْ يَصِيرُ ثَلَاثَةً كَعَابٍ ، إِمَارَةً أَزْدِيَادِ الْإِتِّصَالِ بِهِ . وَقَدْ تَكُونُ الصِّيْحَةُ ضَعِيفَةً ؛ وَقَدْ تَكُونُ قَوِيَّةً ، لِاخْتِلَاطِ الرِّيَاءِ وَالسَّمْعَةِ بِهَا - وَفِيهِ إِمَارَةٌ إِلَى قَوْلِهِ عَزَّاسْمُهُ ﴿ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴾ يَنْتَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ^(٢) . عَالَمُ الْحَدُوثِ وَعَالَمُ الْقِدَمِ ، وَكَلِمَا غَلَبَ

(١) تَمْتَلِي كُتُبُ طَبَقَاتِ الصُّوفِيَّةِ بِوَقَائِعِ الَّذِينَ مَاتُوا عِنْدَ صِيْحَتِهِمْ ، أَوْ مَاتُوا عِنْدَ سَمَاعِ صِيْحَةِ غَيْرِهِمْ . وَفِي (حَلِيَةِ الْأَوْلِيَاءِ) لِلْأَصْفَهَانِي ، شَيْءٌ كَثِيرٌ مِنْ ذَلِكَ .

(٢) سُورَةُ الرَّحْمَنِ ، الْآيَاتَانِ : ١٩ ، ٢٠ .

على القلب القِدَم ، قَلَّتْ غلبةُ الحدث عليه ، وكلما صفر منه امتلاً من ثم^(١) - وفيه إشارة إلى قوله عزَّ اسمه ﴿إِلَّا مَنْ أَمَى اللَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾^(٢) قال الشيخ أبو النجيب^(٣) ، قَدَّسَ اللهُ روحه : إنما قلبى مثل الجُبِّ الفارغ ، لأجله^(٤) .

فهذه الصيحات والزُعقات الخارجة من القلوب ، من اتصالها بالاسم الأعظم ، إذا خرجت صافية خالصة عن شائبة الاختيار ؛ أما إذا خرجت من اختيار ، فتلك الصيحات لم تدخل بعدُ إيوان^(٥) الإخلاص . والفرق بينهما ، أن الصيحة الخارجة عن غير اختيار ، لها فراق^(٦) الحجرين إذا تصادما - وأنت غافل عن مبادئ التصادم^(٧) - أو الرعد الشديد الصوت إذا سَبَّح^(٨) ، حتى يخاف على الأسماع

(١) قوله « صفر منه » أى « خلا منه » والمعنى : كلما خلا القلب من الوجود المادى المحدث ، امتلأت جوانحه بالوجود الإلهى القديم .

(٢) سورة الشعراء ، آية ٨٩ .

(٣) يقصد ؛ الشيخ أبا النجيب السهروردى .. راجع ترجمته فيما سبق .

(٤) المعنى هنا ، أنه جعل قلبه كالبئر العميق الخالى ، من أجل الله الذى يتجلّى بأنواره على قلوب عباده .. وهو معنى قريب من حال (التخلية والتحلية) الذى تحدثنا عنه فى تعليقاتنا السابقة .

(٥) الإيوان : المكان العظيم ، ومنه « إيوان كسرى » وهى كلمة فارسية وكردية ، أصلها آرامى ، وأوى بالعربية : سكن (معجم الألفاظ الفارسية المعربة ص ١٣) .

(٦) أ : مذاق .

(٧) يريد الشيخ هنا أن يقول : إن خروج الصيحة اللا اختيارية يكون خروجاً مفاجئاً يمر كلمح البصر دون الانتباه إلى مبدأ أمره .

(٨) تسبيح الرعد تعبير قرآنى ﴿ويسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته﴾ وفى ديوان أمية ابن أبى الصلت :

ومن خوف رنى سَبَّحَ الرعد فوقنا وسَبَّحَ الأشجار والوحش أبْدُ

منه^(١) ، من غير أن تجد أو تذوق منه^(٢) ابتداءً في ذلك . أما الصيحة الخارجة من الاختيار ، فتلك لها أَلْفُ الابتداء ، وقصد الابتداء .. وهما على حسب حركة المرتعش والمختار ، فإنك تدرك تفرقةً ضروريةً بينهما .

فإحدى الصيحتين طاهرةٌ ، خارجُ الكون ؛ والثانية - الاختيارية - نجسةٌ بنجاسة الرياء والسمعة . فلا جرم أن الأولى تقبلها القلوب والأرواح ، وتنقاد لها النفوس ؛ والاختيارية لا تقبلها القلوب والأرواح ، وإن قبلتها النفوس لغلبة الاختيار عليها . والأولى تورث عَجَبًا وخرقًا لعادة الصيحات ، والثانية تكون لها أمثالٌ في الصيحات ولا تورث عَجَبًا وخرقًا لعادة الصيحات .. فهذه الصيحة الطاهرة ، لا يُمنع بها السَّيَّار ، إلا بعد فناء الاختيار في اختيار الشيخ .

سُئِلَ الجُنَيْدُ ، قَدَّسَ اللهُ روحه ، عن صيحة الفقراء ؛ فقال : هي اسم الله الأعظم ، فمن أنكرها أو كرهها ، لم يجد لذة الصيحة يوم القيامة .

[الأُنْسُ بِالْحُزَنِ]

الحُزْنُ سُكُوتٌ مُحْضٌ لا يوجب صيحة ، إلا تنفُّسُ الصُّعْدَاءِ^(٣) . فإذا قَوَّى ، فالرنين . فإذا جاوز الرنين ، ينتهى الحزن ويهجم النشاط والطربُ

(١) . . منها .

(٢) . . منها .

(٣) الصعداء : التنفس الممدود ، وهو النفس بتوقع .. والصعداء : المشقة (لسان العرب .

والفرح ، لظهور الأنس بالحزن ! فإن الحزن لا يكون إلا لفوات محبوب ،
وحقيقة هذا مثل حَنَّة القلب إلى المحبوب وشوقه ، إلا أنه في حالة الوصل
واصل إلى المحنون إليه ، فلا يحزن ؛ فإذا فارقَه ، حَزِنَ لفراقه .

فالحزن لباسٌ أو قشرٌ ، والملبوسُ أو اللُبُّ : الحَنَّةُ أو الحَنَانُ . أو
الحزنُ اللقمةُ ، والعاشقُ الآكلُ . أو الحزنُ الشرابُ ، والعاشقُ أو العشقُ
الشاربُ .. فإذا قَوِيَ اللابسُ ، رمى الثياب ، أو خرق الحجاب ؛ فإن
الثياب عند الأحاب حجاب ! أو كَبُرَ اللُبُّ ففتق القشر ، أو نمت الحَبَّةُ
فنقبت الحجر والأرض فنبتت ، أو كبر الفرخ في البيضة وحيى فكسر
القشر ، أو قويت^(١) حَنَّة الحَنَان - من تواتر لُقمات الحزن وشرباته -
فخطت^(٢) إلى الإلف ؛ وصيحتته من غير اختيار ، خطوته إليه .

فعلى هذا ، جميع أصوات الطيور تخرج من حَنَّة في صدورها ، إما من
طربٍ أو نشاط غير مسبوقٍ بحزن ، وإما مسبوقٍ بحزن متقوية . والسيَّار
يصل إلى حالة تخرج منه أصواتُ الطيور ، ثمَّراتُ حالة البسطِ والأنس بالله
وما بعده ، والفرح به .

[أحوال]

كنت أسمعها^(٣) من فقير لقيته في طريق كربلاء ، فأنكرتُ عليه
ذلك ، وسألته عنها ؛ فقال : خيرًا يكون إن شاء الله ، هذا يكون مباركًا

(١) . قوى .

(٢) . فخط .

(٣) يقصد ؛ الصيحات الشبيهة بصيحات الطير .

فقط ! وما أجنبي بما وراء ذلك ، لتفرسه^(١) في عدم وصولي إلى ذلك المقام .. فلما كان بعد ذلك بزمان ، وصلت إلى هذا المقام ، وعجمت^(٢) أعواد الصيحات الطيرية ؛ فعلمت أن صيحات الفقير كانت صحيحة ، فعصضت بنان الندمان ، وسبحت شبه المتعجب الحيران . وعند ذلك ، أعدت عند الناس من المجانين ، إلا عند الخبير بذلك^(٣) .

وهذه حالة سنية^(٤) ، إلا أن فوقها أعلى منها ؛ وذلك مُلك الحالة ، فإن مُلك الرجل للحالة ، أقوى من مُلك الحالة للرجل^(٥) . ووجهه^(٦) : أن الرجل في الأول يفنى من اختياره في اختيار الحق ، ثم يترقى فيتصف باختيار الحق ؛ وذلك أجل من الفناء في اختيار الحق . وذلك إنما يتم إذا ابتلى وامتحن في هواجم العظمة ، وسرح في مسارح الجلال ، وسابق في ميادين الكبرياء ، وطار في هواء الهوية حتى كسى كسوة الاتصاف ،

(١) الفراسة : القدرة على استشفاف الباطن . وفي الحديث الشريف « اتقوا فراسة المؤمن فإنه يرى بنور الله » راجع بخصوص ذلك : كتاب الفراسة لفخر الدين الرازي .
(٢) يقصد : فهمت كلامها الأعجمي .. ويقال « عجمي » لكل ما ليس عربياً ، والحيوانات يقال لها « عجماءات » لأنها لا تفصح ؛ فالإعجام نقيض الإفصاح .
(٣) يشير الشيخ هنا إلى أنه صار محلاً لنقد غير العارفين ، مثلما كان الفقير فيما سبق محلاً لنقده . والجنون هنا مرحلة في الطريق يستند فيها الصوفية لقول النبي ﷺ : لا يكمل إيمان أحدكم حتى يقال إنه مجنون ! وقد كان الإمام الجيلاني في بعض مراحل تصوفه المبكرة ، يقال له : عبد القادر المجنون (راجع كتابنا : عبد القادر الجيلاني باز الله الأشهب ، ص ٥٣) .

(٤) ب ، ج : شين !

(٥) يقول الصوفية : المبتدئ تملكه الأحوال ، والواصل يملك الأحوال .

(٦) يقصد ؛ ويانه .

وُخُلعت عليه خلعة الاختيار ؛ فهو الخليفة - على الاستحقاق - في الطريقة ، وإليه الإشارة في قوله :

﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ﴾^(١) .

و ﴿خَلَّافٍ فِي الْأَرْضِ﴾^(٢) .

و ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾^(٣) .

(١) سورة النمل ، آية ٦٢ .. وفي الأصول : جعلكم خلفاء .

(٢) سورة الأنعام ، آية ١٦٥ - سورة يونس ، آية ١٤ - سورة فاطر ، آية ٣٩ .

(٣) سورة البقرة ، آية ٣٠ .

فصل : [مشاهدات كونية]

تبدو في الغيبة سماوات وفيها كواكبٌ وشموسٌ وأقمار ، كلها أسباب اليقين ، ولكن لهذه الكواكب تفسير ومعنى ؛ فقد تكون قرآنًا ، وقد تكون جواهر الأشخاص من الناس .

فإن بدت له^(١) ، وهي ثابتة في سمائها ، غير هاجمة عليه ؛ فإنه يَرِدُ عليها ويزورها . وإن هجمت عليه ودخلت في داخله ، فإنها تَرِدُ عليه وتزوره .. وكِبَرُها وصِغَرُها ، وصفاءُها وخفاؤها ونورها ، وكثرتها وقلتها ، واجتماعها وافتراقها ؛ آياتٌ وعلاماتٌ على الكبر والصغر والصفاء والخفاء والنور والكثرة والقلّة والاجتماع والافتراق ، الكائنة في الزُّوَار .. وقد يشاهد البروج والمنازل - وما يدخلها من السبعة السَّيَّارة^(٢) - فيكون لها معنى وواقعة استقبلته ، وستدخل في الوجود .

[معاينة]

غُبْتُ ، فرأيتُ الشمس خرجتُ من القوس ودخلتُ في الجدى .. فدخل عليّ وزيرُ أمير تلك الخطة^(٣) ليزورني ، وأنا حينئذٍ في الحَلْوَة ، ففهمتُ أنه تواضع الأمير للفقير .

(١) أي : بدت للسيار .

(٢) هي الكواكب السبعة السيارة عند العرب : الشمس والقمر - ويقال لهما « النيران » وزحل والمشتري والمريخ والزهرة وعطارد - ويقال لها الخمسة المتحيرة - لتحيرها في السير رجعة واستقامة (كشف اصطلاحات الفنون ص ١٢٣٥) .

(٣) الخطة : المنطقة .

[تزاور الأرواح]

وسِرُّ هذا ، اجتماعُ الأرواح قبل الأجساد ، وزيارتها بعضها بعضاً قبل زيادة الأجساد ، لشرف الأرواح عليها . وهذا ثابتٌ في حَقِّ الناس جميعاً ، إلا أن^(١) مَنْ فَسَدَ ذوقه لا يجد ذلك ، وَمَنْ عَمِيَ بصره - لاستحكام سَبَلِ^(٢) الوجود على البصيرة - لا يبصر ذلك ؛ إلا أن يصيب كُلُّ أحدٍ من اجتماع الأرواح بقدره .. ففي حَقِّ العامة ، الخطران بالبال والذكر باللسان ، فإذا هجم عليهم المذكور ، قالوا في المَثَل : إذا ذكرت الحبيبَ فهَيَّئِ^(٣) الزبيب ! معناه : أنه زارك بروحه أو زرته بالروح ، ستقع الزيارة بالأشخاص .. وفي حَقِّ الخاصة ، يجد في الداخل حساً أنه زائرٌ أخاه ، أو أخوه زائرٌ إياه ، وأنه يجري بينهما كذا وكذا ؛ أو يجد وقاراً يقع عليه ، فيطمئن مع أنه يذكر أخاه ، ثم يزداد قليلاً ، فيرى غيماً أبيض مثل المزن^(٤) يقع عليه قُدَّامه ، يضطرب ويزداد ، فيكون نوراً بين يديه يتحرك ويسطع ويأخذ النظر بالتعجب - كَمَنْ رأى شيئاً غريباً أو سمع شيئاً بديعاً غريباً ، تتحوَّل باصرته كأنه ينظر إلى شيءٍ ويدم النظر إليه من غير تحريك الأجفان - وينسى حينئذٍ كُلَّ شيءٍ حتى نفسه ،

(١) - ب ، وفي الهامش وضع الناسخ علامة استفهام ، لغموض المعنى بدونها .

(٢) السَّبَل : غشاوة تعرض للعين من انتفاخ عروقها الظاهرة في سطح المتحمة والقرنية (قاموس الأطباء ١/٣٤٨) .

(٣) ب : فهز ، ووضع الناسخ في الهامش علامة استفهام كالسابقة .

(٤) المزن : السحاب .

لا اجتماع الأسرار في عالم الأرواح ؛ فحينئذ يفهم الخاصة أنه ستجرى^(١) بينهم وبين الإخوان زيارة في عالم الأشخاص ، وأن هذه زيارة الأرواح قد وقعت .

[واقعة]

كنتُ في ابتداء اتصالى بخدمة الشيخ الشيخ عَمَّار البديسى^(٢) متردداً في هذا الشأن ، أهو صحيح أم لا ؟ فسافر الشيخ إلى قرية ، ثم رجع إلينا ، فلما قرب من البلد وقع وقارُ الشيخ وظلُّه وهَمَّتْهُ عَلَى كالجبل ، لا أطيع أن أَتَحَرَّكَ عنه ؛ فألهَمْتُ أنه الشيخ قد رجع ، وقرب من البلد ، فقلتُ للأصحاب : قوموا بنا إلى الشيخ نستقبله ، فقد قرب من البلد . فقالوا : مَنْ أَخْبِرَكَ بهذا ؟ فقلتُ : وقع عَلَى وقارِهِ ! فضحكوا من ذلك شِبْهِ المستهزئين ؛ فلما أبصروا منى الجد قاموا معي مجريين مقاتلى ، فلما^(٣) خرجنا من البلد ، إذ طلع علينا الشيخُ مشرفاً على تَلٍّ ، وهو راكبٌ فرساً .. فلما أبصروا ذلك ، تعجَّبوا وندموا على ما فعلوا .

[عودٌ للكونيات]

وفي حَقِّ الخاصة ، يبدو لهم شكلُ الأرواح بهيئة الشمس والقمر والخمسة المتحيرة^(٤) ، وغير ذلك من الكواكب الثابتة في السماء . ولهذا

(١) . سيجرى .

(٢) - أ ، وفي النسخة ب وضع الناسخ علامة استفهام تفيد تردده في وضع اسم : البديسى .

(٣) أ : فما .

(٤) راجع معنى « الخمسة المتحيرة » فيما سبق .

مبادئ ونهايات ؛ ففي الابتداء يبدو شبه النقطة في الغيبة ، ثم يكبر فيكون كواكب . وقد يبدو وهو غير غائب إلا أنه مُطَبَّقُ جَفْنِيَّة ، ثم يزداد فتبدو هذه الكواكب للسَّيَّار في ضوء النهار ، وهو غير مُطَبَّقُ جَفْنِيَّة ، فيجرب على لسانه : « سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر^(١) » ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .. » وقد يزداد ، فتكون للسَّيَّار حالة ، فتحضر الأرواح بهمة شاءت أم أبت ؛ ثم تزداد حالته ، فيميز بين أرواح الأحياء والأموات ، وبين أرواح الأنبياء والشهداء وسائر الناس .

إذا بدت السماء ، للسَّيَّار ، وما فيها من كواكب ؛ ولكن من فوقه ، فهو مبادئ الإشراف بأحوال العباد ، من غير أن يتصرَّف فيهم . وإن بدت في نفسه ، وذاق أنها هو ، فذاك تسوية حالته مع أحوالهم .. وإن بدت السماء وما فيها من الكواكب تحته ، فذاك إشراف كامل وإعطاء التصرُّف له عليهم ، ومنه يتجلَّى قوله عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ ﴾ الآية^(٢) ؛ وقد يكون إعطاء التصرُّف ، فعلامته أنه يرى القطبين بين يديه ، والبروج والمنازل ، فيدخل يده في منزل منزل ، فيستخير ما فيها .

[معانيات]

غَيْثٌ ، فرأيتُ عَالِمًا من علماء الدين ، والسماء بادية ذات كواكب ، فقال : أتدرى ما معنى الكواكب والشمس ؟ فقلتُ : قل !

(١) هذه الصيغة الشريفة ، هي صيغة « صلاة التسابيح » التي ورد في الخبر أن النبي ﷺ

دعا إلى أدائها ولو في العمر مرة .

(٢) سورة الأنعام ، آية ١٨ .

فقال : إن الله ينظر إلى عباده بالليل والنهار ، فالكواكب نظره بالليل والشمس نظره بالنهار .

وغبْتُ ، فرأيتُ سماءَ ذات كواكب ، ففهمتُ من كواكبها القرآن ،
آية الكرسي^(١) : الله ولا ، بلا حرفٍ مكتوبٍ
ولا كلمة .

وغبْتُ ، فبدت سماءُ كأنها كتاب القرآن ، فيها مكتوبٌ بأشكالٍ
مربعة ، بالنقط ، كذلك^(٢) :

°	°	°	°
°°	°°	°°	°°
°°°	°°	°°	°°
°°° °°	°	°°	°°°
الآية	°°	°°	°°°

(١) آية الكرسي ﴿الله لا إله إلا هو الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم له ما في السماوات وما في الأرض من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء وسع كرسيه السماوات والأرض ولا يؤوده حفظهما وهو العلي العظيم﴾ سورة البقرة ، آية ٢٥٥ .

(٢) هناك صور متعددة للشكلين ، فكل النسخ مختلفة في هيئة الشكل وصورته ، فالتشكل الأول له الصور التالية :

[٢] °° °° °° ولا

[١] الله °° °° °° ولا

[٤] °° °° °° .

[٣] الله °° °° °°

°° °° °° ولا

°° °° °° ولا

[٥] °° °° °°

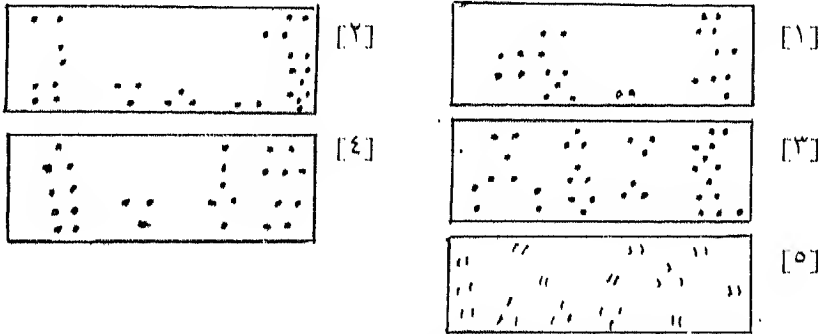
°° °° °° ولا

وهذه آية من سورة طه ﴿وَالْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي﴾ * إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ ﴿١﴾. فكنت أفهمها وأقرأها، وألهمت أن هذا في حق امرأة أعرفها يقال لها «بَنَفْشَه» ﴿٢﴾ وكان اسمها في الغيب: استفتين.

[تسميات غيبية]

والسِّيَّارُ إذا كان مقبولا ، سَمَّوَهُ في الغيب وكنَّوَهُ ، وعرف اسم الشيطان ، والاسم الأعظم للحق سبحانه وتعالى . واسمى في الغيب

= والشكل الثاني له الصور التالية :



.. وأعتقد أن المراد هنا ليس هو صورة الشكل ، بل مضمونه .. أعنى أن يرى السِّيَّار في مشاهدته كلام الله (القرآن) على نحو كهذا ، دون حروف أو كلمات . وهذا لا يدهشنا اليوم كثيرا ، بعد أن رأينا فنون الاختزال وأشكال الشرائط المخزَّمة التي يكون فيها الكتاب مجموعا في بضعة أمتار لا يزيد عرضها عن بوصة واحدة ، وهو لون من تجهيز الكتب للطباعة يعد اليوم من أكثر طرق الطباعة انتشارا .. والشريط المخزَّم الذي يشبهه --- بل يطابق --- ما يرسمه الشيخ هنا ، يسمى اليوم عند المشتغلين بالطباعة : الشريط المخزَّم الممغنط .

(١) سورة طه ، آية ٣٩ ، ٤٠ .

(٢) بَنَفْشَه : كلمة فارسية عُربت إلى « بنفسج » ومنها « بنفشه » بالتركية و « يَنْفَش » بالكردية .. وكلها تشير إلى النبات المشهور .

« قنطرون » وأما كُنيتي ، فكنتُ بالإسكندرية أسمع الأحاديث على الحافظ السلفي الإصفهاني - وهو شيخُ مُسنِّ شافعي المذهب سلفي الاعتقاد نيف على المائة بسنين^(١) - فغبتُ ، فرأيتُ النبي ﷺ وهو قاعدٌ معي ثافي اثنين ، تمسُّ ركبته ركبتي عليه السلام ، وإني أُلهمتُ أن لي عليه كُلُّ يومٍ وِرْدًا من القرآن أقرأه ، فكنتُ أقرأ وِرْدِي^(٢) عليه ، فلما سكنتُ عن القراءة ، استجودها ، وقال : هكذا تسمع الأحاديث بالنهار وتقرأ القرآن بالليل .

ثم أُلهمتُ حينئذٍ أن أسأله عن كُنيتي ، فقلتُ : يا رسول الله ، كُنيتي « أبو الجَنَاب » أم^(٣) « أبو الجَنَاب »^(٤) ؟ وكانت^(٥) نفسي مائلة أن يقول « أبو الجَنَاب » بالتخفيف ، فقال : لا ، بل أبو الجَنَاب ، بالتشديد . فقال صاحبه^(٦) : نَعَمْ يا رسول الله ، هو أبو الجَنَاب ! وفيهما سِرُّ الدنيا والآخرة ؛ ولو قال « أبو الجَنَاب » لكنتُ صاحب الدنيا^(٧) ، فلما قال « أبو الجَنَاب » فأكون مجتنبًا عنهما^(٨) إن شاء الله .

(١) انظر ما قلناه عن الحافظ السلفي ضمن كلامنا عن شيوخ نجم الدين ، ص ٢٧ - ٤٧ .

(٢) ب : أقرأ وِرْدِي .. ثم وضع الناسخ علامة استفهام .

(٣) ب : أو .

(٤) ب ، ج : الجباب .

(٥) العبارة التالية ساقطة من ب ، ج .

(٦) يقصد نفسه .

(٧) كانت لفظة « الجَنَاب » تُطلق في زمن الشيخ على أرباب السيوف والأقلام ، وهي أعلى ما يُكتب للقضاة والعلماء من الألقاب ، وتُكتب لمن يجري مجرى الوزراء ، ولبعض الملوك

المكاتبين عن الأبواب السلطانية (صبح الأعشى في صناعة الإنشا ٥/٤٩٥) .

(٨) يقصد : الدنيا والآخرة .. فيكون المعنى : أن الله اجتنابه عن الدنيا والآخرة معًا .

وأما اسم الشيطان ؛ فغبتُ ، فرأيتُه معرفته ، ثُمَّ نَكُرْتُ عليه الأمر
لأُستمحنه : أَيْصَدُقْ أَمْ يَكْذِبُ . فسألتُه : مَنْ أَنْتَ ، وما اسمك ؟ فقال :
أنا رجل غريب ، واسمى يوناق ! فقلت له : بل أَنْتَ عزازيل^(١) ! فوثب
علَيَّ وقال : أنا عزازيل ، فماذا تصنع ؟ .. وجرى بيننا ما جرى ؛ من
جملة ذلك أُنِي رَأَيْتُ ثِيَابِي مَخِيطَةً بِثِيَابِهِ ، البدن بالبدن ، والأكمام بالأكمام .
فقلت له شِبْهُ العاجز المستخبر^(٢) عن طرق النجاة : بماذا ينجو الإنسان
عنك ؟ فقال : لا ينجو عني حتى يفصل ثيابه عن ثيابي ! فجذبتُ
وجذبتُ حتى انقطعت ثيابي عن ثيابه ، فلما انفصلت ، عرى عن ثيابه
وعمى بصره . وهذه الواقعة مفسرة لقوله عليه السلام : إن الشيطان
ليجرى من ابن آدم مجرى الدم ، أَلَا فَضِيقُوا مجاريه بالصوم^(٣) . وهو معنى
قوله : الإِيمان عريانٌ ولباسه التقوى^(٤) .. فَإِنَّ التقوى ، حذرُ القلوب عن
نزغات^(٥) الشيطان .

[خرقة الصوفية]

فاللباس الذى بقى على بدنى ، مرقعةٌ ؛ كانت ترقيع العجز
والانكسار ، لا ترقيع القدرة والاستظهار . وفى هذا سِرٌّ لبس الخرق بين

(١) عزازيل من أسماء إبليس . وفى تفسير هذا الاسم راجع ما يقوله الخلاج ، حيث يرر كل
حرف من حروف الكلمة (الطواسين : طاسين الأزل والالتباس) .

(٢) . المستخبر :

(٣) راجع تفريخ الحديث فيما سبق .

(٤) لم نجد له تحريجاً .

(٥) أ ، ج : نزعات . والنزغات جمع « نزع » وهو وسوسة الشيطان ، وفى القرآن
الكریم ﴿ وإما ينزغنك من الشيطان نزغ ﴾ الأعراف / ٢٠٠ - فصلت / ٣٦ .

الصوفية ؛ وتعبيرها^(١) ، فإن الإنسان لا يتأتى عنه في الغالب ، إلا ما يليق بصورته ؛ فإن المسلمين والمؤمنين عيونُ الله في الأرض ، فإن أبصروا أحداً في لباس الصوفي في الخرابات^(٢) - وإن كان فاسقاً - شددوا عليه اللوم والتوبيخ ، بل تهيج دواعيهم في الضرب والطرد ، ولو كان من أهل الخرابات ؛ وإن أبصروه بضده^(٣) - وإن كان في السرِّ ولياً - عذروه ، اعتباراً للمعنى بالصورة .. فإذا زالت عنه الموانع الظاهرة ، استماله اللعين برأفة الحقِّ ورحمته للعاصين ، وستره عليهم ، وعسى أن يتوب عليه بعد ذلك^(٤) .

[النفس والعصمة]

والنفس حيَّة لا تموت ، فإن مثالها مثال الأفعى : إن^(٥) ذُبحَتْ ودُقَّ رأسها دَقًّا ناعماً ، ثُمَّ سُلخ جِلدها من بدنها ، فطُبِخ لحمها وأُكِل ، ومضت على جِلدها سنون ، ثم وُضع في حرارة الشمس ؛ فإنه يتحرَّك^(٦) .

(١) يقصد : ومعناها . ويقال « تعبیر الرؤيا » لتفسير المنامات .

(٢) الخرابات ، جمع « خرابة » وهي اللفظة الفارسية لأماكن اللهو والشراب .

(٣) أى وجدوه يرتدى شيئاً غير خرقة الصوفية .

(٤) المراد هنا ، أن ارتداء خرقة الصوفية يجعل الإنسان مطروداً من أماكن اللهو ، أما عدم ارتدائها - حتى بالنسبة للأولياء - فهو يجعل الطريق ممهداً للبقاء في مواقع اللهو ، وربما ينجح الشيطان في الميل به إلى اللهو بما يقنعه به من أن رحمة الله واسعة ، وأن الله يستر على العاصين ، وأن باب التوبة مفتوح .

(٥) أ : إذا .

(٦) يحاول الشيخ بهذا المثال الطريف أن يشير إلى أن النفس الإنسانية غير مأمونة الجانب ، ولو ارتقت وتطهرت ، فهي ليست بمنأى عن الانتكاس مرة واحدة .. وفي هذا المعنى يقول الإمام عبد القادر الجيلاني :

وكذلك النفس إذا اتصلت بها نيران الهوى والشهوة ونيران الشيطنة ، تحرّكت كذلك ؛ ثمّ لا تزال تظلم جوارح الأبدان ، فتسترد منها القوى والأغذية ، حتى تقوم . فحسم هذه المادة - حينئذٍ - بتغيّر الصورة ؛ وهذا سرُّ قولنا : ومن العصمة أن لا تقدر^(١) .

فإن العصمة قد تكون بلا واسطة - كعصمة الأنبياء والملائكة - وقد تكون بواسطة واحدة ؛ وقد تكون بألف وسائط ، كالسلسلة ، يشاهدها السيّار النبيه اليقظان ويذهل عنها الغافل الجاهل الخيران .. فالأول^(٢) لا يشاهد إلّا ربّه ، والثاني لا يشاهد إلّا نفسه ؛ فالسيّار في البداية يشاهد السبب ، ثمّ المسبّب ، ثمّ يألف زماناً إلى السبب والمسبّب بعده ، حتى يشاهدهما معاً ، ثمّ يختار الباقي ويذر الفاني ، فلا يرى إلّا المسبّب . وهذا معنى قول بعض المشايخ ، قدّس الله أرواحهم : فرأيت الله بعد كلّ شيء ، ثمّ رأيته مع كلّ شيء ، ثمّ رأيته قبل كلّ شيء^(٣) .

= لا ترفعوا عصا المجاهدة عن نفوسكم ، فبدوام المجاهدات تنفتح عيناها وينطبق لسانها ويزول خبلها وجهلها ، وهذا ما يجيئ بمجاهدة ساعة بل يحتاج دوام ساعة بعد ساعة ويوم بعد يوم وسنة بعد سنة (الفتح الرباني ص ١٦٦) .

(١) يقصد : إن عدم امتلاك الفرصة كالمقدرة على إتيان الرذيلة هو نوع من العصمة منها . وهو معنى قريب من قوله ﷺ : من حام حول الحمى أوشك أن يواقعه . ولذا نصح الصوفية بالابتعاد عن كل ما يقود للمعاصي ، واجتنبوا الشبهات .. وهذا معنى الورع . (٢) يقصد ؛ السيّار .

(٣) هناك عدة عبارات صوفية في ذلك ، هي على الترتيب :

- ما رأيْتُ شيئاً إلّا ورأيت الله بعده .
- ما رأيْتُ شيئاً إلّا ورأيت الله قبله .
- ما رأيْتُ شيئاً إلّا ورأيت الله معه .
- ما رأيْتُ شيئاً إلّا ورأيت الله فيه .

وذلك لاستغراقه في ذكر الله ، وفنائه في توحيده ؛ وهذا كَمَنْ شاهد شخصاً حسناً : طالع في أوائل النظر منه موضعاً موضعاً - كالوجه والقَدّ - وما يشتمل عليه الوجه من العين والأنف والحدّ والفم ، فيستحسنها شيئاً فشيئاً ، ويورث استحسانه حباً في داخل قلبه لصاحب الأوصاف الحسنة ، إلى أن يدور على الأوصاف كلها ، حتى إذا كمل الدوران على الأوصاف كلها ، واستحسنها ، استكمل عشقه عليه ، وأخذ بمجامع قلب الناظر ؛ ثُمَّ يبقى على ذلك زماناً ، يشاهدها ويشاهد صاحبها - مع حضورٍ وتذكّرٍ - إلى أن يفنى عن قلبه تذكّر الأوصاف ، والمطالعة لها ، ويبقى ذكر الموصوف .. كذلك السَّيَّار : يفنى عنه تذكّر الآيات ، ويبقى تذكّر خالق الآيات .

[علامات الولاية]

ومن علامات الولي : أن يكون محفوظاً من الله ، بتسلسل أمورٍ ، يعرفها السَّيَّار أنها سبب حفظه ، من الله عزّ وجلّ .

ومن علاماته : افتقاد الله سبحانه إياه بأنواع الطّافه ، وذلك لا يعدّ ولا يُحصى - من جنس الكرامات - قبل أن يُجرى عليه مذمومٌ ، فيعرّفه الله نقصان ذلك في حالته ، ثم يورثه ذلك رجوعاً وإنابة . أو مناماً له أو لغيره^(١) ، يكون في ذلك تنبيه له وعتاب الحق إياه على ما فعل ؛ وربما يكون توريث اليقين من المذمومات ، أقوى من توريث اليقين من

(١) يقصد ؛ أن لوم الله للولي يكون في رؤيا يراها الولي أو يراها غيره وينبئه بها .. وهي مسألة كثيرة الوقوع .

المحمودات^(١) .. فإن العبد إذا أحسن خدمة سيّده فخلع عليه سيّده ، وإذا أساء ضربه وزجره وحبسه وقّده ؛ دَلَّ إحسانُ السيّد^(٢) والضربُ - في كلا الحالين - على تعلُّق قلب السيّد بعبده .. والضرب أدلُّ على^(٣) الإحسان ! لأن الإحسان يجوز أن يكون مضافاً إلى خدمة العبد ، ويجوز أن يكون مضافاً إلى كرم سيّده ، ويجوز أن يكون لتعلُّق قلب السيّد به ؛ والضرب لا يدلُّ إلّا على تعلُّق قلبه به ، ومحبته إياه ، لأجل أن السيّد لا يطالبه إلا بالموافقة في أوامره ، وليست المحبة إلا موافقة المحبّ المحبوب . كذلك السيّار ؛ إذا عاتبه ربّه في منامة - أو منام أخيه - أو نكبة أو مصيبة ، يجد في ذلك من اليقين ما لا يجده في إحسان ربه ، إذ الإكرام والإحسان للحق صفات ، وليست العقوبة صفة له .

ومن علاماته : إجابة الدعوة . والأولياء في إجابة دعوتهم مختلفون ؛ فمنهم مَنْ تُجاب دعوته في الحال ، ومنهم في ثلاثة أيام ، ومنهم في أسبوع ، ومنهم في شهر ، ومنهم في سنة ، وأقلّ وأكثر على قدر منازلهم من الله .. والدعوة ليست عبارة عن قولهم « رَبِّي افعل كذا وكذا » وإنما هذا دليلٌ على دعوته في قلبه . شعر :

(١) في المعنى الذي يشير إليه الشيخ نجم الدين هنا ، حديث نبوي يقول : « إن العبد ليذنب الذنب فيدخل به الجنة ، يرى بين يديه ثائِباً فأرّاً حتى يدخل الجنة .. » وقد استشهد النابلسي بهذا الحديث في شرحه على قصيدة « النادرات » لعبد الكريم الجيلي (انظر : قصيدة النادرات العينية للجيلي ، مع شرح النابلسي ، تحقيق يوسف زيدان - بيروت ص ١٥٤) .

(٢) العبارة التالية ساقطة من ب ، ج .

(٣) أ : عن .

إِنَّ الْكَلَامَ لَفِي الْفَوَادِ وَإِنَّمَا جُعِلَ اللِّسَانُ عَلَى الْفَوَادِ دَلِيلًا^(١)
[بحر الكامل]

ومن علاماته : أن يُؤْتَى باسم الله^(٢) الأعظم . وكُلُّ واحدٍ منهم يُؤْتَى
اسمًا عظيمًا من أساميهِ ، ويدعو الله تعالى بذلك ؛ فيجيبه .

[عود للاسم الأعظم]

جاء واحدٌ إلى أبي يزيد البسطامي - رضى الله عنه - فسأله عن اسم
الله الأعظم ، فقال أبو يزيد : دُلَّنِي أَنْتَ عَلَى الْاسْمِ الْأَصْغَرِ ، حَتَّى أَدُلَّكَ
عَلَى الْاسْمِ الْأَعْظَمِ ! فَهَتَّ الرَّجُلُ وَقَالَ : كُلُّ أَسْمَاءِ عِظَامِ .

كَنْتُ فِي الْحَلْوَةِ بِمَسْجِدِ الشُّونِيزِيَّةِ^(٣) بِبَغْدَادَ ، فَرَأَيْتُ كَاغِدًا^(٤) فِيهِ
مَكْتُوبٌ « افْتَحِبِّحْنِي » فَكَتَبْتُهُ ، وَجِئْتُ بِهِ إِلَى خَادِمِ الْبَقْعَةِ فَقُلْتُ لَهُ^(٥) :
هَـا^(٦) اسْمُ اللَّهِ الْأَعْظَمِ ! فَاطَّرَقَ رَأْسَهُ وَجَعَلَ يَهْمِسُ فِي نَفْسِهِ ، فَدَقَّ رَجُلٌ

(١) ينسب هذا البيت للأخطل (الديوان ، نشره أنطون صالحاني - بيروت ١٨٩١
ص ٥٠٨) وهو يتردد كثيرًا في الكتابات الصوفية للتدليل على أن المدار على القلب وليس
على اللسان .

(٢) - ب .

(٣) ب : الشونيزية ؛ ج : الشونيزيه .. ويراجع معنى الكلمة فيما سبق .

(٤) الكاغد : كلمة فارسية تعني القرطاس من الورق (معجم الألفاظ الفارسية المعربة
ص ١٣٦) .

(٥) الزيادة في أ « فقلت له » موضوعة بين قوسين ، كإشارة أنها ليست في الأصول
المخطوطة .

(٦) أ : هاه ، ب : هامو ، ج : هاه .

باب داره بعد ساعة ، فأذّنّا له ، فدخل - فما عرفنا من أين الرجل - ووضع عندنا كاغداً فيه ذهب ، فوزّناها ، فإذا هي عشرة دنانير ؛ فغشي على خادم البقعة ساعة ، ثمّ أفاق مثل الوله الحيران ! فقلنا له : ما أصابك ؟ قال : لما قلت « هذا اسم الله الأعظم » شككتُ في أنه اسم الله الأعظم أم لا ، قلتُ في نفسي « يا ربّ إن كان هذا هو الاسم الأعظم ، فابعثْ إلينا هذه الساعة عشرة دنانير لنصرفها إلى دعوة الفقراء » فلما أبصرت الدنانير غشي علىّ .

ثمّ إن خادم البقعة حكى لي بعد مُدّة : إني رأيت فيما يرى النائم أشخاصاً حسبهم ملائكة ، يقولون « إنّنا أعطينا فلاّنا اسم الله الأعظم » وسموني . قال : فقلتُ لهم غيرّة عليك « أعطيتموه الاسم الأعظم وما أعطيتموني » فقالوا : « إنه جاهد في الله مجاهدةً كثيرة ، وأنت ما جاهدت ؛ فلو جاهدت مثل ما جاهد فلان ، لأعطيناك مثل ما أعطيناها » .

وكما أن الولي يؤقّى باسم الله الأعظم ، كذلك يعرف اسمه وكنيته في الغيب ، وأسامي الروحانيين من الجنّ والملائكة .

[حصول الولاية]

والولاية إنّما تتمّ في الدرجة الثالثة للسّيّار . الدرجة الأولى « التلويّن » والدرجة الثانية « التمكن » والدرجة الثالثة « التكوين » .. أو نقول : الدرجة الأولى « العلم » ثمّ « الحالة » ثمّ « الفناء عن الحالة في المحوّل » .

أو نقول : الدرجة الأولى « مشاهدة الصور » ثم « مشاهدة المعاني » ثم « الفناء عن المعاني في معنى المعاني » .

أو نقول : التجريد^(١) ، ثم التفريد^(٢) ، ثم التوحيد^(٣) .

أو نقول : الخوف والرجاء ، ثم القبض والبسط ، ثم الأنس والهيبية .

أو نقول : علم اليقين ، ثم حق اليقين ، ثم عين اليقين . فعلم اليقين مكتسب ، وحق اليقين حالة ، وعين اليقين فناء^(٤) .

(١) التجريد : أن يتجرد العبد بظاهره عن الأمراض الدنيوية ، وبباطنه عن الأعواض الأخروية ، فلا يأخذ من عرض الدنيا شيئاً ، ولا يطلب على ما ترك منها عوضاً من عاجل أو آجل ، بل يفعل ذلك لوجوب حق الله تعالى عليه .. ويتجرد بسره عن ملاحظة المقامات التي يحلها أو الأحوال التي ينازلها ، بمعنى السكون إليها والاعتناق لها (التعرف لمذهب أهل التصوف ص ١٣٣) .

(٢) التفريد : أن يتفرد الصوفي عن الأشكال وينفرد في الأحوال ويتوحد في الأفعال ، فتكون أفعاله لله وحده ، ولا يكون فيها رؤية نفس ولا مراعاة خلق .

وقيل : التجريد أن لا يملك ، والتفريد أن لا يملك (التعرف ص ١٣٣) .

(٣) التوحيد : أن لا يرى الصوفي إلا الله في الوجود .. وأركانها عند الصوفي سبعة (راجع : التعرف ص ١٦٠) .

(٤) علم اليقين وحق اليقين وعين اليقين : ثلاثة معاني قرآنية ، قال تعالى : ﴿ لو تعلمون علم اليقين ﴾ التكاثر/٥ ﴿ لترونها عين اليقين ﴾ التكاثر/٧ ﴿ إن هذا هو حق اليقين ﴾ الواقعة/٩٥ . يقول القشيري :

هذه عبارات عن علوم جليلة ؛ فاليقين هو العلم الذي لا يداخل صاحبه ريب على مطلق العرف ، ولا يُطلق في وصف الحق سبحانه لعدم التوفيق . وعلم اليقين في اصطلاح الصوفية هو ما كان بشرط البرهان ، وعين اليقين ما كان بحكم البيان ، وحق اليقين ما كان بنعت العيان . فعلم اليقين لأرباب العقول ، وعين اليقين لأصحاب العلوم ، وحق اليقين لأصحاب المعارف (الرسالة القشيرية ص ٨٥) .

أو نقول : العبادَةُ ، ثُمَّ العبودية ، ثُمَّ العبودة^(١) .
 أو نقول : طلبُ العبد ، ثُمَّ قبول الحق للعبد ، ثُمَّ الفناء في الحق .
 أو نقول ، كما قال الحسين بن منصور^(٢) : قطعُ العلائق ، ثُمَّ الاتصاف بالحق ، ثُمَّ الفناء عن الحقائق في حَقِّ الحقائق^(٣) .
 أو نقول : التَّعَبُّدُ ، ثُمَّ العبودية ، ثُمَّ الحرية . .
 أو نقول : التَّذَكُّرُ ، ثُمَّ الذِّكْرُ ، ثُمَّ الاستغراق في المذكور .
 أو نقول : فناء صفات العبد ، ثُمَّ فناؤه في صفات الحق ، ثُمَّ فناؤه في ذاته .

أو نقول : عبارة ، ثُمَّ إشارة ، ثُمَّ غَيْبٌ^(٤) .
 أو نقول : حضورٌ ، ثُمَّ غَيْبٌ ، ثُمَّ إحصاءٌ .
 أو نقول : شهودٌ ، ثُمَّ غَيْبٌ ، ثُمَّ إلهادٌ .

(١) يقول أبو على الدقاق : العبودية أتم من العبادَة ، فأولاً عبادَة ثم عبودية ثم عبودة . فالعبادة للعوام من المؤمنين ، والعبودية للخواص ، والعبودة لخواص الخواص . العبادَة لمن له علم اليقين ، والعبودية لمن له عين اليقين ، والعبودة لمن له حق اليقين . العبادَة لأصحاب المجاهدات ، والعبودية لأرباب المكابذات ، والعبودة صفة أهل المشاهدات (الرسالة القشيرية ص ١٩٨) .

(٢) يقصد ؛ الحلاج .

(٣) يقصد ؛ الله عز وجل .

(٤) + أ : عبارة ثم إشارة ثم غيب . لقد استعار نجم الدين هذا القول من شيخه عمار بن محمد البديسي كما يتضح من رسالته التي لا اسم لها ، نسخة شهيد على باشا ١٣٩٥ ورقة ٨٠ أ . حيث يقول : قال شيخنا عمار أول ما لقيت : لنا في التربية ثلاث طرق : العبارة والإشارة والغيب ، العبارة للضعفاء والإشارة للمتوسطين والغيب للأقوياء .

أو نقول : التخلّى ، ثمّ التجلّى ، ثمّ التولّى .. واللّه يتولّى الصّالِحِينَ^(١) .

واعلم أن السّيّار إنما يوصف بالولاية ، إذا أُوتى « كُنْ » و « كُنْ » أمر الحق في قوله : ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾^(٢) . وإنما يُؤتى الولي « كُنْ » إذا فئت إرادته في إرادة الحق ، فإذا فئت إرادته في إرادة الحق ، وكانت إرادته إرادة الحق ، فما يريد الحق شيئاً إلا يريد العبد ، ولا يريد العبد شيئاً إلا يريد الحق ؛ وإليه الإشارة بقوله : ﴿ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾^(٣) .

وليس التلفظ بالكاف والنون جائزاً في حقّ البارئ سبحانه ، إنما معناه سرعة الإيجاد فقط ؛ إنما الكاف « كاف الكون » والنور « نوره » .. جاء في الأحاديث : يا مُكُونُ كُلِّ شَيْءٍ ، يا مَكُونُ كُلِّ شَيْءٍ .

ولهذه الأسماء ، أعنى « افتحبحنين » و « يوناك » و « وقنطرون » و « استفتين » معانٍ مفهومة يعرفها مَنْ سمعها بالذوق والحالة ، فمعنى « افتحبحنين » افتح بحنين ! ومعنى « يوناك » المُلاطف في الخيل ، ومعنى « قنطرون » النَّهْمُ في قبول الواردات^(٤) ، ومعنى « استفتين » أنها عائشة زمانها . فإن قيل : إذا قلت إن « افتحبحنين » اسمُ الله الأعظم ،

(١) قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ ﴾ الأعراف / ١٩٦ .

(٢) سورة النحل ، آية ٤٠ .. وفي الأصول « إنما أمرنا لشيء » .

(٣) سورة التكويد ، آية ٢٩ .

(٤) الواردات : جمع « وارد » .. وهو كل ما يرد على القلب من المعاني من تعمل وتعمد

العبد (اصطلاحات الصوفية) .

فكيف يصحُّ أن يكون « افتح بحنين » معناه ؟ قلنا : هذا^(١) عرفناه ذوقاً ،
لأنَّا ذكرنا الله حتى وقع الذكر إلى القلب ، فكلما سكتنا عن الذكر سمعنا
من القلب صوتاً كالنفوق ، ثمَّ زاد حين قوى القلب من واردات العظمة
والكبرياء وحضوره مَحَاضِرِ الصفات الجلالية والجمالية ، وظهور الآيات
له ظاهراً وباطناً ، وعلى أيام الله^(٢) لما شرب من كل بحر حتى سَكِرَ^(٣)
- وكان سُكْرُهُ عطشاً إلى تلك العلى والكبرياء ، وصدر عنه حنينٌ - كلما
تذكر تلك العظمة والجلال - إلى اللقوق بها لعلُّ الهمة وقدره الطيران ،
كحنين الناقة والفرس . فهذا معنى « افتح بحنين » ؛ فعلى هذا ، تبين أن
الاسم الأعظم لكلِّ أحدٍ ، بقدر يقينه ومعرفته منازل الجلال ومَحَاضِرِ
الجمال .. قيل للرسول عليه السلام إن عيسى عليه السلام كان يمشى على
الماء ، فقال : لو زاد يقيناً لمشى على الهواء^(٤) .

[شجرة اليقين]

والتوكلُّ ثمرةُ اليقين ، والثمرةُ بقدرُ قُوَّةِ الشجرة . والتوكلُّ هو
الاعتماد على الحقِّ في الوعد والوعيد ، وأنه لا يفوته شيءٌ ، فلا يأسى^(٥)

(١) ب ، ج : ثم .

(٢) يقول الجبلى : أيام الحق هي تجلياته وظهوره بما تقتضيه من أنواع الكماليات ، ولكل تجلٍّ
من تجلياته سبحانه وتعالى حكمٌ إلهى هو المعبر عنه بالشأن الإلهى .. وقوله تعالى ﴿ للذين
لا يرجون أيام الله ﴾ يريد به الذين لا يرجون تجليه عليهم لأنهم ينكرون وجوده
(الإنسان الكامل ٦٣/١ ، ٦٤) .

وفي القرآن الكريم : ﴿ وذكرهم بأيام الله ﴾ إبراهيم / ٥ .

(٣) السكر هنا بمعنى النشوة الحادثة من تجليات الله .

(٤) حديث مشهور .

(٥) . . يتأسى ، والتصحيح من هامش ب .

بما يفوت عليه ، ولا يفرح بما يأتيه ، لِمَا ينظر إلى الأصل أنه المرید وأنه المُجَازى لكل صنيع ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۖ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾^(١) . فَمَنْ عامله بسوءٍ فيكُلُه إلى الله - لأنه العارف بقدر الجزاء - وإن أسدى إليه معروفًا كذلك ، بل أولى لرؤية الإحسان منه - وترجمة هذا كله ، قوله عَزَّ اسمه : ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ۖ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾^(٢) .

جاء في الحكاية ، أن رجلاً سلب عن رجل عمامته ، وهرب إلى العمارة^(٣) مُشْرِقًا^(٤) ، فجعل صاحب العمامة يعدو إلى المقابر مُعْرَبًا ! فقال له واحد من النظارة^(٥) : يا رجل ، إن الرجل الذى سلب عمامتك يعدو إلى العمارة مُشْرِقًا وأنت تعدو إلى المقابر مُعْرَبًا ؟! فقال : يا سليم القلب إلى أين يفر ؟ إنما أخذتُ عنه الرصد عليه ، فلا بُدَّ وأن يرجع إلى هذا المقام^(٦) ! وهذا ، إشارة إلى أن يكون مَفَرَّ القلوب الحَقُّ ، لأنه المرجع لما سواه ؛ قال الحَقُّ سبحانه وتعالى : ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾^(٧) .

(١) سورة الزلزلة / آية ٧ ، ٨ .

(٢) سورة الحديد / آية ٢٢ ، ٢٣ .

(٣) يقصد ؛ النواحي العامرة .

(٤) يعنى ؛ متجهًا إلى الشرق .

(٥) أى ؛ الذين نظروا إلى ما حدث .

(٦) + أ : حديقة الحقائق لسنائى (نشرة طهران ١٣٢٩ ص ٦٧٣) أورد هذه الحكاية وإن

بشكل غير هذا Georg Rosen ووجدتها الأستاذ هلموت ريتز في رسالة فلسفية محفوظة في

مكتبة آياصوفيا برقم ٤٨٣٣ ورقة ٤ أ .

(٧) سورة القصص ، آية ٨٨ .

ويدخل في التوكل : التفويض والتسليم والرضا والصبر والشكر^(١) ..
وهذه كلها أوراق وغصون على شجرة اليقين .

(١) التوكل والتفويض والتسليم والرضا والصبر والشكر ، مقامات صوفية معروفة ؛ وهناك فروق دقيقة بين بعضها ، ولذا سنتوقف عند مدلولاتها الصوفية فيما يلي :

(أ) التوكل : هو بداية المقام وصفة العوام من المؤمنين ، حيث يكون السكون إلى وعد الله مع إسقاط التدبير ، فصاحب هذه الدرجة إذا أعطى شكر ، وإذا منع صبر .
(ب) التسليم : وهو الدرجة الوسطى ، وصفة الخواص والأولياء ، حيث يكتفى العبد بعلم الله فيه ، ويكون المنع والعطاء عنده صنوان .

(جـ) التفويض : وهو نهاية درجات مقام التوكل ، وصفة خصوص الخصوص من أهل التوحيد . وفيه يكون المنع مع الشكر ، أحب إلى العبد مما سواه .

(د) الشكر : هو الاستعانة بالنعم على الطاعات ومواساة الفقراء ، وهو الاعتراف بالنعمة لمنزها الحق عز وجل . والشكر يكون ظاهرًا وباطنًا ، فهو باللسان والجوارح والقلب ، فشكر اللسان « الاعتراف بنعم الله » وشكر الجوارح « الحركة في طاعة الله » وشكر القلب « الاعتقاد بأن كل المنافع الظاهرة والباطنة من الله » .

(هـ) الصبر : هو الوقوف مع البلاء بحسن الأدب ، والثبات مع الله عز وجل وتلقى أمر قضائه بالرحب والسعة على أحكام الكتاب والسنة ، وهو رأس كل خير وأساس التوكل والإحسان والرضا والموافقة .

(و) الرضا : مقام أعلى من الصبر والشكر ؛ فالؤمن يصبر على أمر الله ، والصادق يشكر على قضائه والصدّيق يرضى ، والرضا ترك المنازعة للقدر ، وسرور القلب بمر القضاء ، وترك الاختيار مع الله . كان الإمام الجيلاني يقول لمريديه : ثم تحت ميازيب القدر !

.. بخصوص الأحوال والمقامات السابقة يمكن الرجوع إلى بحثنا (الطريق الصوفي ص ٨٢ وما بعدها) كما يمكن الرجوع لأقوال الصوفية حولها ، في : الرسالة القشيرية - التعرف - كشف المحجوب - اصطلاحات الصوفية .

[منتهى الذكر]

الذكر إذا وقع إلى السِّرِّ ، يكون الذكر عند سكوت السَّيَّار ، كأنه غُرْزُ الإبر في لسانه .. أو أن وجهه كُلُّه لسانٌ يذكر بنورٍ فائض عنه .

[منتهى السير]

السَّيَّار إذا صفا ، ونبت له يَدُ الهِمَّةِ ؛ يجد يدًا كلما غاب ، غير هذه اليد ، وهى يَدُ القلب ؛ فيها^(١) يأخذ في الغيب ويعطى في الغيب ويأكل في الغيب^(٢) .. وهى إذا نمت وقويت ، تمتد إلى الآيات^(٣) - بين يدي السَّيَّار - كأنه يأخذها .

وقد تطرأ عليه حالةٌ ، عند نهايات التحير ، أن في هذه اليد مقرعةٌ من نار ، وهى تضرب بها وجه الأرض والسماء ، كأنه يسفك دم الآيات - لشدة هجوم عساكر الآيات عليه ، وغلبة اليقين .

وقد تكون مقام المقروعة^(٤) ، قارورةٌ من نפט ، كأنه نَفَاطٌ يريد أن يحرق بها ما فى السماوات وما فى الأرض .. والسَّرُّ فى هذا ، أن السَّيَّار الصادق المخلص العاشق ، لا يحجبه شئ عن المقصود والمطلوب ؛

(١) أ : فيها .

(٢) الأصل فى مسألة « الأكل فى الغيب » هو ما روى عن النبى ﷺ حين قال : لستُ كأحدكم ، إني أبيت عند ربى يطعمنى ويسقنى .

(٣) المقصود بالآيات هنا : الدلائل الحسية والظواهر الشاهدة على عظمة الله .. وسوف يتضح هذا المعنى فيما سأتى من كلام الشيخ نجم الدين .

(٤) يقصد ؛ بدلاً منها .

فإذا نظر إليه ، حجبته الآيات والعلامات عنه^(١) . وقد شرب شراب الآيات والعلامات ، وسكر ، ثُمَّ عَرَبَدَ^(٢) ، ثُمَّ صحا من سكره ، ثُمَّ عاد سكراناً^(٣) ، ثُمَّ سئم عن شيءٍ تكرر عليه مرةً بعد أخرى ؛ فاقتضى صدقه وعشقه وإخلاصه ، طرد ما سواه^(٤) من الدلائل والآيات عليه ، وإن كانت هاديات إليه . لأن المرشد والدليل إنما يُطلب عند تعمية الطريق^(٥) إلى المطلوب ، أما إذا عُرف الطريق إليه ، بل عرفه ، حينئذٍ يكون الدليل والآية حجاباً يجب طرحه وطرده .. بل يكون الدليل حينئذٍ : عدو الأولياء^(٦) .

والحق - سبحانه وتعالى - محتجبٌ بالدلائل والآيات في عالم الغيب والشهادة ؛ أما في الغيب فبالآيات الباطنة ، وأما في عالم الشهادة فبالآيات الظاهرة . فإن عالم الشهادة مشتملٌ بنورٍ وظلمة ، وكلاهما حجابٌ ؛

(١) . عليه ؛ والضمير هنا عائد إلى المطلوب ، الذى هو الله عز وجل .

(٢) العريدة في اصطلاح الصوفية ، مرحلة يمر بها العاشق إذا امتلأ قلبه بالحب الإلهى - أو ارتوى بخمر المحبة - فهنا تكون العريدة في شكل الصياح الشديد أو التفوه بالعبارات المسماة « شطحات » وقد أشار اليافعى إلى « العريدة » بمعناها الصوفى ، في بيت شعري يعبر عن أحوال عاشقين قائلاً :

وبعض عن الأكوان بآن ، وبعضهم به جاوز الإسكار حذاً فعربدا

(٣) . سكران .

(٤) أى ؛ طرد ما سوى الله .

(٥) يقصد ؛ عدم وضوح الطريق .

(٦) راجع قصة لقاء الشيخ نجم الدين بفخر الدين الرازى في الدراسة الممهدة لهذا النص .

وكذلك عالم الغيب مشتمل بنور وظلمة ، وهما حجابان^(١) . إلا أن النور والظلمة في عالم الشهادة اسما « النور والظلمة » في عالم الغيب ، والنور والظلمة في عالم الغيب معنيان لهذين الاسمين في عالم الشهادة ؛ وهو معنى المعاني ، وروح الأرواح ، وقلب القلوب .. والدنيا - كذلك - اسم الآخرة ، والآخرة معنى الدنيا ؛ والآخرة - بمعانيها - اسم الحق سبحانه .

والسِّيَّارُ تزداد معرفته بظهور الآيات الغيبية ، ثم تزداد معرفته بفناء الآيات الغيبية في هواجم العظمة والكبرياء ، فتكون الآيات الظاهرة ؛ ويكون تجلّي الصفات والذات ، خوارق عنده بالنسبة إلى الآيات الغيبية .

ثم يستقيم ، حتى يصير الاسم والمعنى عنده سواء ، فيكون تحيُّره عند النظر إلى الآيات ، حسب تحيُّره في عالم الكشف عند النظر إلى الآيات الغيبية ، وكذلك عند تجلّي الصفات والذات ، إلا أنه يدري أن اليقين نبت عن المعنى - لا عن الاسم - فلا يزال يدعو تَحَلَّقَ اللَّهُ عَزَّ اسمَه إلى الآيات الغيبية ، ولا يندبهم إلى الآيات الظاهرة - وإن كانت عنده سواء - لعلمه أن يقينهم لا يزداد إلا بهذا الطريق .. والمقصود ؛ تحصيل اليقين ، وزيادة المعرفة .

[قاعدة ذوقية]

ولهذا ، لا تصحُّ^(٢) التربية والمشيخة ، إلا لمن سلك الطريق وأبصر المذموم والمحمود في الغيب ، وقاسى بلاء هواجم العظمة ، من الهيبة

(١) في الحديث الشريف : إن لله تعالى سبعين حجاباً من نور وظلمة ، لو كشفها لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره ..

(٢) يصح .

والموت والفناء . ولا يصح للمجذوب ، فإن المجذوب وإن ذاق المقصود ، ولكن لم يذق الطريق إلى المقصود ، فلم يصلح للتربية والمشيخة ؛ لأن التربية والمشيخة هما^(١) الدلالة والخفارة في الطريق^(٢) .

[التحير]

وإذا انتهى السَّيَّار إلى التحير^(٣) ، بعد قضاء وطره من الآيات الظاهرة والباطنة ، وتجلَّى الصفات والذات ؛ واشتدَّ شوقه إليه : صارت السماء والأرضُ حَبْسًا وسَجْنًا وبُثْرًا وصرحًا وقلعةً ، وهو محبوس فيها . كلما قصد ، عَلَّ^(٤) يجد مفراً ومخلصاً ومخرجاً تستقبله^(٥) الآيات والعلامات من السماء والأرض ، وما فيهما من كل شيء : نارٍ ونورٍ وحيوانٍ ونباتٍ وحَجَرٍ ومَدَرٍ^(٦) ، وما يخرج منها .. فتارة توافقه الآياتُ في التحير ،

(١) . هو .

(٢) الخفارة في اللغة : الحراسة .. والمراد بها هنا : حفظ نفوس المريدين من الآفات ورعاية سيرهم إلى الله .

وبخصوص الشروط الواجب توافرها في الشيخ المرئى ، وما يجب عليه تجاه المريد ؛ يمكن الرجوع إلى رأى الإمام عبد القادر الجيلانى فى بحثنا : الطريق الصوفى ص ٤٧ وما بعدها .

(٣) التحير ؛ حال صوفى يكون للكامل من الأولياء .. وترد هذه اللفظة كثيراً فى كلام الصوفية وأشعارهم ، ففى كلام ابن عربى « ما ثم إلا حيرة » وفى شعر ابن أبى الفارض :

زِدْنِي بِفَرْطِ الْحُبِّ فَيْكَ تَحْيِيرًا وَأَرْحَمِ حَشَا بِلَظَى هَوَاكَ تَسْعِرًا
(٤) . هل .

(٥) . مستقبله .

(٦) المدر ؛ قطع الطين اليابس (لسان العرب ٢/ ٤٥٤) .

وتارةً توافقه في الحزن حتى يحسّ منهمّ البكاء ، وتارةً تقول « هَلُمَّ إِلَيْهِ »
وتارةً يسمع من كل واحدة « تعالِ إِلَيَّ فانظرْ وعدّ ما فَيَّ من العجائب »
وكلُّها عجائب - ولو حشيشة على الأرض أو ذرّة في الهواء^(١) - وتارةً
ترداد غيرُ السَّيَّار وهِمَّتُهُ ، فتدخل الآيات فيه أو يدخل فيهنّ ، أو تنتشر
عليه كواكب السماء ، أو السماء تنزل عليه ، أو يذوق أن السماء في
صدره ، أو يرى أنه فوق السماء ومع ذلك ينظر إلى الأرض ، فربما تصير
الأرض منادمة له ، فتقول : انظرْ إِلَيَّ ، وما فَيَّ من العجائب ، وكيف
أكرمك الله أن تمشي من فوق وأنا أُمُك ، وأنا أكبر منك ؛ وعلى ماذا أنا
قائمة ؟ وتارةً تصير مثل البحر تموج بين يديه ، وكأنه على وجه الماء لم
يغرق ؛ إنما تتمثل بحراً إذا لم يسمع إلى كلامها ، أو سمع إلى حَدِّ يتحير .
ولا يزال ينظر إليها ، إلى أن يخرج عليه سُكَّان الأرض من
الروحانيين ، فيحملون عليه ، لكنه يتحصَّن بحصن الصدق والإخلاص
فلا يظفرون عليه .. وفي العاقبة ، تنفى الأرض في دائرة القدرة .
فالمقصود ، أنه إذا اشتدَّت غيرُ السَّيَّار وعلَّتْ هِمَّتُهُ ، حلَّ له الضرب

(١) يتفق ما يتحدث عنه الشيخ هنا مع ما اكتشفه العلماء مؤخراً بعد ظهور تخصُّص
الطبيعيات الدقيقة (ميكرو فيزياء) حيث أمكن مشاهدة ما هو داخل الذرات من عوالم
متحركة مليئة بالصور العجيبة .

والخيرة التي يتحدث عنها الشيخ نجم الدين هنا ، وصل إليها علماء الطبيعيات
المعاصرة ، حين اكتشفوا أن قوام المادة هو جزيئات نشطة تتحرك بسرعة رهيبية ولا يمكن
التنبؤ بمساراتها ، وهو ما صاغه « هيزنبرج » تحت اسم : مبدأ اللاتحديد . انظر ؛
د / ماهر عبد القادر : فلسفة العلوم ، المشكلات المعرفية (بيروت)
ص ١٥٢ وما بعدها .

في وجوه الآيات والعلامات - من طريق الحالة لا من طريق العلم والاختيار - وذلك الضرب بيد الهمة ، لا بيد الجثة .

[مقامات لا محدودة]

ثُمَّ لهذه الحالة بدايات ونهايات ؛ فالبداية المنام ، ثم الواقعة - وهي بين اليقظة والمنام - ثُمَّ الحالة ، ثُمَّ غلبات الوجد والوجدان ، ثُمَّ مشاهدة القدرة ، ثُمَّ الاتصاف بها ، ثُمَّ التكوين بعدها كلها .. ولو أخذنا في تفصيل ما وجدته السَّيَّارُ في سيره ، لضاق البياض عن تحريرها ؛ لأن كَشَفَ الآيات نَعْمَ الحق - سبحانه - ظاهراً وباطناً ، وهو مما لا يعدُّ ولا يُحصى ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا﴾^(١) .

وإن كان السَّيَّارُ ، يصل إلى مقام يقال له « قِفْ » لا من طريق الحرف والصوت ، بل من طريق الوصل والفصل . ومعنى قولنا « من طريق الوصل والفصل » وصولُ السَّيَّارِ إلى جَنَابِ عِزَّةِ الوجدانية ، وانفصاله عن أحكام البشرية ؛ وذلك أَمْرٌ لا يطيقه البشر ، بل لا تطيق الألسن وصفها .. ففيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطرَ على قلب بشر^(٢) .

(١) سورة إبراهيم ، آية ٣٤ .

(٢) عبارة نبوية مشهورة في وصف الجنة . راجع نص الحديث في : البخارى ، بدء الخلق ٨ ، تفسير ٣٢ ، توحيد ٣٥ ، مسلم ، الإيمان ٣١٢ ، الجنة ٢ - ٥ . والترمذى ، تفسير ٣٢ ، ٥٦ . وابن ماجه ، الزهد ٣٩ ، وابن حنبل ، المسند ٢٣٤/٥ .

لَقَدْ طُفْتُ فِي تِلْكَ الْمَعَاهِدِ^(١) كُلِّهَا
وَصَيَّرْتُ طَرْفِي بَيْنَ تِلْكَ الْمَعَالِمِ
فَلَمْ أَرَ إِلَّا وَاضِعًا كَفَّ حَائِرٍ
عَلَى ذَقْنٍ أَوْ قَارِعًا سِنَّ نَادِمٍ^(٢)
[الطويل]

فلا ينقطع رُسْلُ الحقِّ سبحانه عنه ، والعياذ بالله ! بل تأتية في كل
حين وزمان .. وهى أَلطافه وتنبهاته وإشاراته .

[ختام]

فما ذكرنا من الآيات والإشارات والعلامات ، نتأججُ معاملة العبد
المعبود - من المذموم والمحمود - وأحكامُ صحبته إياه . وهى كالأنموذج
للقاصدين إلى الله سبحانه وتعالى ، ليعلموا ذوقَ الدائقين ، وعشقَ
العاشقين ، ونورَ العارفين ، ونارَ المحبين ، وسرعةَ المشتاقين ، ووجدَ
الواجدين ، وثمراتِ المكاشفين ، وكَشَفَ المجاهدين ، وأسرارَ المناجين ،
وأسلوبَ الناجين .

(١) المعاهد : جمع « معهد » وهو الموضع الذى عهدته أو عهدت هوى لك فيه أو كنت
تعهد به شيئاً (لسان العرب ٩١٥/٢) .

(٢) + أ : أورد هذين البيتين أبو الفتح الشهرستانى فى كتاب نهاية الإقدام (طبعة
اكسفورد ص ٣) دون أن يذكر اسم من قالهما . ويقول ابن خلكان فى كتاب
« وفيات الأعيان » فى ترجمة الشهرستانى إنهما ينسبان فى بعض المصادر إلى أبى بكر محمد
ابن ماجه المعروف بابن الصائغ الأندلسى المتوفى سنة ٥٣٣ أو ٥٢٥ هـ . وعمر بن قاسم
فى كتابه « روض الأخبار » ينسبهما إلى الشهرستانى .

وسميَّت الكتاب « فوائح الجمال وفوائح الجلال » تذكرةً للمنقطعين
إلى الله تعالى ، وتبصرةً للمخلصين .

وأسأَلُ اللَّهَ العَفْوَ والعَافِيَةَ في الدنيا والآخرة ، والمَغْفِرَةَ والرحمةَ لجميع
أُمَّةِ مُحَمَّدٍ عليه السلام ، ولمن قال « لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ مُحَمَّدٌ رَسولُ اللَّهِ »
والهدايةَ لجميع خَلْقِهِ .. إنه الكَرِيمُ المَنَّانُ ، المَجِيدُ الحَنَّانُ . والحمد لله ،
وسلامٌ على عباده الذين اصطفى .

★ ★ ★

فهارس التحقيق^(*)

- فهرس الآيات القرآنية
- فهرس الأحاديث الشريفة والقدسية
- فهرس الأعلام
- فهرس المفردات
- فهرس القوافي
- فهرس المواضع
- فهرس المواضيع

(*) الأرقام الواردة بين القوسين ، تشير إلى هوامش النص المحقق .

فهرس الآيات القرآنية

[أ]

- أخذتهم الصيحة والرجفة ٢٢٦
- إذ أبق إلى الفلك (١٤١)
- الحى القيوم ٢٠٩
- إلا من أقى الله ٢٢٩
- ألسن بربكم ١٣٨
- الله الذى خلق سبع سموات ٢٠٣
- الله لا إله إلا هو ٢٣٩
- الله الواحد القهار ٢٢٦
- الله نور السموات والأرض ١٧٢
- الله يتوفى الأنفس (١٣٠ - ١٤٩)
- ألم تروا كيف خلق الله ٢٠٣
- إن هذا هو الحق ٢٤٩
- إنما قولنا لشيء ٢٥١ (١٥٩)
- إني جاعل فى الأرض خليفة ٢٣٣

[ت]

- تسبح له السموات السبع (٢٠٣)

[ث]

- ثم استوى على العرش (٢٠٥)
- ثم استوى إلى السماء (٢٠٣)
- ثم قست قلوبكم (٢١٩)

[خ]

- خلافت الأرض ٢٣٣

[ش]

١٨٨ - شديد العقاب ذى الطول

[ظ]

١٢٨ - ظلمات بعضها فوق بعض

[ع]

(١٣٧) - عليها ملائكة غلاظ

[غ]

(١٨٨) - غافر الذنب

[ف]

(٢١٩) - فاتقوا النار

٢٢٧ - فاستقم كما أمرت

(١٨٥) - فألهمها فجورها وتقواها

(١٤١) - فبعضتك لأغوينهم

٢٥٣ - فمن يعمل مثقال ذرة

[ق]

٢٠٢ - قل الروح من أمر ربي

(٢٠٣) - قل من رب السموات

(٢١٩) - قوا أنفسكم وأهليكم نارا

[ك]

٢٥٣ - ٢٢٥ - ١٩٧ - كل شيء هالك إلا وجهه

[ل]

- لا أقسم بيوم القيامة (١٧٢)
- لا تبقى ولا تذر ١٢٧
- لترونها عين اليقين (٢٤٩)
- لقد كنت فى غفلة (١٣٠)
- للذين لا يرجون أيام الله (٢٥٢)
- لمن الملك اليوم ٢٢٥
- لو تعلمون علم اليقين (٢٤٩)

[م]

- ما أصاب من مصيبة ٢٥٣
- مرج البحرين يلتقيان ٢٢٨
- من كان يريد العزة ١٧٢

[ن]

- نور على نور ١٢٧ - ١٦٨

[و]

- وألقيت عليك محبة منى ٢٤٠
- واعتصموا بحبل الله (١٩٩)
- وإلهكم إله واحد ١٣٦
- وإن تعدوا نعمت الله ٢٦٠
- وبشر الصابرين ٢٢٧
- وترى الجبال ١٢٩ - ١٩٢
- وجعلنا لهم سمعا ١٢٢
- وذكرهم بأيام الله ٢٥٢
- وكان بالمومنين رحيمًا ٢٠٥
- وعلم آدم الأسماء ١٣٨

- وكلا نقص عليك ٢٢٦
- ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ١٧٢
- وما أبرئ نفسي (١٦٢)
- وما تشاءون إلا أن يشاء الله ٢٥١
- ومن كل شيء خلقنا ٢٢٤
- ونفخ في الصور (٢٢٦)
- وهو القاهر فوق عباده ٢٣٨
- وهو يتولى الصالحين ٢٥١
- ويجعلكم خلفاء ٢٣٣
- ويسبح الرعد بحمده (٢٢٩)

[ي]

- يا أيها النفس المطمئنة (١٦٢)

فهرس الأحاديث

[أ]

- الإيمان عريان ٢٤٢
- الإيمان بمان (١٧٤)
- الخوف والرجاء جناحا الإيمان ١٨٧
- اللهم اغسلني بماء الثلج والبرد ٢١٧
- الوضوء سلاح المؤمن (١٢٤)
- املك عليك لسانك (١٢٤)
- إن الشيطان يجرى (١٢٣)
- إن لله سبعين حجاً (٢٥٧)
- انى أبيت عند ربي (١٤٩)

[ب]

- بنى الإسلام على خمس ٢٢٥

[ح]

- حُب إلى من دنياكم (٢١٨)

[ش]

- شيتنى سورة هود وأخواتها ٢٢٧

[ص]

- الصراط أدق من الشعرة ١٨٧

[ع]

- عرفت ربي برى (١٥٩)

[ف]

- فيها ما لا عين رأت (٢٦٠)

[ك]

- كأن نبلهم (٢٠٧)

- كذب من ادعى محبتي (قدسى) ١٧٧

[ل]

- لا يكمل إيمان أحدكم ٢٣٢

- لست كأحدكم ٢٥٥

- لكل امرئ شيطان (١٨٥)

- لو تقدمت شيراً (١٦٣)

[م]

- ما زال عبدى يتقرب إلى (قدسى) (١٥٠ - ١٦٧) - ٢٠٥
- من أخلص لله (٢١٢)
- من رآنى فى المنام (١٥٢)
- من سره أن يسلم (١٢٤)
- من صافح عليا دخل الجنة ١٣٨

[هـ]

- هم القوم لا يشقى بهم جليس ١٨٦

[ى]

- يا مكوّن كل شيء ٢٥١
- يا موسى إنا كلمناك (قدسى) ٢٢٦
- ينزل الحق تعالى (١٣٧)

فهرس الأعلام

[أ]

- إبراهيم حلمى القادري (١٤٤)
- ابن سيرين (١٥٢ - ١٥١)
- ابن سينا (١٦١ - ١٣٠)
- ابن عربى (٢٠٤ - ١٤٠)
- ابن الفارض (٢١١)
- ابن الفرغانى (١٧٠)
- أبو بكر الواسطى ١٦٩
- أبو الجنا ب ٢٤١
- أبو الحسن الخرقانى (١٤٠)

- أبو الحسين النورى ١٩٢
- أبو ثور (١٢٤)
- أبو محمد النيسابورى (١٩٨)
- أبو النجيب (انظر : سهروردى)
- أبو نعيم الأصفهاني (١٤٧)
- إخوان الصفا (١٥٧)
- أرطميدوس (١٥٢ - ١٥١)
- إسرائيل ٢٢٨
- استفتين ٢٥١ - ٢٤٠

[ب]

- البحتري (١٩٨)
- البسطامي ٢٤٧ - (٢٠٦ - ١٥٤)
- بنفشه ٢٤٠
- البوصيري (١٤١)

[ت]

- التهانوى (١٥٢)

[ج]

- الجنيد ١٢٥ - ١٢٤ (١٣٢) ١٨٠ - ١٩١ -
- ١٩٢ - ٢٠٢ - ٢١٣ - ٢٣٠
- الجيلاني (٢٥٨ - ٢٤٣ - ٢٣٢ - ١٧٦ - ١٣٩)
- الجيلي (١٤٠ - ١٤٣ - ١٦٧ - ١٧٠ -
- ١٧٦ - ٢٠١)

[ح]

- الحافظ السلفى ٢٤١
- الحضرمى ١٤٧
- الحلاج (حسين بن منصور) (١٤٧) ١٧٩ - ١٨٢ (١٩٧ - ٢٤٢)
- حنين بن إسحاق (١٥١)
- حى بن يقطان (١٦١)

[ر]

- رابعة العدوية ١٢٥
- الرسول (ﷺ) ١٤٤ - ٢٠٥ - ٢٤١
- روزبهان (١٧٩)

[ز]

- الزبير ١٥٣ - ١٦٠

[س]

- السلمى (١٢٤)
- سمون المحب ١٧٧
- سنائى (١٤٣)
- السهروردى (أبو حفص) (٢١٢ - ١٢٣)
- السهروردى (أبو النجيب) ٢١٣ - ٢٢٩
- السهروردى (الاشرافى) (١٣٠)
- سهل التستري ١٢٣ - ٢٢٣ - ٢٢٧

[ع]

- عبد الرحمن جامى (١٤٧)
- عبد القادر الجيلانى (انظر الجيلانى)
- عبد الهادى السودى (٢٠٤)
- عزازيل ٢٤٢
- عمار (البدلىسى) ٢١٢ - ٢٣٧ - (٢٥٠)
- عيسى (عليه السلام) ١٤٣ - ١٥٨

[غ]

- الغزالي (١٢٣ - ١٤٣ - ١٦١)

[ف]

- فرويد (١٥٢)

- فريد الدين العطار (١٢١)

[ق]

- القاشاني (١٤٣ - ١٥٩ - ٢٠٠)

- القشيري (١٩٨)

- قنطرون ٢٤١ - ٢٥١

[م]

- مجد الدين البغدادي (١٤٧)

- المكي (أبو طالب) (١٤٣)

- موسى ، عليه السلام ٢٢٦

[ن]

- النابلسي (١٥١)

[هـ]

- الهجویری (١٩٨)

- الهمداني (١٤٠)

[ی]

- اليافعي (٢٥٦)

- يوسف ، عليه السلام ١٣٣

- یوناق ٢٤٢ - ٢٥١

فهرس المفردات

[أ]

٢١٩ آبار الطبيعة
٢٤٦ إجابة الدعوة
٢٥٣ - ٢٤٦ إحسان
٢٥٠ إحضار
٢٠٨ - ١٤٢ إخلاص
١٦٦ أرباب القلوب
٢١٢ أربعينية
٢١٩ - ٢١٨ - ١٥٧ - ١٢٨ أركان
٢٣٧ - ٢٣٦ - ٢٠١ أرواح
١٩٣ - ١٥٨ - ١٥٧ - ١٥٥ - ١٣٠ استغراق
٢٥٠ - ٢٤٥ - ٢١٤ - ٢٠٦	
١٨٠ استهلاك
٢٠١ استواء
٢٠٥ - ٢٠٣ - ٢٠٢ - ٢٠١ أسرار الحروف
٢٢٩ - ٢٢٨ - ٢٢٤ - ٢٢٣ - ١٧٦ الاسم الأعظم
٢٥١ - ٢٤٨ - ٢٤٧ - ٢٤٠ - ٢٣١	
١٢٢ أغيار
١٣٩ - ١٣٨ إلهام
٢١٢ - ٢٠٦ - ١٩٤ - ١٩٣ - ١٨٧ أنس
٢٤٩ - ٢٣٠	
٢٥٢ - ٢٢٦ أيام الله
٢٢٩ - ١٢٣ إيوان

[ب]

٢٣٨ بروج
٢١٩ بروج الوجود
(١٣٢) بروق
١٩٢ - ١٩٠ - ١٨٩ - ١٨٨ - ١٨٧ بسط
٢٤٩ - ٢٣١ - ١٩٣	
٢٣٦ - ٢٠٧ - ١٧١ - ١٤٩ - ١٣١ بصيرة
١٩٥ - ١٩٤ - ١٨٧ - ١٨٥ بقاء

[ت]

(١٧٠) تثليث
٢٤٩ تجريد
٢٥١ - ١٦٧ - ١٦٢ تحلى
٢٥١ - ١٦٢ تحلى
٢٥٤ تسليم
٢٣٨ - ١٩٩ تصرف
٢٠٠ تفرقة
٢٤٩ تفريد
٢٥٤ تفويض
١٤٧ - ١٤٦ تكليف
٢٤٨ - ١٩٩ تكوين
٢٤٨ - ١٩٣ - ١٨٩ - ١٨٨ - ١٣١ تلوين
٢٤٨ - ١٩٣ - ١٨٨ - ١٣٢ تمكين
٢٤٩ توحيد
٢٥٤ توكل
٢٥١ تولى

[ج]

- ١٣٢ جبل قاف -
- ٢٣٥ الجدى -
- ١٦٩ الجذب -
- ٢٠٠ - ١٦٧ جمعية -
- ٢٠٠ جمعية الجمعية -
- ٢١٨ - ٢١٧ جمود -
- ٢٣٢ جنون -
- ١٢٣ جوع -
- ٢١٧ الجوع الكلبى -

[ح]

- ١٩٢ - ١٨٦ - ١٨٥ - ١٣٤ - ١٣١ حال (أحوال) -
- ٢١٨ - ٢٠٥ - ١٩٧
- ٧٥٦ - ٢٣١ - ٢١٤ - ٢٠٨ - ١٧١ حجاب (حُجَب) -
- ٢٥٧
- ١٤٨ حزب -
- ٢٣١ - ٢٣٠ حزن -
- ٢٠٨ حضرة -
- ٢٢٣ حضرة الهوى -
- ٢٥٠ - ٢٢٨ - ٢٢٠ - ١٦٠ حضور -
- ٢٤٩ حق اليقين -
- ١٤٧ حلولى -
- ٢٠٠ حواس الغيب -
- ٢١٠ حواس القلب -
- ٢٥٨ - ٢٥٧ - ٢٥٥ - ١٧٩ حيرة (تَحِيرُ) -

[خ]

- ١٤٣ - ١٤١ - ١٣٨ - ١٣٧ - ١٢٥ - خاطر (خواطر)
- ٢٢٠ - ١٤٥ - ١٤٤
- ٢٤٣ - خرابات
- ٢٤٢ - خرقة الصوفية
- ٢١١ - خلع العذار
- ١٦٤ - ١٥٦ - ١٥٥ - ١٣٧ (١٢٤) - خلوة
- ٢١٣ - ٢١٢ - ٢١١ - ٢١٠ - ٢٠٧
- ٢٤٧ - ٢٣٥ - ٢٢٠
- ٢١٨ - ٢١٧ - خمود
- ٢٤٩ - ١٩٤ - ١٨٩ - ١٨٨ - ١٨٥ - الخيوف (والرجاء)

[د]

- ١٧٢ - ١٧٠ - ١٦٥ - ١٦٤ - ١٦٣ - الدوائر
- ٢٥٩ - ٢٠٥ - ٢٠٣ - ١٧٣

[ذ]

- ١٤٢ - ١٣٧ - ١٣٣ - ١٢٨ - ١٢٧ - ذكر (أذكار)
- ١٥٩ - ١٥٨ - ١٥٧ - ١٥٦ - ١٥٥
- ٢٠٩ - ٢٠٧ - ١٧١ - ١٦١ - ١٦٠
- ٢٢٣ - ٢٢٠ - ٢١٤ - ٢١٣ - ٢١٢
- ٢٥٥ - ٢٥٢ - ٢٥٠ - ٢٢٨
- ١٥٥ - ذكر الوجود
- ١٩٩ - ١٤٩ - ١٤٥ - ١٣٨ - ١٣١ - ذوق

[ر]

- ١٤٤ - رابطة

١٥٢ رقباء الغيب
١٦٤ - ١٥٩ روح القدس
	[ز]
١٧٤ زحل
١٧٥ الزهرة
	[س]
٢٣٦ سبل
١٩٩ - ١٨٣ - ١٧٤ - ١٦٠ - ١٥٩ سر (أسرار)
٢٤٣ - ٢٤٢ - ٢٣٧ - ٢٢٨ - ٢٠١	
٢٥٥	
١٨٥ سفر
١٥٢ سفسطى (= سوفسطائى)
١٢٩ سفينة
٢٥٦ - ٢٥٢ سكر
١٣٦ سكينه
١٩٢ - ١٩١ سماع
١٧٤ سهيل
(١٣٢) سواطع
١٣٩ - ١٣٦ - ١٣٥ - ١٣١ - ١٢٧ سيار
١٧١ - ١٦٠ - ١٥٩ - ١٥٤ - ١٥٠	
١٧٨ - ١٧٦ - ١٧٥ - ١٧٣ - ١٧٢	
١٨٩ - ١٨٨ - ١٨٧ - ١٨٥ - ١٧٩	
٢٠٦ - ٢٠٣ - ٢٠٢ - ١٩٩ - ١٩٨	
٢١٧ - ٢١٤ - ٢١٢ - ٢٠٩ - ٢٠٨	
٢٣١ - ٢٣٠ - ٢٢٨ - ٢٢٦ - ٢١٩	
٢٤٦ - ٢٤٥ - ٢٤٤ - ٢٤٠ - ٢٣٨	
٢٥٩ - ٢٥٧ - ٢٥٥ - ٢٥١ - ٢٤٨	
٢٦٠	

[ش]

٢٥٦ شطح
٢٠٧ - ١٩٧ - ١٩٥ شوق
٢٤٧ - ١٧٧ الشونيزية
١٥٥ - ١٤٦ - ١٤٥ - ١٤٤ - ١٢٣ شيخ
٢١١ - ٢١٠ - ٢٠٨ - ١٨٧ - ١٦٤	
٢٣٠	
١٧٢ - ١٧١ شيخ الغيب

[ص]

(٢٠٤) ١٩٥ صحو
١٨٣ الصفة
٢٢٦ - ١٥٨ صعق
(١٢٤) صمت

[ط]

١٨٨ طيار
-----	------------

[ظ]

١٢٢ ظلام الوجود
-----	-------------------

[ع]

٢٢٨ عالم الحدوث
(١٧٤) عالم النذر
١٦٥ - ١٥٠ - ١٣٩ - ١٣٥ - ١٣٣ عالم الشهادة
٢٥٦ - ٢٢٠ - ٢١٤ - ١٧٨ - ١٧٦	
٢٥٧	

٢٥٧ - ٢٥٦ - ١٧٨ - ١٧٦ عالم الغيب
٢٢٨ عالم القدم
١٥٠ عامى
٢٥٠ عبادة
٢٥٠ عبودة
٢٥٠ عبودية
٢٥٦ عريدة
٢٢٠ - ٢٠١ - ٢٠٠ عرش
١٢٥ عرش الشيطان
١٩٦ - ١٩٥ عرفان
٢٤٤ عصمة
١٩٨ - ١٨٣ - ١٨٢ - ١٨١ - ١٣٤ عشق
٢٠٧	
١٧٥ عطارد
١٥١ علم التعبير
٢٤٩ علم اليقين
٢٤٩ عين اليقين

[غ]

١٦٤ - ١٦٣ - ١٦٠ - ١٥٩ - ١٤٤ غيب (غيبة)
٢٣٥ - ٢١٩ - ٢٠٥ - ١٧٤ - ١٧٢	
٢٥٠ - ٢٤٢ - ٢٤٠ - ٢٣٩ - ٢٣٨	
٢٥٥	

[ف]

٢٣٢ فراسة
١٩٥ - ١٩٤ - ١٨٣ - ١٧٨ - ١٥٨ فناء
٢٤٨ - ٢٤٥ - ٢٣٢ - ٢٢٥ - ٢٠٠	
٢٥٨ - ٢٥٠ - ٢٤٩	

[ق]

- ١٩٣ - ١٩٠ - ١٨٩ - ١٨٨ - ١٨٧ قبض -
 ٢٤٩
 ١٧٦ قدرة -
 ١٣٣ القدم والحدوث -
 ١٤٦ - ١٤١ - ١٣٩ - ١٣٣ - ١٣٢ قلب -
 ٢٢٠ - ٢٠٩ - ٢٠١ - ٢٠٠ - ١٨٦
 ٢٥٢ - ٢٢٨ ٢٢٧ - ٢٢٥ -
 ٢٣٥ القوس -

[ك]

- ٢٤٥ - ١٤١ كرامات -
 ١٤٩ كشف الغطاء -
 ١٢٩ كيمياء -

[ل]

- ٢٢١ لسان الحال -
 ١٥٩ - ١٣٣ - ١٣٢ لطيفة -
 ١٣٥ اللعل -
 (١٣٢) لوامع -

[م]

- ١٥٢ - ١٦٤ - ١٣١ (١٢٣) ١٢٢ مجاهدة -
 ٢٤٨
 ٢٥٨ مجذوب -
 ٢٥٢ - ١٦٧ - ١٦٦ - ١٥٩ محاضر -

١٩٥ المحو والإثبات
١٥٢ مرابطة
١٩٨ مراقبة
٢٢٠ مرآة القلب
٢٤٢ مرقعة
١٢٢ - ١٤٤ - ١٤٥ مرید
١٢٥ - ١٣١ - ١٣٤ - ١٤٩ - ١٥٠ مشاهدة
١٦٣ - ١٦٥ - ١٦٧ - ١٦٨ - ٢١٠	
٢٤٩	
١٧٥ المشتري
١٣٥ - ١٣٦ - ١٤٢ - ١٥٦ - ١٨٥ مقام
١٨٦ - ١٩٧ - ٢٠٥ - ٢١٤ - ٢٢٧	
٢٦٠	
١٧١ المقدم
١٦٣ - ١٨٦ - ٢٥٢ منزل (منازل)
١٢١ منطق الطير
١٣٠ - ١٧٥ - ١٧٨ - ٢٠٨ - ٢٢٦ موت
٢٥٨	
١٨٧ ميزان
١٧١ ميزان الغيب

[ن]

٢١٨ - ٢١٩ ندم
١٧٨ نرفانا
٢٢٦ نفخ الصور
١٧١ - ١٨٥ - ١٨٦ - ٢٠٩ - ٢٤٣ نفس
١٦١ - ١٦٢ نفس أمارة
١٦١ - ١٦٢ - ١٨٥ نفس لوامة

٢٢٧ - ١٨٥ - ١٦٣ - ١٦١	نفس مطمئنة
١٨٦ - ١٨٣ - ١٧١ - ١٧٠ - ١٦٨	نور (أنوار)
٢٤٤	نيران الشيطنة
٢١٧	النيران المذمومة
٢٤٤	نيران الهوى
٢١١	نيرة

[هـ]

- ١٦٤ - ١٥٠ (١٤٤) ١٤٣ - ١٣١	همة
١٩٨ - ١٨٣ - ١٨١ - ١٧٦ - ١٧٥		
٢٣٧ - ٢٢٨ - ٢٢٠ - ٢٠٠ - ١٩٩		
٢٥٩ - ٢٥٥ - ٢٥٢		
٢٣٢ - ٢٢٥ - ١٧٦	هوية
١٩٣ - ١٩١ - ١٩٠ - ١٨٧ - ١٨٦	هئية
٢٤٩ - ٢٢٦ - ٢٠٨ - ٢٠٦ - ١٩٤		
٢٥٧		
١٥٩	هيمان

[و]

- ٢٥٧ - ٢٠٧ (٢٠٤) ١٥٧ - ١٥٤	واردات
٢٥٢		
٢٦٠ - ١٦٤	واقعات
٢٤١ - ١٤٨	وَرْد
١٩٧ - ١٨٥	وقت
٢١٠	وهم

[ى]

٢٥٥	يد القلب
٢٦٠ - ٢٥٥	يد الهمة

فهرس القوافي

[ت]

- قتلت غلام .. سفينتي (١٤٢)

[د]

- وبعض عن الأكوان .. فعريدا (٢٥٦)

[ر]

- زدني .. ئسَّعْرا (٢٥٨)

[ل]

- إن الكلام .. دليلا ٢٤٧

- ومن يك .. الزلالا (١٤٦)

- ما زلت .. نزوله (١٩٢)

[م]

- لقد طفت .. المعالم ٢٦١

- والنفس كالطفل .. ينفطم (١٤٢)

[ن]

- أحب على .. وإحسانها ١٩٨

- أنا من أهوى .. أنا ١٩٧

- عجبت منك .. عني ١٨٢

فهرس المواضع

[أ]

الإسكندرية ٢٤١ -

[ب]

بلاد المغرب ٢٢٠ -

[ت]

تركستان (١٧٠) -

[خ]

خيوق (١٢١) -

[ك]

كربلاء ٢٣١ -

فهرس المواضع

حقائق صوفية ١٢١ -

اختبار روى ١٢٢ -

طرق المجاهدة ١٢٢ -

فروق ١٢٥ -

نيران الذكر ١٢٧ -

رموز وجودية ١٢٨ -

مشاهدات عروجية ١٣٠ -

القلب والقلب ١٣٢ -

مراتب الوجود ١٣٤ -

مشهد ١٣٦ -

معاينة ١٣٦ -

١٣٧ الخواطر	-
١٣٨ معاينة	-
١٣٩ وصل	-
١٤٠ معاينة	-
١٤١ وصل	-
١٤٣ رواية	-
١٤٣ معاينة	-
١٤٥ وصل	-
١٤٦ مسألة	-
١٤٧ رواية	-
١٤٩ فصل: في تبديل الذوق	-
١٥٥ فصل: في الاستغراق	-
١٥٥ معاينة	-
١٥٦ إشارة	-
١٥٦ وصل	-
١٥٧ الاستغراق الثاني	-
١٥٩ الاستغراق الثالث	-
١٦١ مراتب النفس	-
١٦٤ معاينة	-
١٦٤ تفسير	-
١٦٥ تفسير آخر	-
١٦٥ طبقات المشاهدة	-
١٦٦ المحاضر الربانية	-
١٦٨ سر السير والجذب	-
١٦٩ إشارة	-
١٧٠ وصل	-
١٧١ حقيقة	-
١٧٢ أنوار	-
١٧٢ شيخ الغيب	-

١٧٣	- كتب الغيب
١٧٤	- مشاهدات
١٧٦	- الاسم الأعظم
١٧٧	- كرامات
١٧٨	- المحبة والفناء
١٨٠	- من المحبة إلى العشق
١٨٢	- تذكّر
١٨٣	- عود للمحبة والعشق
١٨٥	- فصل : ما الفرق بين الحال والمقام والوقت ؟
١٩١	- أقوال وأحوال
١٩٥	- الشوق
١٩٧	- إجمال
١٩٧	- تفصيل
١٩٩	- بيان أمر الهمة
٢٠٣	- مسألة : في أسرار الحروف
٢٠٥	- معينات
٢٠٥	- إشارة
٢٠٥	- عود للعين
٢٠٧	- مسألة : في مراق الذكّر
٢٠٨	- معانية
٢٠٩	- عود إلى مراق الذكّر
٢١٠	- أسرار الخلوة
٢١٤	- أسرار الذكّر
٢١٧	- فصل : الجمود والحمود في طريق القوم
٢٢٠	- حكاية غريبة
٢٢٣	- فصل : في اسم الله
٢٢٦	- كلام الله
٢٢٧	- عود لكلام التستري

٢٢٨	صبيحة المساء
٢٣٠	الأنس بالحزن
٢٣١	أحوال
٢٣٥	فصل : مشاهدات كرنية
٢٣٥	معاناة
٢٣٦	تزاور الأرواح
٢٣٧	واقعة
٢٣٧	عود للكونيات
٢٣٨	معانات
٢٤٠	تسميات غيبية
٢٤٢	خرقة الصوفية
٢٤٣	النفس والعصمة
٢٤٥	علامات الولاية
٢٤٧	عود للاسم الأعظم
٢٤٨	حصول الولاية
٢٥٢	شجرة اليقين
٢٥٥	منتهى الذكر
٢٥٥	منتهى السير
٢٥٧	قاعدة ذوقية
٢٥٨	التحير
٢٦٠	مقامات لا محدودة
٢٦١	ختام

مراجع التحقيق ومصادر الدراسة

- ١ - إبراهيم حلمى القادري : مدارج الحقيقة فى الرابطة عند أهل الطريقة
(نشرة مطبعة عادل البهى - الإسكندرية
١٣٨١هـ).
- ٢ - ابن الأثير : الكامل فى التاريخ (نشرة تورنبرج - بريل
١٨٥٣م).
- ٣ - أدي شير : معجم الألفاظ الفارسية المعربة (مكتبة لبنان -
بيروت ١٩٨٠م).
- ٤ - أرطيميدوس : تعبير الرؤيا - ترجمة حنين بن إسحاق ، نشرة
الدكتور الحفنى (دار الرشاد - الطبعة الأولى).
- ٥ - إسماعيل القادري : الفيوضات الربانية فى المآثر والأوراد القادرية
(مطبعة المشهد الحسينى - القاهرة، بدون تاريخ)
- ٦ - الأسنوى (جمال الدين) : طبقات الشافعية (ديوان الأوقاف - بغداد
١٩٧١م).
- ٧ - الأصبهاني (أبو نعيم) : حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (دار الكتاب
العربى - بيروت ، الطبعة الرابعة) .
- ٨ - بدوى (د. عبد الرحمن) : شطحات الصوفية (وكالة المطبوعات -
الكويت ، الطبعة الثانية)
- ٩ - البروسوى (إسماعيل حقى) : روح البيان فى تفسير القرآن (استانبول
١٢٨٧ هجرية) .
- ١٠ - البغدادي (إسماعيل باشا) : إيضاح المكنون (استانبول ١٩٤٧م)
- ١١ - هدية العارفين فى أسماء المؤلفين والمصنفين
(استانبول ١٩٤٧م)
- ١٢ - البيروني (أبو الريحان) : الجماهر فى معرفة الجواهر - تحقيق د / فريتس
كرنكو = سالم الكرنكوى (حيدر آباد ،
الدكن - الهند ١٩٣٨م)
- ١٣ - التلمساني (عفيف الدين) : الديوان ، تحقيق د/ يوسف زيدان (أخبار
اليوم ١٩٩٠م)
- ١٤ - التهانوى (محمد على الفاروقى) : كشاف اصطلاحات الفنون (دار قهرمان
- استانبول)

- ١٥ - التيفاشي : أزهار الأفكار في جواهر الأحجار تحقيق د/ محمد يوسف حسن - د/ محمود بسيوني (الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة ١٩٧٧ م)
- ١٦ - جامي (عبد الرحمن) : نفحات الأنس (طبعة لكتنو - الهند ١٩١٥ م)
- ١٧ - الجرجاني : التعريفات ، تحقيق / إبراهيم الأبياري (دار الكتاب العربي - بيروت ، الطبعة الأولى)
- ١٨ - جلال شرف (دكتور) : الله والعالم والإنسان في الفكر الإسلامي (دار المعرفة الجامعية - الإسكندرية ، بدون تاريخ)
- ١٩ - الجيلاني (الإمام عبد القادر) : الفتح الرباني (الباني الحلبي - القاهرة ، الطبعة الثانية)
- ٢٠ - الجيل (الشيخ عبد الكريم) : الإنسان الكامل في معرفة الأوائل والأواخر (مطبعة صبيح - الأزهر ١٩٦٠ م)
- ٢١ - شرح مشكلات الفتوحات المكية لابن عربي ، تحقيق د/ يوسف زيدان (دار سعاد الصباح - القاهرة ١٩٩٢ م)
- ٢٢ - قصيدة النادرات العينية ، تحقيق د/ يوسف زيدان (دار الجيل - بيروت ١٩٨٨ م)
- ٢٣ - حاجي خليفة : كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون (استانبول ١٩٤٨ م)
- ٢٤ - الحفنى (د/ عبد المنعم) : الموسوعة الصوفية (دار الرشاد - القاهرة ١٤١٢ هجرية)
- ٢٥ - الحلاج (الحسين بن منصور) : الديوان ، نشرة لوى ماسينيون (باريس ١٩٣١ م)
- ٢٦ - الطواسين ، نشرة لوى ماسينيون (باريس ١٩٣١ م)
- ٢٧ - خليف (د/ فتح الله) : فلاسفة الإسلام (دار الجامعات المصرية - الإسكندرية ١٩٧٩ م)
- ٢٨ - الخوانساري : روضات الجنات في أخبار العلماء السادات ، تحقيق / أسد الله إسماعيليان (طهران ١٣٩٢ شمسية !)

- ٢٩ - الدميرى : حياة الحيوان الكبرى (دار إحياء التراث العربى - بيروت ، مصورة !)
- ٣٠ - الذهبي (الشيخ شمس الدين) : سير أعلام النبلاء ، تحقيق لجنة من المحققين (مؤسسة الرسالة - بيروت ، الطبعة الأولى ١٤٠٥ هجرية)
- ٣١ - الرومى (مولانا جلال الدين) : المثنوى ، ترجمة د/ عبد السلام كفافى (المكتبة العصرية - بيروت ١٩٦٠ م)
- ٣٢ - الزبيدى (الشيخ مرتضى) : التكملة والذيل والصلة لمسا فات صاحب القاموس من اللغة (مجمع اللغة العربية - القاهرة)
- ٣٣ - السبكى (تاج الدين) : طبقات الشافعية الكبرى (المطبعة الحسينية - القاهرة)
- ٣٤ - سعاد الحكيم (دكتورة) : ابن عربى ومولد لغة جديدة (بيروت - الطبعة الأولى !)
- ٣٥ - السلمى (أبو عبد الرحمن) : طبقات الصوفية ، تحقيق/ نور الدين شريعة (مكتبة الخانجي - القاهرة)
- ٣٦ - : المقدمة فى التصوف ، تحقيق د/ يوسف زيدان (مكتبة الكليات الأزهرية - القاهرة ، الطبعة الأولى ١٩٨٧)
- ٣٧ - السنوسى : السلسيل المعين فى الطرائق الأربعين (مخطوطة بمكتبة بلدية الإسكندرية - رقم ٦/٣٨٠٣ تصوف)
- ٣٨ - السهروردى (شهاب الدين) : عوارف المعارف (دار الندوة الجديدة - بيروت ، المجلد الخامس من إحياء علوم الدين)
- ٣٩ - سيد عبد التواب (دكتور) : الرمزية الصوفية فى القرآن الكريم (دار المعارف - سلسلة : اقرأ)
- ٤٠ - الشرقاوى (د/ حسن) : الحكومة الباطنية (الإسكندرية - الطبعة الأولى ١٩٧٥ م)
- ٤١ - الششتري (نور الدين) : مجالس المؤمنين (طهران ١٢٦٩ هجرية)

- ٤٢ - الشطنوفى (نور الدين) : بهجة الأسرار ومعدن الأنوار (دار الكتب العربية - القاهرة ١٣٣٠ هجرية)
- ٤٣ - الشعرانى (الشيخ عبد الوهاب) : لطائف المنن والأخلاق (دار الفكر - القاهرة ١٩٧٦ م)
- ٤٤ - : الأجوبة المرضية من أئمة العلماء والصوفية (مخطوطة دار الكتب المصرية بالقاهرة) .
- ٤٥ - الشهرزورى : تاريخ الحكماء = نزهة الأرواح وروضة الأفراح ، تحقيق د/ عبد الكريم أبو شويرب (جمعية الدعوة العالمية - ليبيا ١٩٨٨ م)
- ٤٦ - الشيبانى : تمييز الطيب من الخبيث فيما يجرى على ألسنة العامة من الحديث (القاهرة ١٣٢٤ هجرية)
- ٤٧ - الشيبى (د/ كامل) : الصلة بين التصوف والتشيع (دار المعارف بمصر)
- ٤٨ - الصفدى : الوافى بالوفيات ، نشرة إحسان عباس (فرانز ستانير - فسادن ١٣٨٩ هجرية)
- ٤٩ - طاشكبرى زادة : مفتاح السعادة ومصباح السيادة (حيدر آباد - الهند ١٣٢٩ هجرية)
- ٥٠ - العبدلى : رسالة فيما ورد فى الثلج والجمد والبرد (طبعة بغداد)
- ٥١ - ابن عربى (الشيخ الأكبر محبى الدين) : ذخائر الأعلاق شرح ترجمان الأشواق ، تحقيق محمد الكردى (مطبعة السعادة - القاهرة ، بدون تاريخ)
- ٥٢ - : رسالة اصطلاح الصوفية (مكتبة عالم الفكر - القاهرة ١٤٠٧ هجرية)
- ٥٣ - العرينى (د/ السيد الباز) : المغول (دار النهضة العربية - بيروت ١٩٨١ م)
- ٥٤ - ابن عطاء الله السكندرى : الحكم العطائية - شرح الشيخ زروق ، تحقيق د/ عبد الحليم محمود - د/ محمد بن الشريف (دار الشعب - القاهرة ١٤٠٥ هجرية)
- ٥٥ - العطار (فريد الدين) : منطق الطير ، ترجمة د/ بديع جمعة (دار الأندلس - بيروت ١٩٨٤ م)

- ٥٦ - ابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب في أخبار من ذهب (دار الآفاق الجديدة - طبعة مزورة ! - بيروت)
- ٥٧ - عمر الصوفي : صور الكواكب الثمانية والأربعين (دار الآفاق الجديدة - بيروت ، طبعة مزورة !)
- ٥٨ - ابن الفارض : الديوان ، تحقيق د/ عبد الخالق محمود (دار المعارف - القاهرة ١٩٨٤ م)
- ٥٩ - الفيروز آبادي : القاموس المحيط (دار الجيل - بيروت ، مصورة !)
- ٦٠ - قاسم غني (دكتور) : تاريخ التصوف في الإسلام ، ترجمة صادق نشأت (مكتبة النهضة المصرية - القاهرة ١٩٧٢ م)
- ٦١ - القاشاني : اصطلاحات الصوفية ، تحقيق د/ محمد كمال جعفر (الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة ١٩٨١ م)
- ٦٢ - القشيري : الرسالة القشيرية (الباني الحلبي - القاهرة ١٣٧٩ هجرية)
- ٦٣ - القلقشندي : صبح الأعشى في صناعة الإنشا (دار الكتب الخديوية - المطبعة الأميرية بالقاهرة ١٣٣٢ هجرية)
- ٦٤ - القوصوني : قاموس الأطباء وناموس الألباء (مخطوطة دار الكتب الظاهرية - مصورات المجمع العلمي السوري)
- ٦٥ - كحالة (عمر) : معجم المؤلفين (دار إحياء التراث العربي - بيروت)
- ٦٦ - الكلاباذي : التعرف لمذهب أهل التصوف ، تحقيق د/ محمود النواي (مكتبة الكليات الأزهرية - الطبعة الثانية)
- ٦٧ - الكمشخاوي : جامع الأصول (طبعة مصورة - بخط اليد - بدون بيانات)

- ٦٨ - ماهر عبد القادر (دكتور) : فلسفة العلوم ، المشكلات المعرفية (دار النهضة العربية - بيروت ١٩٩٠ م)
- ٦٩ - محمد مصطفى حلمي (دكتور) : ابن الفارض والحب الإلهي (دار المعارف بمصر)
- ٧٠ - المقریزی : خطط مصر : كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار (دار الشعب - القاهرة)
- ٧١ - مكدونالد : مادة « حزب » بدائرة المعارف الإسلامية ، الترجمة العربية (دار الشعب - دار الجيل ، بيروت)
- ٧٢ - المكي (الشيخ أنى طالب) : قوت القلوب في معاملة المحبوب (طبعة القاهرة)
- ٧٣ - الملك التركاني ابن رسول : المعتمد في الأدوية المفردة (دار القلم - بيروت)
- ٧٤ - ابن منظور : لسان العرب ، تصنيف / يوسف خياط (دار لسان العرب - بيروت ، الطبعة الأولى)
- ٧٥ - ميزرا على مدرس : ریحانة الأدب في ترجمة المعروفين بالكنية والمقب (جنبانه - سفق - تبریز)
- ٧٦ - النابلسي : شرح ديوان ابن الفارض (طبعة بيروت - مصورة)
- ٧٧ - : المعارف الغيبية شرح العينية الجيلية (مخطوط بدار الكتب المصرية بالقاهرة)
- ٧٨ - النيهاني (الشيخ يوسف) : جامع كرامات الأولياء (دار الكتب العربية - القاهرة ١٣٢٩ هجرية)
- ٧٩ - اليافعي (عبد الله بن أسعد) : مرآة الجنان وعبرة اليقظان (حيدر آباد - الهند ١٣٣٩ هجرية)
- ٨٠ - ياقوت الحموي : معجم البلدان (دار صادر - بيروت)
- ٨١ - يوسف زيدان (دكتور) : شعراء الصوفية المجهولون (مؤسسة أخبار اليوم - القاهرة ١٩٩١ م)
- ٨٢ - : الطريق الصوفي وفروع القادرية بمصر (دار الجيل - بيروت ١٤١١ هجرية)

-
- ٨٣ - : عبد الكريم الجبلى فيلسوف الصوفية (الهيئة المصرية العامة للكتاب - أعلام العرب ، الطبعة الأولى)
- ٨٤ - : عبد القادر الجيلانى ، باز الله الأشهب (دار الجيل - بيروت ١٤١١ هجرية)
- 85 — Brockelmann : Geschite der Arabischen Litterature, Sup. (Leiden , 1939)
- 86 — Fritz Meyer : Die Fawaih al Gamal (Wiesbaden 1958)
- 87 — Massignon : Art «TARIKA» in Ency. of Islam.

فهرس الموضوعات

الموضوع	رقم الصفحة
★ الإهداء	٧
★ تمهيد	٩
★ نجم الدين الكبرى *	
★ الفصل الأول : حياته وأخباره	١٣
— اسمه وألقابه	١٥
— مولده ونشأته	٢١
— رحلاته وسياحته	٢٢
— الولاية	٢٨
— مذهبه	٣٠
— كراماته	٣٥
— استشهاده	٣٨
— مصادر بحثه	٤٣
★ الفصل الثاني : شيوخه ومعاصروه	٤٧
— روزبهان	٤٩
— ابن العصر	٥٤
— عمار	٥٦
— القصرى	٥٩
— الرازى	٦٢
★ الفصل الثالث : تلاميذه وطريقته	٦٧
— صانع الأولياء	٦٧
— الباخرزى	٦٩
— مجد الدين البغدادى	٧٣

الموضوع	رقم الصفحة
— نجم الدين داية	٧٥
— على لالا	٨٠
— سعد الدين الحموى	٨١
— فروع الكبرى	٨٣
— الأذكار الكبرى	٨٥
★ الفصل الرابع : أسلوبه ومؤلفاته	٨٧
— أسلوب الشيخ	٨٧
— الأصول العشرة	٨٩
— رسالة السفينة	٩٦
— رسالة الهائم	٩٧
— تفسير القرآن	٩٩
— الرباعيات	١٠٤
— فوائح الجمال وفوائح الجلال	١٠٨
★ منهج التحقيق ★	١١١
— نسخ التحقيق	١١٣
— الهوامش	١١٤
— العناوين الجانبية	١١٥
— الرموز المستخدمة	١١٦
★ النص المحقق	١١٩
★ الفهارس	٢٦٣
★ المراجع	٢٨٩
★ فهرس الموضوعات	٢٩٩

■ دار سعاد الصباح

للنشر والتوزيع

هي مؤسسة ثقافية عربية
مسجلة بدولة الكويت
وجمهورية مصر العربية
وتهدف إلى نشر ما هو
جدير بالنشر من روائع
التراث العربي والثقافة
العربية المعاصرة والتجارب
الابداعية للشباب العربي
من المحيط إلى الخليج وكذا
ترجمة ونشر روائع الثقافات
الأخرى حتى تكون في
مناول أبناء الأمة فهذه
الدار هي حلقة وصل بين
التراث والمعاصرة وبين
كبار المبدعين وشبابهم
وهي نافذة للعرب على
العالم ونافذة للعالم على
الأمة العربية وتلتزم الدار
فيما تنشره بمعايير تضعها
هيئة مستقلة من كبار
المفكرين العرب في
مجالات الإبداع المختلفة .

هيئة المستشارين :

أ. إبراهيم فريح	(مدير التحرير)
د. جابر عصفور	
أ. جمال الغيطاني	
د. حسن إبراهيم	
أ. حلمى التولى	(المستشار الفنى)
د. خلدون النقيب	
د. سعد الدين إبراهيم	(العضو المنتدب)
د. سمير سرحان	
د. عدنان شهاب الدين	
د. محمد نور فرحات	(المستشار القانونى)
أ. يوسف القعيد	



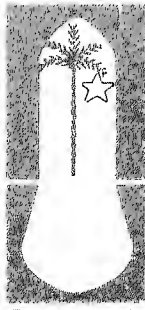
فوائد الجبال وفوائد الجلال

الكتاب

يضم هذا الكتاب دراسة وتحقيقاً ..

تدور الدراسة حول الصوفي المسلم العظيم نجم الدين الكبرى ، أعظم رجال التصوف السني في المشرق الإسلامي أوائل القرن السابع الهجري .. تستعرض فصول الدراسة الأربعة حياة الشيخ وتفاصيل تصوفه وشيوخه في الطريق وتلامذته الذين حملوا من بعده لواء الطريقة الكبرى ، كما تتوقف الدراسة عند أهم أحداث القرن السابع الهجري « غزو المغول » لتوضح دور الشيخ نجم الدين في هذه المرحلة المهمة من تاريخ الأمة الإسلامية .

وفي القسم الثاني من الكتاب يقدم الدكتور يوسف زيدان تحقيقاً علمياً دقيقاً لكتاب « فوائد الجبال وفوائد الجلال » وهو أهم كتب الشيخ نجم الدين ، وهو يُنشر محققاً للمرة الأولى في العالم العربي المعاصر .. والتحقيق مُذًّل بمجموعة فهراس وكشافات دقيقة ، وفي الكتاب سنجد - أيضاً - مجموعة أخرى من رسائل نجم الدين الكبرى .. محققة .



دار سعاد الصباح

المحقق



دكتور يوسف زيدان

- ★ ولد بسوهاج سنة ١٩٥٨ م .
- ★ عاش بالإسكندرية ودرس بها حتى نال درجة الدكتوراه من جامعتها في الفلسفة الإسلامية سنة ١٩٨٩ م .
- ★ عضو : اتحاد كتاب مصر - الجمعية الفلسفية المصرية - الجمعية العالمية لتاريخ الطب (باريس) .. وغير ذلك .
- ★ شارك ببحوثه في التصوف وتاريخ العلوم العربية في العديد من المؤتمرات .
- ★ كتب عشرات البحوث والمقالات في التراث العربي الإسلامي .
- ★ له ما يقرب من عشرين كتاباً في التراث الصوفي وتاريخ العلوم العربية والفلسفة الإسلامية .
- ★ نشرت له دار سعاد الصباح قبل ذلك كتاب : شرح مشكلات الفتوحات المكية ، لعبد الكريم الجبلي (دراسة وتحقيق) .